❀ ❀ ❀

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية. قال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا شُعْبَة، عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرة سورة الفتح على راحلته فرجّع فيها ـ قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته، أخرجاه من حديث شعبة به.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّه من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، ﷻ، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود، رضي الله عنه، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وقال الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وقال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء ـ ثلاث مرات ـ فلم يرد علي، قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾». ورواه البخاري، والترمذي والنسائي، من طرق، عن مالك، رحمه الله، وقال علي بن المديني: هذا إسناد مديني جيد لم نجده إلا عندهم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بين الله، ﷻ، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]، أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به. وقال الإمام

أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مُجَمِّعُ بن يعقوب، قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن أبي يزيد الأنصاري عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري ـ وكان أحد القراء الذي قرؤوا القرآن ـ قال: شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾، قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، وفتح هو؟ قال: «إي والذي نفس محمد بيده، إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفا وخمسمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهماً. رواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى، عن مجمع بن يعقوب، به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، حدثنا جامع بن شداد، عن عبد الرحمن بن أبي علقمة، قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: لما أقبلنا من الحديبية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا». فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي». قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبنها، فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها، فبينا نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾.

وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائي من غير وجه، عن جامع بن شداد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة، قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به. وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه. فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟». أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الله بن عون الخراز ـ وكان ثقة بمكة ـ حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر، عن قتادة، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ـ أو قال: ساقاه ـ فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». غريب من هذا الوجه. فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ أي: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان. وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: هذا من خصائصه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ التي لا يشاركه فيها غيره. وليس صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة. ولما كان أطوع خلق الله لله، وأكثرهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها». فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ②﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت ـ أي في الدنيا والآخرة ـ أحداً عصى الله تعالى فيه بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦﴾.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة. قال ابن عباس، وعنه: الرحمة. وقال قتادة: الوقار في قلوب

المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم. وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب. ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، قد تقدم حديث أنس: قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً، ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾. ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء ـ أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ـ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: على الخلق، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: للمؤمنين، ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة «الأحزاب» ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعظموه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾، من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: يسبحون الله، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: أول النهار وآخره. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ، كقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الفضل بن يحيى الأنباري، حدثنا علي بن بكار، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سل سيفه في سبيل الله، فقد بايع الله». وحدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ في الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما، ولسان ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل: ألف وثلثمائة. وقيل: أربعمائة. وقيل: وخمسمائة. والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك: قال البخاري: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة. ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، به. وأخرجاه أيضاً من حديث الأعمش، عن سالم ابن أبي الجعد، عن جابر قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى رووا كلهم. وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته، فوضعوه في بئر الحديبية، فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفا وأربعمائة، ولو كان مائة ألف لكفانا. وفي رواية في الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة. وروى البخاري من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. وروى العوفي عن ابن عباس: أنهم كانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة

وعشرين. والمشهور الذي رواه غير واحد عنه: أربع عشرة مائة، وهذا هو الذي رواه البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن العباس الدوري، عن يحيى بن معين، عن شبابة بن سوار، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺتحت الشجرة ألفاً وأربعمائة. وكذلك هو في رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء بن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير. وقد أخرج صاحبا الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين. وروى محمد بن إسحاق في السيرة، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺعام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، كل بدنة عن عشرة نفر، وكان جابر بن عبد الله فيما بلغني عنه يقول: كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة. كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه، فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة: قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺعمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺإليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺوالمسلمين أن عثمان قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺالناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺعلى الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺلم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على ألاَّ نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺأن الذي كان من أمر عثمان باطل.

وذكر ابن لهيعة، عن الأسود، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق، وزاد في سياقه: أن قريشاً بعثوا وعندهم عثمان بن عفان سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فبينما هم عندهم إذا وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل، ونادى منادي رسول الله ﷺ: ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة، فاخرجوا على اسم الله فبايعوا، فسار المسلمون إلى رسول الله ﷺوهو تحت الشجرة فبايعوه على ألا يفروا أبداً، فأرعب ذلك المشركين، وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح. وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا علي بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا تمتام، حدثنا الحسن بن بشر، حدثنا الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: لما أمر رسول الله ﷺببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺإلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله». فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺلعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم. قال ابن هشام: وحدثني من أثق به عمن حدثه بإسناد له، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر قال: بايع رسول الله ﷺلعثمان، فضرب بإحدى يديه على الأخرى. وقال عبد الملك بن هشام النحوي: فذكر وكيع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي: أن أول من بايع رسول الله ﷺبيعة الرضوان أبو سنان الأسدي. وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا ابن أبي خالد، عن الشعبي، قال: لما دعا رسول الله ﷺالناس إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدي رضي الله عنه، فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبي ﷺ «علام تبايعني؟». فقال أبو سنان: على ما في نفسك. هذا أبو سنان بن وهب الأسدي رضي الله عنه. وقال البخاري: حدثنا شجاع بن الوليد، سمع النضر بن محمد: حدثنا صخر بن الربيع، عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل

عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهي التي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم قال البخاري: وقال هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عمر بن محمد العمري، أخبرني نافع، عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال ـ يعني عمر ـ: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع. وقد أسنده البيهقي عن أبي عمرو الأديب، عن أبي بكر الإسماعيلي، عن الحسن بن سفيان، عن دحيم: حدثني الوليد بن مسلم فذكره.

وقال الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه. وروى مسلم عن يحيى بن يحيى، عن يزيد بن زريع، عن خالد، عن الحكم بن عبد الله بن الأعرج، عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر. وقال البخاري: حدثنا المكي بن إبراهيم، عن زيد بن أبي عبيد، عن سلمة بن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وقال البخاري أيضاً: حدثنا أبو عاصم، حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «يا سلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد ابن أبي عبيد. وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت. وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم، حدثنا أحمد بن سلمة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو عامر العقدي عبد الملك بن عمرو، حدثنا عكرمة بن عمار اليمامي، عن إياس بن سلمة، عن أبيه سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاه لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها ـ يعني الركي ـ فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان في وسط الناس قال ﷺ: «بايعني يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس. قال: «وأيضاً». قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجفة ـ أو درقة ـ ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم. قال: «وأيضاً». فبايعته الثالثة، قال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذي قال الأول: اللهم أبغني حبيباً من أحب إلي من نفسي» قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، أسقي فرسه وأحسه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى منادي من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفي، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له: «مكرز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [الفتح: ٢٤]. وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن إبراهيم بن راهويه بسنده نحوه، أو قريباً منه.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة، عن طارق، عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم. وقال أبو بكر الحميدي: حدثنا سفيان، حدثنا أبو الزبير، حدثنا جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلاً منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئاً تحت إبط بعيره». رواه مسلم من حديث ابن جريج، عن ابن الزبير، به. وقال الحميدي أيضاً: حدثنا سفيان، عن

عمرو، سمع جابراً، قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه من حديث سفيان. وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا الليث، عن أبي الزبير، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن هارون الفلاس المخرمي، حدثنا سعد بن عمرو الأشعثي، حدثنا محمد بن ثابت العبدي، عن خداش بن عياش، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر». قال: فانطلقنا نبتدره فإذا رجل قد أضل بعيره، فقلنا: تعال فبايع. فقال: أصيب بعيري أحب إلي من أن أبايع. وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا قرة، عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بني الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة. رواه مسلم عن عبيد الله، به. وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً يقول: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت لحفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبي ﷺ: «قد قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾» [مريم: ٧٢]، رواه مسلم. وفيه أيضاً عن قتيبة، عن الليث، عن أبي الزبير، عن جابر؛ أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدراً والحديبية». ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يرد ما أراده فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا وتابعتمونا؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. ثم قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين. وقيل: هي بلغة عمان. ثم قال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب، وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتتحونها: أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم. فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدراً؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾. قال

مجاهد، وقتادة، وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: هو قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: ٨٣]. وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر؛ لأن هذه الآية التي في «براءة» نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن غزوة الحديبية. وقال ابن جريج: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ﴾ أي: أن نشرككم في المغانم، ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذي يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: **أحدها**: أنهم هوازن. رواه شعبة عن أبي بِشر، عن سعيد بن جبير ـ أو عكرمة، أو جميعاً ـ ورواه هُشيم عن أبي بشر، عنهما. وبه يقول قتادة في رواية عنه. **الثاني**: ثقيف، قاله الضحاك. **الثالث**: بنو حنيفة، قاله جويبر. ورواه محمد بن إسحاق، عن الزهري. وروي مثله عن سعيد وعكرمة. **الرابع**: هم أهل فارس. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة ـ في إحدى الروايات عنه. وقال كعب الأحبار: هم الروم. وعن ابن أبي ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأشج، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القواريري، عن مَعْمَر، عن الزهري، في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد. وحدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هريرة في قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون. قال: وحدثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين، ذلف الآنف، كأن وجوههم المجانّ المطرقة». قال سفيان: هم الترك. قال ابن أبي عمر: وجدت في مكان آخر: ابن أبي خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة ففسر قول رسول الله ﷺ: «تقاتلون قوماً نعالهم الشَّعْر»، قال: هم البارزون، يعني الأكراد. وقوله: ﴿تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ﴾ يعني: يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكن النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار. ثم قال: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه، ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل عن المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. قال البخاري: حدثنا محمود، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم. وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾: وهي الطمأنينة، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا موسى ـ يعني ابن عبيدة ـ حدثني إياس بن سلمة، عن

أبيه، قال: بينما نحن قائلون. إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس. قال: فثُرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع لعثمان بإحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان، طوف بالبيت ونحن هاهنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا كذا ما طاف حتى أطوف».

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر. وروى العوفي عن ابن عباس: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحريمكم، ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر، كما قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره واتباعهم طاعته، وموافقتكم رسوله. وقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسَّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة، ما المراد بها؟ فقال العَوْفي عن ابن عباس: هي خيبر. وهذا على قوله في قوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾: إنها صلح الحديبية. وقاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: هي مكة. واختاره ابن جرير. وقال ابن أبي ليلى، والحسن البصري: هي فارس والروم. وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن سِمَاك الحنَفي، عن ابن عباس: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. وقوله: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ يقول تعالى مبشراً لعباده المؤمنين: بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعددهم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾: هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيد المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكفّ أيدي المؤمنين من المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيَرَةٌ للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع حين جاؤوا بأولئك السبعين الأساري فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم وقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه». قال: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا ـ قال عفان: فعفا عنهم ـ ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. ورواه مسلم وأبو داود في سننه، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما، من طرق، عن حماد بن سلمة، به.

وقال أحمد ـ أيضاً ـ: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا الحسين بن واقد، حدثنا ثابت البُنَاني، عن عبد الله بن مُغَفَّل المُزَني قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب. وسهيلُ بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم. اكتب في قضيتنا ما نعرف. قال: «اكتب بسمك اللهم»، وكتب:

«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة». فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو: هل جعل لكم أحد أماناً؟». فقالوا: لا. فخلى سبيلهم، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾. رواه النسائي من حديث حسين بن واقد، به.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حُمَيْد، حدثنا يعقوب القُمّي، حدثنا جعفر، عن ابن أبْزَى قال: لما خرج النبي ﷺ بالهدي وانتهى إلى ذي الحليفة، قال له عمر: يا نبي الله، تدخل على قوم لك حَرْب بغير سلاح ولا كُرَاع؟ قال: فبعث إلى المدينة، فلم يدع فيها كُرَاعاً ولا سلاحاً إلا حمله، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: «يا خالد، هذا ابن عمك أتاك في الخيل»، فقال خالد: أنا سيف الله، وسيف رسوله ـ فيومئذ سمي سيف الله ـ يا رسول الله، ارم بي أين شئت. فبعثه على خيل، فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، فأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. قال: فكف الله النبي عنهم من بعد أن أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها كراهية أن تطأهم الخيل. ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبزى بنحوه. وهذا السياق فيه نظر؛ فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالداً لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هَدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شيء فليتأمل، والله أعلم. وقال ابن إسحاق: حدثني من لا أتهم، عن عكرمة مولى ابن عباس: أن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يُطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأُخذُوا أخذاً، فأُتي بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل. قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً يقال له: «ابن زُنَيْم» اطلع على الثنية من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً، فأتوه باثني عشر فارساً من الكفار، فقال لهم: «هل لكم علي عهد؟ هل لكم علي ذمة؟». قالوا: لا. فأرسلهم، وأنزل الله في ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم، ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: أنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يصل إلى محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهديُ سبعين بدنة، كما سيأتي بيانه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سَلّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو الزِّنْباع ـ روح بن الفرج ـ حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد المكي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ حدثنا حُجْر بن خلف: سمعت عبد الله بن عوف يقول: سمعت جنيد بن سبع يقول:

قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾. قال: كنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين. ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن عباد المكي به، وقال فيه: عن أبي جمعة جنيد بن سبع، فذكره والصواب أبو جعفر: حبيب بن سباع. ورواه ابن أبي حاتم من حديث حجر بن خلف، به. وقال: كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة، عن أبي حمزة، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين، لعذبهم الله عذاباً أليماً بقتلهم إياهم.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبو أن يكتبوا: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله»، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهي قول: «لا إله إلا الله»، كما قال ابن جرير، وعبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن ثوير، عن أبيه، عن الطفيل ـ يعني: ابن أبي بن كعب رضي الله عنه ـ عن أبيه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، قال: «لا إله إلا الله». وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وسألت أبا زُرْعَة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة أخبره، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»، وأنزل الله في كتابه، وذكر قوماً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥]، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ وهي: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، وكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة. وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري، والله أعلم. وقال مجاهد: ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن المسور: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن عَبَاية بن رِبْعِي، عن علي: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر. وكذا قال ابن عمر، رضي الله عنهما. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: يقول: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله لا الله، والجهاد في سبيله. وقال عطاء الخراساني: هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال عبد الله بن المبارك، عن مَعْمَر، عن الزهري: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وقال قتادة: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله. ﴿وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾: كان المسلمون أحق بها، وكانوا أهلها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر. وقد قال النسائي: حدثنا إبراهيم بن سعيد، حدثنا شبابة بن سوار، عن أبي رزين، عن عبد الله ابن العلاء بن زبر، عن بسر بن عبيد الله، عن أبي إدريس، عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام. فبلغ ذلك عمر فأغلظ له، فقال: إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما عمله الله. فقال عمر: بل أنت رجل عندك علم وقرآن، فاقرأ وعلم مما علمك الله ورسوله.

وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقضية الصلح: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يَسَار، عن الزهري، عن عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العُوذ المطافيل، قد لبست جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس

فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما ذلك لها بخلق، ولكنها حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». ثم قال للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قليب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدَيل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: و كانت خزاعة في عَيْبَة رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عَنْوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، أحد بني عامر بن لؤى، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كَلّم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهَدْي في وجهه»، فبعثوا الهدي، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عُرْض الوادي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صَدّه، الهدي في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! أنحن ننكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أبي قحافة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أفظعك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمد؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟! قال: فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت مَلكاً قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأتي لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته وحمله بين يديه وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: أئت محمداً فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد

القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه حيث كان، فإني أشهد أنه رسول الله. ثم قال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: ما زلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً.

قال: ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صلح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو»، فقال سهيل بن عمرو: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، وسهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريش ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب، فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد لجّت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟ قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشي مع أبي جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدني قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغا من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، انحروا واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تُكَلِّمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره. ثم جلس فحلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح. هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وهكذا رواه يونس بن بُكَيْر وزياد البكائي، عن ابن إسحاق، بنحوه، وفيه إغراب، وقد رواه أيضاً عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، به نحوه وخالفه في أشياء.

وقد رواه البخاري، رحمه الله، في صحيحه، فساقه سياقة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فقال في كتاب الشروط من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا مَعْمَر: أخبرني الزهري: أخبرني عُرْوَة بن الزبير، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم، وذراري هؤلاء الذين يريدون أن صدونا عن البيت؟»، وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر، رضي الله عنه: الله ورسوله أعلم إنما جئنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن»، وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله». حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته. فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال: ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته. قالوا: ائته. فأتاه فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر، رضي الله عنه: امصص بَظْر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة، رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخر يدك من لحية النبي ﷺ. فرفع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، ألست أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال النبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْن، فابعثوها له» فبُعِثَتْ له، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البُدْن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت. فقال رجل منهم يقال له: «مِكْرَز بن حفص»، فقال: دعوني آته. فقالوا: ائته. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو.

وقال معمر: أخبرني أيوب، عن عِكْرِمَةَ أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سَهُل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال

النبي ﷺ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني. اكتب محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال: سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن تَرُدَّه إليّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نَقْضِ الكتاب بعد». قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: «فأجزه لي» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرَدّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذِّبَ عذاباً شديداً في الله ﷻ. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت نطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومُطوِّف به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغَرْزه، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، . ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمّه مِسْعَرُ حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. هكذا ساقه البخاري هاهنا، وقد أخرجه في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة، كلاهما عن الزهري، به. ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان والمِسْوَر بن مَخْرَمة، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك. وهذا أشبه

والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حولا ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم. وقال البخاري في التفسير: حدثنا أحمد بن إسحاق السُّلَمِي، حدثنا يعلي، حدثنا عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال علي بن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حُنَيْف: اتهمُوا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً»، فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل، فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل سفيان بن سلمة، عن سهيل بن حنيف به، وفي بعض ألفاظه: «يا أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته» وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه. قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس، أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ، فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: «باسمك اللهم». فقال: اكتب من محمد رسول الله». قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله». رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، به. وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني سماك، عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسولك، امح يا علي، واكتب: هذا ما صلح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار اليمامي، بنحوه. وروى الإمام أحمد، عن يحيى بن آدم: حدثنا زهير، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صُدَّت عن البيت حَنَّتْ كما تَحِنّ إلى أولادها.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

كان رسول الله ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا» قال: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، رضي الله عنه، أيضاً حَذْو القُذَّة بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: وهذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: في حال دخولكم. وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، حال مقدرة؛ لأنهم في حال حرمهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت في الصحيحن أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «رحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة. وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل

والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه، ولم يغب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سِمَاك بن خَرَشَة، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة في سنة سبع خرج إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيف مغمدة في قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مِكْرَز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. قال: «وما ذاك؟». قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أصحابه غيظاً وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذي لا دين إلا دينُه ... باسم الذي محمدٌ رسوله
خَلّو بني الكُفّار عَنْ سَبِيله ... اليوم نضربكم على تَأويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيلُ الهام عَن مَقِيله
ويُذهِل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صُحف تتلى على رسُوله ... بأن خير القَتْل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة. قال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ﷺ، وهو يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ... إني شَهيدٌ أنه رَسُولُهُ
خلوا فكل الخير في رسوله ... يا رب إني مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء، مشى عبد الله بن رواحة بين يديه، وفي رواية وابن رواحة آخذ بغرزه، وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله ... يا رب إني مؤمن بقيله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا إسماعيل ـ يعني: ابن زكريا ـ عن عبد الله ـ يعني: ابن عثمان ـ عن أبي الطُّفَيْل، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران في عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول: ما يتباعثون من العَجَف. فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَونا من مَرَقه، أصبحنا غداً حين ندخل على القوم وبنا جَمَامَة. قال: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطبع بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميزة» فاستلم الركن ثم رَمَل، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشي أما إنكم لتنقُزُون نَقْزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سُنَّة. قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس: أن

رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع. وقال أحمد أيضاً: حدثنا يونس؛ حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمّى يثرب، ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد، به وفي لفظ: قدم النبي ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أي من ذي القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

قال البخاري: وزاد ابن سلمة ـ يعني: حماد بن سلمة ـ عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعيقعان. وحدثنا محمد، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته. ورواه في مواضع أخر، ومسلم والنسائي، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به. وقال أيضاً: حدثنا علي بن أبي عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، سمع ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم. وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد بن رافع، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا أبي، حدثنا فليح بن سليمان، عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم ولا سيوفاً، ولا يقيم بها إلا ما أحبوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثاً، أمروه أن يخرج فخرج. وهو في صحيح مسلم أيضاً. وقال البخاري أيضاً: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يَدَعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئاً، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلي بن أبي طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، يا عم. فتناولها علي فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال عليّ: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال علي: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاعة» انفرد به من هذا الوجه. وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فعلم الله تعالى من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾: وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين. ثم قال تعالى، مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: أنه رسوله، وهو ناصره.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه، أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾، وهذا مبتدأ وخبر،

وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر»، وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح. وقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، ﷻ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه، تعالى، عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ يعني: السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني: الخشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطّنافسي، حدثنا حسين الجَعْفِي، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم. وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار. وقد أسنده ابن ماجه في سننه، عن إسماعيل بن محمد الطّلحي، عن ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كَثُرَتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف. وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صَفَحَات وجهه، وفَلَتَات لسانه. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر في صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العَرْزَمي، عن سلمة بن كُهَيْل، عن جُنْدَب بن سفيان البَجَلي قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شر فشر»، العرزمي متروك. وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائناً ما كان». وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حسن، حدثنا زُهَيْر، حدثنا قابوس بن أبي ظَبْيَان: أن أباه حدثه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زهير، به. فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم. وقال مالك، رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي: فراخه، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: شده ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: شب وطال، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمه الله، في رواية عنه ـ بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافقه طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم. ثم قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ «من» هذه لبيان الجنس، ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ : «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

آخر تفسير سورة الفتح، ولله الحمد والمنة

❊ ❊ ❊

(٤٨) سورة الفتح مدنية وآياتها تسع وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى الفتح وجوه : (أحدها) فتح مكة وهو ظاهر (وثانيها) فتح الروم وغيرها (وثالثها) المراد من الفتح صلح الحديبية (ورابعها) فتح الإسلام بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان (وخامسها) المراد منه الحكم كقوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) وقوله (ثم يفتح بيننا بالحق) والمختار من الكل وجوه : أحدها فتح مكة ، والثانى فتح الحديبية ، والثالث فتح الإسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان . والأول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه (أحدها) أنه تعالى لما قال (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) إلى أن قال (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) بين تعالى أنه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم (ثانيها) لما قال (والله معكم) وقال (وأنتم الأعلون) بين برهانه بفتح مكة ، فإنهم كانوا هم الأعلون (ثالثها) لما قال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم) وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم ، بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح فى أحد الوجوه ، وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين ، فإن قيل : إن كان المراد فتح مكة ، فمكة لم تكن قد فتحت ، فكيف قال تعالى (فتحنا لك فتحاً مبيناً) بلفظ الماضى ؟ نقول : الجواب عنه من وجهين : (أحدهما) فتحنا فى حكمنا وتقديرنا (ثانيهما) ما قدره الله تعالى فهو كائن ، فأخبر بصيغة الماضى إشارة إلى أنه أمر لا دافع له ، واقع لا رافع له .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ليغفر لك الله) ينبىء عن كون الفتح سبباً للمغفرة ، والفتح لا يصلح سبباً للمغفرة ، فما الجواب عنه ؟ نقول : الجواب عنه من وجوه : (الأول) ما قيل إن الفتح لم يجعله سبباً للمغفرة وحدها ، بل هو سبب لاجتماع الأمور المذكورة وهى : المغفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة ، كأنه تعالى قال : ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ، ولا شك أن الاجتماع لم يثبت إلا بالفتح ، فإن النعمة به تمت ، والنصرة بعده قد عمت (الثانى) هو أن فتح مكة كان سبباً لتطهير بيت الله تعالى من رجس الأوثان ، وتطهير بيته صار سبباً لتطهير عبده (الثالث) هو أن بالفتح يحصل الحج ، ثم بالحج تحصل المغفرة ، ألا ترى إلى دعاء النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال فى الحج «اللهم اجعله حجاً مبروراً ، وسعياً مشكوراً ، وذنباً مغفوراً» (الرابع) المراد منه التعريف تقديره (إنا فتحنا لك) ليعرف أنك مغفور ، معصوم ، فإن الناس كانوا علموا بعد عام الفيل أن مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه ، وإنما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ لم يكن للنبى ﷺ ذنب ، فماذا يغفر له ؟ قلنا (الجواب) عنه قد تقدم مراراً من وجوه (أحدها) المراد ذنب المؤمنين (ثانيها) المراد ترك الأفضل (ثالثها) الصغائر فإنها جائزة على الأنبياء بالسهو والعمد ، وهو يصونهم عن العجب (رابعها) المراد العصمة ، وقد بينا وجهه فى سورة القتال .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ما معنى قوله (وما تأخر) ؟ نقول فيه وجوه (أحدها) أنه وعد النبى عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة (ثانيها) ما تقدم على الفتح ، وما تأخر عن الفتح (ثالثها) العموم يقال اضرب من لقيت ومن لا تلقاه ، مع أن من لا يلقى لا يمكن ضربه إشارة إلى العموم (رابعها) من قبل النبوة ومن بعدها ، وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة ، وفيه وجوه أخر ساقطة ، منها قول بعضهم : ما تقدم من أمر مارية ، وما تأخر من أمر زينب ، وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام ، وقوله تعالى (ويتم نعمته عليك) يحتمل وجوهاً : (أحدها) هو أن التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج ، وهو آخر التكاليف ، والتكاليف نعم (ثانيها) يتم نعمته عليك بإخلاء الأرض لك عن معانديك ، فإن يوم الفتح لم يبق للنبى عليه الصلاة والسلام عدو ذوا اعتبار ، فإن بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر . والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح (ثالثها) ويتم نعمته عليك فى الدنيا باستجابة دعائك فى طلب الفتح ، وفى الآخرة بقبول شفاعتك فى الذنوب ولو كانت فى غاية القبح ، وقوله تعالى (ويهديك صراطاً مستقيماً) يحتمل وجوهاً (أظهرها) يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت إلى قوله من المضلين ، أو ممن يقدر على الإكراه على الكفر ، وهذا يوافق قوله تعالى (ورضيت لكم الإسلام ديناً) حيث أهلكت المجادلين فيه ، وحملتهم على الإيمان) (وثانيها) أن يقال جعل الفتح سبباً للهداية إلى

الصراط المستقيم ، لأنه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد ، والجهاد سلوك سبيل الله ، ولهذا يقال للغازى فى سبيل الله مجاهد (وثالثها) ما ذكرنا أن المراد التعريف ، أى ليعرف أنك على صراط مستقيم ، من حيث إن الفتح لا يكون إلا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل ، وقوله (وينصرك الله نصراً عزيزاً) ظاهر ، لأن بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر ، وفيه مسألتان إحداهما لفظية والأخرى معنوية :

﴿ أما المسألة اللفظية ﴾ فهى أن الله وصف النصر بكونه عزيزاً ، والعزيز من له النصر (والجواب) من وجهين (أحدهما) ما قاله الزمخشرى ، أنه يحتمل وجوها ثلاثة (الأول) معناه نصر إذ عز ، كقوله (فى عيشة راضية) أى ذات رضى (الثانى) وصف النصر بما يوصف به المنصور إسناداً مجازياً يقال له كلام صادق ، كما يقال له متكلم صادق (الثالث) المراد نصراً عزيزاً صاحبه (الوجه الثانى) من الجواب أن نقول : إنما يلزمنا ماذكره الزمخشرى من التقديرات إذا قلنا : العزة من الغلبة ، والعزيز الغالب . وأما إذا قلنا : العزيز هو النفيس القليل النظير ، أو المحتاج إليه القليل الوجود ، يقال عز الشىء إذا قل وجوده مع أنه محتاج إليه ، فالنصر كان محتاجاً إليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد .

﴿ أما المسألة المعنوية ﴾ وهى أن الله تعالى لما قال (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) أبرز الفاعل وهو الله ، ثم عطف عليه بقوله (ويتم) وبقوله (ويهديك) ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن فى الكلام ، وهو أن الأفعال الكثيرة إذا صدرت من فاعل يظهر اسمه فى الفعل الأول ، ولا يظهر فيما بعده تقول : جاء زيد وتكلم ، وقام وراح ، ولا تقول : جاء زيد ، وقعد زيد اختصاراً للكلام بالاقتصار على الأول ، وههنا لم يقل وينصرك نصراً ، بل أعاد لفظ الله ، فنقول هذا إرشاد إلى طريق النصر ، ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير إضافة ، فقال تعالى (بنصر الله ينصر) ولم يقل بالنصر ينصر ، وقال (هو الذى أيدك بنصره) ولم يقل بالنصر ، وقال (إذا جاء نصر الله والفتح) وقال (نصر من الله وفتح قريب) ولم يقل نصر وفتح ، وقال (وما النصر إلا من عند الله) وهذا أدل الآيات على مطلوبنا ، وتحقيقه هو إن النصر بالصبر ، والصبر بالله ، قال تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله) وذلك لأن الصبر سكون القلب واطمئنانه ، وذلك بذكر الله ، كما قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فلما قال ههنا وينصرك الله ، أظهر لفظ الله ذكراً للتعليم أن بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب ، وبه يحصل الصبر ، وبه يتحقق النصر ، وههنا مسألة أخرى وهو أن الله تعالى قال (إنا فتحنا) ثم قال (ليغفر لك الله) ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيماً لأمر الفتح ، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) وقال (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة فى حق النبى عليه السلام العصمة ، فذلك لم يختص بنبينا ، بل غيره من الرسل كان معصوماً ، وإتمام

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾

النعمة كذلك ، قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) وقال (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وكذلك الهداية قال الله تعالى (يهدى إليه من يشاء) فعمم ، كذلك النصر قال الله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون) وأما الفتح فلم يكن لأحد غير النبى صلى الله عليه وسلم ، فعظمه بقوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً) وفيه التعظيم من وجهين (أحدهما) إنا (وثانيهما) لك أى لأجلك على وجه المنة .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾ .

لما قال تعالى (وينصرك الله) بين وجه النصر ، وذلك لأن الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم ، أو رجفة تحكم عليهم بالفناء ، أو جند يرسله من السماء ، أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ، ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال (هو الذى أنزل السكينة) أى تحقيقا للنصر ، وفى السكينة وجوه (أحدها) هو السكون (الثانى) الوقار لله ولرسول الله وهو من السكون (الثالث) اليقين والكل من السكون وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ السكينة هنا غير السكينة فى قوله تعالى (إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم) فى قول أكثر المفسرين ويحتمل هى تلك المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلوب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ السكينة المنزلة عليهم هى سبب ذكرهم الله كما قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الله تعالى فى حق الكافرين (وقذف فى قلوبهم) بلفظ القذف المزعج وقال فى حق المؤمنين (أنزل السكينة) بلفظ الإنزال المثبت ، وفيه معنى حكمى وهو أن من علم شيئاً من قبل وتذكره واستدام تذكره فإذا وقع لا يتغير ، ومن كان غافلا عن شىء فيقع دفعة يرجف فؤاده ، ألا ترى أن من أخبر بوقوع صيحة وقيل له لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لا يرجف ، ومن لم يخبر به أو أخبر وغفل عنه يرتجف إذا وقعت ، فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف فى قلبه فارتجف ، والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن ، وقوله تعالى (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فيه وجوه (أحدها) أمرهم بتكاليف شيئاً بعد شىء فآمنوا بكل واحد منها ، مثلا أمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا ، ثم أمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا ، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

(ثانيها) أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين إيماناً بالغيب فازدادوا إيماناً مستفاداً من الشهادة مع إيمانهم المستفاد من الغيب (ثالثها) ازدادوا بالفروع مع إيمانهم بالأصول ، فإنهم آمنوا بأن محمداً رسول الله وأن الله واحد والحشر كائن وآمنوا بأن كل ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب (رابعها) ازدادوا إيماناً استدلالياً مع إيمانهم الفطري ، وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي أن الله تعالى قال في حق الكافر (إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) ولم يقل مع كفرهم لأن كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم إليه الكفر العنادي بل الكفر ليس إلا عنادياً وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم إلى الكفر بالأصول لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وقوله (ولله جنود السموات والأرض) فكان قادراً على إهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل (بل أنزل السكينة على المؤمنين) ليكون إهلاك أعدائهم بأيديهم فيكون لهم الثواب ، وفي جنود السموات والأرض وجوه (أحدها) ملائكة السموات والأرض (ثانيها) من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الحيوانات والجن (وثالثها) الأسباب السماوية والأرضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده ، وقوله تعالى (وكان الله عليماً حكيماً) لما قال (ولله جنود السموات والأرض) وعددهم غير محصور ، أثبت العلم إشارة إلى أنه (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) وأيضاً لما ذكر أمر القلوب بقوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) والإيمان من عمل القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى ، وقوله (حكيماً) بعد قوله (عليماً) إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم فإن الحكيم من يعمل شيئاً متقناً ويعلمه ، فإن من يقع منه صنع عجيب اتفاقاً لا يقال له حكيم . ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم .

قوله تعالى : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ .

يستدعي فعلا سابقاً (ليدخل) فإن من قال ابتداء لتكرمني لا يصح مالم يقل قبله جئتك أو ما يقوم مقامه وفي ذلك الفعل وجوه وضبط الأحوال فيه بأن تقول ذلك الفعل إما أن يكون مذكوراً بصريحه أو لا يكون ، وحينئذ ينبغي أن يكون مفهوماً ، فإما أن يكون مفهوماً من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فان كان مذكوراً فهو يحتمل وجوهاً (أحدها) قوله (ليزدادوا إيماناً) كأنه تعالى أنزل السكينة

ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات ، فإن قيل فقوله (يعذب) عطف على قوله (ليدخل) وازدياد إيمانهم لا يصلح سبباً لتعذيبهم ، نقول بلى وذلك من وجهين (أحدهما) أن التعذيب مذكور لكونه مقصوداً للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم فى الإيمان يدخلكم فى الآخرة جنات ويعذب بأيديكم فى الدنيا الكفار والمنافقين (الثانى) تقديره ويعذب بسبب مالكم من الازدياد ، يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق أى لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن إيماناً فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفراً فيعذبه به (ووجه آخر ثالث) وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيي المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا (الثانى) قوله (وينصرك الله) كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات (الثالث) قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك) على قولنا المراد ذنب المؤمن كأنه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين ، ليدخل المؤمنين جنات ، وأما إن قلنا هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوهاً أيضاً (أحدها) قوله (حكيما) يدل على ذلك كأنه تعالى قال الله حكيم ، فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات (وثانيها) قوله تعالى (ويتم نعمته عليك) فى الدنيا والآخرة ، فيستجيب دعاءك فى الدنيا ويقبل شفاعتك فى العقبى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) (ثالثها) قوله (إنا فتحنا لك) ووجهه هو أنه روى أن المؤمنين قالوا للنبي ﷺ هنيئاً لك إن الله غفر لك فماذا لنا ؟ فنزلت هذه الآية كأنه تعالى قال : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال ، فنقول هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال ، فكأنه تعالى قال إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين ، أو نقول عرف من قرينة الحال أن الله اختار للمؤمنين ليدخلهم جنات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال ههنا وفى بعض المواضع (المؤمنين والمؤمنات) وفى بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما فى قوله تعالى (وبشر المؤمنين) وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) فما الحكمة فيه ؟ نقول فى المواضع التى فيها مايوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحاً ، وفى المواضع التى ليس فيها مايوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين فقوله (وبشر المؤمنين) مع أنه علم من قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة ، وأما ههنا فلما كان قوله تعالى (ليدخل المؤمنين) لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ماكان يتوهم لأن إدخال المؤمنين كان للقتال ، والمرأة لاتقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن ، وكذلك فى المنافقات والمشركات ، والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب فصرح الله تعالى بذكرهن ، وكذلك فى قوله تعالى (إن

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) لأن الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله (ولا تبرجن ، وأقمن ، وآتين ، وأطعن) وقوله (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن) فكان ذكرهن هناك أصلا ، لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأجر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا أن الأصل ذكرهن فى ذلك الموضع .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال الله تعالى (ويكفر عنهم سيئاتهم) بعد ذكر الإدخال مع أن تكفير السيئات قبل الإدخال ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) الواو لا تقتضى الترتيب (الثانى) تكفير السيئات والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة ، فقدم الإدخال فى الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة (الثالث) وهو أن التكفير يكون بإلباس خلع الكرامة وهى فى الجنة ، وكان الإنسان فى الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات ، والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير وتثبت فيه الصفات الملكية وهى أشرف أنواع الخلع ، وقوله تعالى (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما) فيه وجهان (أحدهما) مشهور وهو أن الإدخال والتكفير فى الله فوز عظيم ، يقال عندى هذا الأمر على هذا الوجـــه ، أى فى اعتقادى (وثانيهما) أغرب منه وأقرب منه عقلا ، وهو أن يحمل عند الله كالوصف لذلك كأنه تعالى يقول ذلك عند الله ، أى بشرط أن يكون عند الله تعـالى ويوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى أن دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لمـا كان فوزاً .

قوله تعالى : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ .

واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين فى الذكر فى كثير من المواضع لأمور (أحدها) أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمـانه ، وهو كان يفشى أسراره ، وإلى هذا أشار النبى ﷺ بقوله « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتى الإنسان على أنى عدوك ، وإنمـا

يأتيه على أنى صديقك ، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة ، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه ، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقول (الظانين بالله ظن السوء) هذا الظن يحتمل وجوهاً (أحدها) هو الظن الذى ذكره الله فى هذه السورة بقوله (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول) (ثانيها) ظن المشركين بالله فى الإشراك كما قال تعالى (إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم) إلى أن قال (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً) (ثالثها) ظنهم أن الله لايرى ولا يعلم كما قال (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون) والأول أصح أو نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذى ظنوا أن الله لا يحيي الموتى ، وإن العالم خلقه باطل ، كما قال تعالى (ذلك ظن الذين كفروا) ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذى فى السوء وسنذكره فى قوله (ظن السوء) وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره المحققون من الأدباء ، وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد ، والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أى فاسد ، وسئلت عن رجل صدق أى صالح ، فإذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدى معنى قولنا فاسد ، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد ، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشرى ، وتحقيق هذا أن السوء فى المعانى كالفساد فى الأجساد ، يقال ساء مزاجه ، وساء خلقه ، وساء ظنه ، كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء ، بل كل ماساء فقد فسد وكل مافسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال فى المعانى والآخر فى الأجرام قال الله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر) وقال (ساء ماكانوا يعملون) هذا ما يظهر لى من تحقيق كلامهم .

قوله تعالى : ﴿عليهم دائرة السوء﴾ اى دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لاخروج لهم منه .

ثم قال تعالى (وغضب الله عليهم) زيادة فى الإفادة لأن من كان به بلاء فقد يكون مبتلى به على وجه الإمتحان فيكون مصاباً لكى يصير مثاباً ، وقد يكون مصاباً على وجه التعذيب فقوله (وغضب الله عليهم) إشارة إلى أن الذى حاق بهم على وجه التعذيب وقوله (ولعنهم) زيادة إفادة لأن المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب ، ولا يفضى غضبه إلى إبعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه ، وقد يكون بحيث يفضى إلى الطرد والإبعاد ، فقال (ولعنهم) لكون الغضب شديداً ، ثم لما بين حالهم فى الدنيا بين مآلهم فى العقبى قال (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) وقوله (ساءت) إشارة لمكان التأنيث فى جهنم يقال هذه الدار نعم المكان ، وقوله تعالى (ولله جنود السموات والأرض) قد تقدم تفسيره ، وبقى فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ما الفائدة فى الإعادة ؟ نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أوجنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة ، وقد يكون للعذاب فذكرهم أولى لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى (وكان

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

بالمؤمنين رحيما) وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال هناك (وكان الله عليما حكيما) وهنا (وكان الله عزيزاً حكيما) لأن قوله (ولله جنود السموات والأرض) قد بينا أن المقصود من ذكرهم الإشارة إلى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى (أليس الله بعزيز ذى انتقام) وقال تعالى (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) وقال تعالى (العزيز الجبار)

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين الجنة ، وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار وإعداد جهنم ، نقول فيه ترتيب حسن لأن الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله (ويكفر عنهم سيئاتهم) كما بينا ثم تكون لهم القربى والزلفى بقوله (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود فالجنود فى الرحمة أولا ينزلون ويقربون آخراً . وأما فى الكافر فيغضب عليه أولا فيبعد ويطرد إلى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهى جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم) ولذلك ذكر جنود الرحمة أولا والقربة بقوله عند الله آخراً ، وقال ههنا (غضب الله عليهم ولعنهم) وهو الإبعاد أولا وجنود السموات والأرض آخراً .

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

قال المفسرون (شاهداً) على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) والأولى أن يقال إن الله تعالى قال (إنا أرسلناك شاهداً) وعليه يشهد أنه : لا إله إلا الله كما قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) وهم الأنبياء عليهم السلام ، الذين أتاهم الله علما من عنده . وعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، ولذلك قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) أى فاشهد وقوله (ومبشراً) لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها (ونذيراً) لمن رد شهادته ويخالفه فيها ثم بين فائدة الإرسال على الوجه الذى ذكره فقال (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) وهذا يحتمل وجهين : (أحدهما) أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل فقوله (لتؤمنوا بالله ورسوله) مرتب على قوله (إنا أرسلناك)

لأن كونه مرسلا من الله يقتضى أن يؤمن المكلف بالله والمرسل وبالمرسل وقوله (شاهداً) يقتضى أن يعزر الله ويقوى دينه لأن قوله (شاهداً) على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو فدينه هو الحق وأحق أن يتبع وقوله (مبشراً) يقتضى أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه ، وقوله (نذيراً) يقتضى أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد ، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن (وثانيهما) أن يكون كل واحد مقتضياً للأمور الأربعة فكونه مرسلا يقتضى أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه ، وكذلك كونه (شاهداً) بالوحدانية يقتضى الأمور المذكورة ، وكذلك كونه (مبشراً ونذيراً) لايقال إن اقتران اللام بالفعل يستدعى فعلا مقدماً يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله (لتؤمنوا) يستدعى فعلا وهو قوله (إنا أرسلناك) فكيف تترتب الأمور على كونه (شاهداً ومبشراً) لأنا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظاً ، كما أن القائل إذا قال بعثت إليك عالماً لتكرمه فاللفظ ينبىء عن كون البعث سبب الإكرام ، وفى المعنى كونه عالماً هو السبب للاكرام ، ولهذا لو قال بعثت إليك جاهلا لتكرمه كان حسناً ، وإذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول : الإرسال الذى هو إرسال حال كونه شاهداً كما تقول بعث العالم سبب جعله سبباً لا مجرد البعث ، ولا مجرد العالم ، فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال فى الأحزاب (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) وههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة فى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك ، ولم يفصل ههنا (ثانيهما) أن نقول الكلام مذكور ههنا لأن قوله (شاهداً) لما لم يقتض أن يكون داعياً لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يدعو الناس قال هناك وداعياً لذلك ، وههنا لما لم يكن كونه (شاهداً) منبئاً عن كونه داعياً قال (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) دليل على كونه سراجاً لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قد ذكرنا مراراً أن اختيار البكرة والأصيل يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويحتمل أن يكون أمراً بخلاف ما كان المشركون يعملونه فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام فى الكعبة بكرة وعشية فأمروا بالتسبيح فى أوقات كانوا يذكرون فيها الفشحاء والمنكر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الكنايات المذكور فى قوله تعالى (وتعزروه وتوقروه وتسبحوه) راجعة إلى الله تعالى أو إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ والأصح هو الأول .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما ﴾ .

لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الله ، وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) يحتمل وجوهاً ، وذلك أن اليد فى الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ، وإما أن تكون بمعنيين ، فإن قلنا إنها بمعنى واحد ، ففيه وجهان (أحدهما) (يد الله) بمعنى نعمة الله عليهم فوق إحسانهم إلى الله كما قال تعالى (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) (وثانيهما) (يد الله فوق أيديهم) أى نصرته إيام أقوى وأعلى من نصرتهم إيا ، يقال : اليد لفلان ، أى الغلبة والنصرة والقهر . وأما إن قلنا إنها بمعنيين ، فنقول فى حق الله تعالى بمعنى الحفظ ، وفى حق المبايعين بمعنى الجارحة ، واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين إذا مد كل واحد منهما يده إلى صاحبه فى البيع والشراء ، وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير إتمام البيع ، فيضع يده على يديهما ، ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ، ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر ، فوضع اليد فوق الأيدى صار سبباً للحفظ على البيعة ، فقال تعالى (يد الله فوق أيديهم) يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدى المتبايعين ، وقوله تعالى (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أما على قولنا المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة ، فلأن من نكث فوت على نفسه الإحسان الجزيل فى مقابلة العمل القليل ، فقد خسر ونكثه على نفسه ، وأما على قولنا المراد الحفظ ، فهو عائد إلى قوله (إنما يبايعون الله) يعنى من يبايعك أيها النبى إذا نكث لا يكون نكثه عائداً إليك ، لأن البيعة مع الله ولا إلى الله ، لأنه لا يتضرر بشىء ، فضرره لا يعود إلا إليه . قال (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) وقد ذكرنا أن العظم فى الأجرام ، لا يقال إلا إذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ ، فيقال فى الجبل الذى هو مرتفع ، ولا اتساع لعرضه جبل عال أو مرتفع أو شاهق ، فإذا انضم إليه الاتساع فى الجوانب يقال عظيم ، والأجر كذلك ، لأن مآكل الجنة تكون من أرفع الأجناس ، وتكون فى غاية الكثرة ، وتكون ممتدة إلى الأبد لانقطاع لها ، لحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم والعظيم فى حق الله تعالى إشارة إلى كماله فى صفاته ، كما أنه فى الجسم إشارة إلى كماله فى جهاته .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ .

لما بين حال المنافقين ذكر المتخلفين ، فإن قوماً من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة ، فكيف يكون حالهم إذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو فاعتذروا ، وقولهم (شغلتنا أموالنا وأهلونا) فيه أمران يفيدان وضوح العذر (أحدهما) [قولهم] (أموالنا) ولم يقولوا شغلتنا الأموال ، وذلك لأن جمع المال لا يصلح عذراً [لأنه] لا نهاية له ، وأما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذراً ، فقالوا (شغلتنا أموالنا) أى ماصار مالا لنا لامطلق الأموال (وثانيهما) قوله تعالى (وأهلونا) وذلك لو أن قائلا قال لهم : المال لاينبغى أن يبلغ إلى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول ﷺ لكان لهم أن يقولوا : فالأهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الأمور ، ثم إنهم مع العذر تضرعوا وقالوا (فاستغفر لنا) يعنى فنحن مع إقامة العذر معترفون بالإساءة ، فاستغفر لنا واعف عنا فى أمر الخروج ، فكذبهم الله تعالى فقال (يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم) وهذا يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون التكذيب راجعاً إلى قولهم (فاستغفر لنا) وتحقيقه هو أنهم أظهروا أنهم يعتقدون أنهم مسيئون بالتخلف حتى استغفروا ، ولم يكن فى اعتقادهم ذلك ، بل كانوا يعتقدون أنهم بالتخلف محسنون (ثانيهما) قالوا (شغلتنا) إشارة إلى أن امتناعنا لهذا لا لغير ، ولم يكن ذلك فى اعتقادهم ، بل كانوا يعتقدون امتناعهم لاعتقاد أن النبى ﷺ والمؤمنون يقهرون ويغلبون ، كما قال بعده (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) وقوله (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) معناه أنكم تحترزون عن الضرر . وتتركون أمر الله ورسوله ، وتقعدون طلباً للسلامة ، ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئاً ، أو معناه أنكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو ، فهب أنكم حفظتم أنفسكم عن ذلك ، فمن يدفع عنكم عذاب الله فى الآخرة ، مع أن ذلك أولى بالاحتراز ، وقد ذكرنا فى سورة يس فى قوله تعالى (إن يردن الرحمن بضر) أنه فى

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر ، فقال (إن أردانى الله بضر) وقال (وإن يمسسك الله بضر) وفى صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر ، فقال ههنا (إن أراد بكم ضراً) وقال (من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً) وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك ، ولا نعيده ليكون هذا باعثاً على مطالعة تفسير سورة يس ، فإنها درج الدرر اليتيمة ، (بل كان الله بما تعملون خبيراً) أى بما تعملون من إظهار الحرب وإضمار غيره .

قوله تعالى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ .

يعنى لم يكن تخلفكم لما ذكرتم (بل ظننتم أن لن ينقلب) وأن مخففة من الثقيلة ، أى ظننتم أنهم لاينقلبون ولا يرجعون ، وقوله (وزين ذلك فى قلوبكم) يعنى ظننتم أولا ، فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به ، وذلك لأن الشبهة قد يزينها الشيطان ، ويضم إليها مخايلة يقطع بها الغافل ، وإن كان لايشك فيها العاقل ، وقوله تعالى (وظننتم ظن السوء) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون هذا العطف عطفاً يفيد المغايرة ، فقوله (وظننتم ظن السوء) غير الذى فى قوله (بل ظننتم) وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثانى معناه : وظننتم أن الله يخلف وعده ، أوظننتم أن الرسول كاذب فى قوله (وثانيهما) أن يكون قوله (وظننتم ظن السوء) هو ماتقدم من ظن أن لاينقلبوا ، ويكون على حد قول القائل : علمت هذه المسألة وعلمت كذا ، أى هذه المسألة لا غيرها ، وذلك كأنه قال : بل ظننتم ظن أن لن ينقلب . وظنكم ذلك فاسد ، وقد بينا التحقيق فى ظن السوء ، وقوله تعالى (وكنتم قوماً بوراً) يحتمل وجهين (أحدهما) وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين (وثانيهما) أنتم فى الأصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد .

قوله تعالى : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ .

على قولنا (وظننتم ظن السوء) ظن آخر غير مافى قوله (بل ظننتم) ظاهر ، لأنا بينا أن ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أوظنهم بأن الرسول كاذب فقال (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) ويظن به خلفاً وبرسوله كذباً فإنا أعتدنا له سعيراً ، وفى قوله (للكافرين) بدلا عن أن يقول فإنا أعتدنا له

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ

فائدة وهي التعميم كأنه تعالى قال : ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين ، وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً .

قوله تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما ﴾ .

بعد ماذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين ، أشار إلى أنه يغفر للأولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته ، وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل ، وقوله تعالى (ولله ملك السموات والأرض) يفيد عظمة الأمرين جميعاً لأن من عظم ملكه يكون أجره وهبته فى غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك فى غاية النكال والألم .

قوله تعالى : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم ﴾ .

أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عند مايكون السير إلى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم (ذرونا نتبعكم) فاذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إياهم إلى أهل مكة ، فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم الغنيمة ، والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلا من كان معه فى المدينة ، وفى قوله (سيقول المخلفون) وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان .

قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ .

يحتمل وجوها (أحدها) هو ما قال الله إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وعاهد بها لاغير وهو الأشهر عند المفسرين ، والأظهر نظراً إلى قوله تعالى (كذلكم قال الله من قبل) ، (ثانيها) يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله (وغضب الله عليهم) وذلك لأنهم لو اتبعوكم لكانوا فى حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضى الله عنهم كما قال تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله (ثالثها) هو أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وأنه يريد أن يعاقبهم ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم (فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً) فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه ، لايقال فالآية

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

التى ذكرتم واردة فى غزوة تبوك لافى هذه الواقعة ، لأنا نقول قد وجد ههنا بقوله (لن تتبعونا) على صيغة النفى بدلا عن قوله : لا تتبعونا ، على صيغة النهى معنى لطيف وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفى لوثوقه وقطعه بصدقه لجزم وقال (لن تتبعونا) يعنى لو أذنتكم ولو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ .

رداً على قوله تعالى (كذلكم قال الله من قبل) كأنهم قالوا : ما قال الله كذلك من قبل ، بل تحسدوننا ، وبل للاضراب والمضروب عنه محذوف فى الموضعين ، أما ههنا فهو بتقدير ماقال الله وكذلك ، فإن قيل بما ذاكان الحسد فى اعتقادهم ؟ نقول كأنهم قالوا نحن كنا مصيبين فى عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا ، فإن خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا .

ثم قال تعالى رداً عليهم كما ردوا ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾ أى لم يفقهوا من قولك لا تخرجوا إلا ظاهر النهى ولم يفهموا من حكمه إلا قليلا لحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد .

قوله تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

لما قال النبى صلى الله عليه وسلم (قل لن تتبعونا) وقال (فقل لن تخرجوا معى أبداً) فكان المخلفون جمعاً كثيراً ، من قبائل متشعبة ، دعت الحاجة إلى بيان قبول توبتهم فإنهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق ، بل منهم من حسن حاله وصلح باله لجعل لقبول توبتهم علامة ، وهو أنهم يدعون إلى قتال قوم أولى بأس شديد ويطيعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبى صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة ، كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا أنه تعالى بين أنهم يدعون فإن كانوا يطيعون يؤتون الأجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه ، والفرق بين حال ثعلبة

وبين حال هؤلاء من وجهين (أحدهما) أن ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير فى علم الله ، فلم يبين لتوبته علامة ، والأعراب تغيرت ، فان بعد النبى صلى الله عليه وسلم لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة (وثانيهما) أن الحاجة إلى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمس ، لأنه لولا البيان لكان يفضى الأمر إلى قيام الفتنة بين فرق المسلمين ، وفى قوله (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) وجوه أشهرها وأظهرها أنهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر (وثانيها) هم فارس والروم غزاهم عمر (ثالثها) هوازن وثقيف غزاهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقوى الوجوه هو أن الدعاء كان من النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان الأظهر غيره ، أما الدليل على قوة هذاالوجه هوأن أهل السنة اتفقوا على أن أمر العرب فى زمان النبى ﷺ ظهر ولم يبق إلا كافر مجاهر ، أو مؤمن تقى طاهر ، وامتنع النبى ﷺ من الصلاة على موتى المنافقين ، وترك المؤمنون مخالطتهم حتى أن عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة ، وماذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقاً ، فان كان ظهر حالهم بغير هذا ، فلا معنى لجعل هذا علامة وإن ظهر بهذا الظهور كان فى زمان النبى ﷺ ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام لوامتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى (واتبعوه) وقوله (فاتبعونى) فإن قيل هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن النبى ﷺ قال (لن تتبعونا) وقال (لن تخرجوا معى أبدا) فكيف كانوا يتبعونه مع النفى ؟ (الثانى) قوله تعالى (أولى بأس شديد) ولم يبق بعد ذلك للنبى عليه الصلاة والسلام حرب قوم أولى بأس شديد فإن الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق الكفار بعده شدة وبأس ، واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور ، نقول أما الجواب عن الأول فمن وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك مقيداً ، تقديره : لن تخرجوا معى أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ، ويجب هذا التقييد لأنا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن إسلامه بل الأكثر ذلك ، وما كان يجوز للنبى ﷺ أن يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً) ومع القول بإسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم ما كان من الجهاد فى سبيل الله معوجوبه عليهم وكان ذلك مقيداً ، وقد تبين حسن حالهم ، فإن النبى ﷺ دعاهم إلى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون ، وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الإيمان (الثانى) المراد من قوله (لن تتبعونا) فى هذا القتال فحسب وقوله (لن تخرجوا معى) كان فى غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا فى غزوة تبوك ، وأما اتفاق الجمهور فنقول لا مخالفة بيننا وبينهم لأنا نقول النبى ﷺ دعاهم أولا ، وأبو بكر رضى الله عنه أيضاً دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، إنما نحن نثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم فإن قالوا أبو بكر رضى الله عنه دعاهم لم يكن بين القولين تناف ، وإن قالوا لم يدعهم النبى صلى الله عليه وسلم فالنفى والجزم به فى غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع ، وكيف لا والنبى عليه الصلاة والسلام قال من كلام

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ

الله (إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) وقال (واتبعونى هذا صراط مستقيم) ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد ﷺ لأن بقاء جمهم على النفاق والكفر بعد ما اتسعت دائرة الإسلام واجتمعت العرب على الإيمان بعيد ، ويوم قوله صلى الله عليه وسلم (لن تتبعونا) كان أكثر العرب على الكفر والنفاق ، لانه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة .

وأما قوله لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم حرب مع أولى بأس شديد ، قلنا لا نسلم ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبيه دعاهم إلى الحرب لأنه خرج محرماً ومعه الهدى ليعلم قريش أنه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال ستدعون إلى الحرب ولا شك أن من يكون خصمه مسلحاً محارباً أكثر بأساً ممن يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة أنهم لا يوقرون حاجاً ولا معتمراً فقوله (أولى بأس شديد) يعنى أولى سلاح من آلة الحديد فيه بأس شديد ، ومن قال بأن الداعى أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة ، وحينئذ أتقاتلونهم (أو يسلمون) إشارة إلى أن أحدهما يقع ، وقرىء (أو يسلموا) بالنصب بإضمار أن على معنى تقاتلونهم إلى أن يسلموا ، والتحقيق فيه هو أن أو لاتجىء إلا بين المتغايرين وتنبىء عن الحصر فيقال العدد زوج أو فرد ، ولهذا لا يصح أن يقال هو زيد أو عمرو ، ولهذا يقال العدد زوج أو خمسة أو غيرهما ، إذا علم هذا فقول القائل لألزمنك أو تقضينى حتى يفهم منه أن الزمان انحصر فى قسمين : قسم يكون فيه الملازمة ، وقسم يكون فيه قضاء الحق ، فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لايوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق ، فيكون فى قوله لألزمنك أو تقضينى ، كما حكى فى قول القائل ، لألزمنك إلى أن تقضينى ، لامتداد زمان الملازمة إلى القضاء ، وهذا ما يضعف قول القائل الداعى هو عمر والقوم فارس والروم لأن الفريقين يقران بالجزية ، فالقتال معهم لا يمتد إلى الإسلام لجواز أن يؤدوا الجزية ، وقوله تعالى (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل) فيه فائدة لأن التولى إذا كان بعذركما قال تعالى (ليس على الأعمى حرج) لايكون للمتولى عذاب أليم ، فقال (وإن تتولوا كما توليتم) يعنى إن كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم (شغلتنا أموالنا) فالله يعذبكم عذابا أليماً .

ثم إن الله تعالى قال ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر وبين ذلك ببيان ثلاثة أصناف (الأول) (الأعمى) فإنه لايمكنه الإقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب ، والأعرج كذلك والمريض كذلك ، وفى معنى الأعرج الأقطع

والمقعد ، بل ذلك أولى بأن يعذر ، ومن به عرج لايمنعه من الكر والفر لايعذر ، وكذلك المرض القليل الذى لايمنع من الكر والفر كالطحال والسعال إذ به يضعف وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذراً وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أن هذه أعذار تكون فى نفس المجاهد ولنا أعذار خارجة كالفقر الذى لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج إليه والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض ، والأعذار تعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير فى بيان مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الأعذار التى فى السفر ، لأن غيرها يمكن الإزالة بخلاف العرج والعمى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اقتصر منها على الأصناف الثلاثة ، لأن العذر إما أن يكون بإخلال فى عضو أو باختلال فى القوة ، والذى بسبب إخلال العضو ، فإما أن يكون بسبب اختلال فى العضو الذى به الوصول إلى العدو والانتقال فى مواضع القتال ، أو فى العضو الذى تتم به فائدة الحصول فى المعركة والوصول ، والأول هو الرجل ، والثانى هو العين ، لأن بالرجل يحصل الانتقال ، وبالعين يحصل الانتفاع فى الطلب والهرب . وأما الأذن والأنف واللسان وغيرها من الأعضاء ، فلا مدخل لها فى شيء من الأمرين ، بقيت اليد ، فإن المقطوع اليدين لا يقدر على شيء ، وهو عذر واضح ولم يذكره ، نقول : لأن فائدة الرجل وهى الانتقال تبطل بالخلل فى إحداهما ، وفائدة اليد وهى الضراب والبطش لاتبطل إلا ببطلان اليدين جميعاً ، ومقطوع اليدين لا يوجد إلا نادراً ، ولعل فى جماعة النبى ﷺ لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره ، أو لأن المقطوع ينتفع به فى الجهاد ، فإنه ينظر ولولاه لا ستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل ، وهو غير معذور فى التخلف ، لأن المجاهدين ينتفعون به بخلاف الأعمى ، فإن قيل كما أن مقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الأعور لا تبطل منفعة رؤيته ، وقد ذكر الأعمى ، وما ذكر الأشل وأقطع اليدين ، قلنا لما بينا أن مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة بإحدى اليدين لا تعمهما والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لأن منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما ، فإن الأعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قدم الآفة فى الآلة على الآفة فى القوة ، لأن الآفة فى القوة تزول وتطرأ ، والآفة فى الآلة إذ طرأت لاتزول ، فإن الأعمى لا يعود بصيراً فالعذر فى محل الآلة أتم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال ، والأعرج إن حضر راكباً أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمى وغيره

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً ، لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ .

اعلم أن طاعة كل واحد منهما طاعة الآخر لجمع بينهما بياناً لطاعة الله ، فإن الله تعالى لو قال : ومن يطع الله ، كان لبعض الناس أن يقول : نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه ، فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه ؟ فقال طاعته فى طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله .

ثم قال (ومن يتول) أى بقلبه ، ثم لما بين حال المخلفين بعد قوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) عاد إلى بيان حالهم وقال (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم) من الصدق كما علم مافى قلوب المنافقين من المرض (فأنزل السكينة عليهم) حتى بايعوا على الموت ، وفيه معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات) لجعل طاعة الله والرسول علامة لإدخال الله الجنة فى تلك الآية ، وفى هذه الآية بين أن طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان ، أما طاعة الله فالإشارة إليها بقوله (لقد رضى الله عن المؤمنين) وأما طاعة الرسول فبقوله (إذ يبايعونك تحت الشجرة) بقى الموعود به وهو إدخال الجنة أشار إليه بقوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين) لأن الرضا يكون معه إدخال الجنة كما قال تعالى (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم)

ثم قال تعالى (فعلم ما فى قلوبهم) والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لأنه علم ما فى قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب فى العلم ؟ نقول قوله (فعلم مافى قلوبهم) متعلق بقوله (إذ يبايعونك تحت الشجرة) كما يقول القائل فرحت أمس إذ كلمت زيداً فقام إلى ، أو إذ دخلت عليه فأكرمنى ، فيكون الفرح بعد الإكرام ترتيباً كذلك ، ههنا قال تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم) من الصدق إشارة إلى أن الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب ، بل عند المبايعة التى كان معها علم الله بصدقهم ، والفاء فى قوله (فأنزل السكينة عليهم)

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

للتعقيب الذى ذكرته فإنه تعالى رضى عنهم فأنزل السكينة عليهم ، وفى (علم) بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذى فى قلوبهم وهذا توفيق لا يتأتى إلا لمن هداه الله تعالى إلى معانى كتابه الكريم وقوله تعالى (وأثابهم فتحاً قريباً) هو فتح خيبر (ومغانم كثيرة يأخذونها) مغانمها وقيل مغانم هجر (وكان الله عزيزاً) كامل القدرة غنياً عن إعانتكم إياه (حكيما) حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه أو لأن فى ذلك إعزاز قوم وإذلال آخرين ، فإنه يذل من يشاء بعزته ويعز من يشاء بحكمته .

قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما ﴾ .

إشارة إلى أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب بل الجزاء قدامهم ، وإنما هى لعاجلة عجل بها ، وفى المغانم الموعود بها أقوال ، أصحها أنه وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين وكل ما غنموه كان منها والله كان عالماً بها ، وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه : يكون لك منى على ما فعلته الجزاء إن شاء الله ، ولا يريد شيئاً بعينه ، ثم كل ما يأتى به ويؤتيه يكون داخلا تحت ذلك الوعد ، غير أن الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل إليه وقت الوعد ، والله عالم بها ، وقوله تعالى (وكف أيدى الناس عنكم) لإتمام المنة ، كأنه قال رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم هذا جزاء تعبنا ، وقوله تعالى (ولتكون آية للمؤمنين) عطف على مفهوم لأنه لما قال الله تعالى (فعجل لكم هذه) واللام ينبىء عن النفع كما أن على ينبىء عن الضر القائل لا على ولا ليا بمعنى لا ما أتضرر به ولا ما أنتفع به ولا أضر به ولا أنفع ، فكذلك قوله (فعجل لكم هذه) لتنفعكم (ولتكون آية للمؤمنين) وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون فقوله (ولتكون آية للمؤمنين) يعنى لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله يصل إليهم كما وصل إليكم ، أو نقول : معناه لتنفعكم فى الظاهر وتنفعكم فى الباطن حيث يزداد يقينكم إذا رأيتم صدق الرسول فى إخباره عن الغيوب فتجمل أخباركم ويكمل اعتقادكم ، وقوله (ويهديكم صراطاً مستقيما) وهو التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز به .

قوله تعالى : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً ﴾ .

وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

قيل غنيمة هوازن ، وقيل غنائم فارس والروم وذكر الزمخشري في أخرى ثلاثة أوجه أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره (قد أحاط) و (لم تقدروا عليها) صفة لأخرى كأنه يقول وغنيمة أخرى غير مقدورة (قد أحاط الله بها) (ثانيها) أن تكون مرفوعة ، وخبرها (قد أحاط الله بها) وحسن جعلها مبتدأ مع كونه نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا (وثالثها) الجر بإضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب وفيه وجهان (أحدهما) كأنه تعالى قال (فعجل لكم هذه) وأخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لأن أخرى لم يعجل بها (وثانيهما) على مغانم كثيرة تأخذونها ، وأخرى أي وعدكم الله أخرى ، وحينئذ كأنه قال (وعدكم الله مغانم) تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها ، وإنما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين وعلى هذا تبين لقول الفراء حسن ، وذلك لأنه فسر قوله تعالى (قد أحاط الله بها) أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك إلى أن يأخذها المسلمون كاحاطة الحراس بالخزائن .

قوله تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ﴾ .

وهو يصلح جواباً لمن يقول : كف الأيدي عنهم كان أمراً اتفاقياً ، ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها ، فقال ليس كذلك ، بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون ، والغلبة واقعة للمسلمين ، فليس أمرهم أمراً اتفاقياً ، بل هو إلهي محكوم به محتوم .

قوله تعالى : ﴿ ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ .

قد ذكرنا مراراً أن دفع الضرر عن الشخص إما أن يكون بولي ينفع باللطف ، أو بنصير يدفع بالعنف ، وليس للذين كفروا شيء من ذلك ، وفي قوله تعالى (ثم) لطيفة وهي أن من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما ينجيه ، فقال وليس إذا ولوا الأدبار يتخلصون ، بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم .

قوله تعالى : ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ﴾ .

جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد : وهو أن الطوالع لها تأثيرات ، والاتصالات لها تغيرات ، فقال ليس كذلك [بل] سنة الله نصرة رسوله ، وإهلاك عدوه .

قوله تعالى : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

بشارة ودفع وهن يقع بسبب وهم ، وهو أنه إذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه ، بل الله فاعل مختار ، ولو أراد أن يهلك العباد لأهلكهم ، بخلاف قول المنجم بأن الغلب لمن

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

له طالع وشواهد تقتضي غلبته قطعاً ، فقال الله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) يعني أن الله فاعل مختار يفعل مايشاء ويقدر على إهلاك أصدقائه ، ولكن لايبدل سنته ولا يغير عادته .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعدأن أظفركم عليهم ﴾ .

تبييناً لما تقدم من قوله (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) أي هو بتقدير الله ، لأنه كف أيديهم عنكم بالفرار ، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم ، وقوله تعالى (ببطن مكة) إشارة إلى أمر كان هناك يقتضى عدم الكف ، ومع ذاك وجد كف الأيدى ، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة ، فإن ذلك يقتضى أن يصبر المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثأرهم ، وذلك مما يوجب اجتهاد البليد فى الذب عن الحريم ، ويقتضى أن يبالغ المسلمون فى الاجتهاد فى الجهاد لكونهم لو قصروا لكسروا وأسروا لبعد مأمنهم ، فقوله (ببطن مكة) إشارة إلى بعد الكف ، ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى ، وقوله تعالى (من بعد أن أظفركم عليهم) صالح لأمرين (أحدهما) أن يكون منة على المؤمنين بأن الظفر كان لكم ، مع أن الظاهر كان يستدعى كون الظفر لهم لكون البلاد لهم ، ولكثرة عددهم (الثانى) أن يكون ذكر أمرين مانعين من الأمرين الأولين ، مع أن الله حققهما مع المنافقين ، أما كف أيدى الكفار ، فكان بعيداً لكونهم فى بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم ، وإليه أشار بقوله (ببطن مكة) وأما كف أيدى المسلمين ، فلأنه كان بعد أن ظفروا بهم ، ومتى ظفر الإنسان بعدوه الذى لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه ، مع أن الله كف اليدين .

قوله تعالى : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

يعنى كان الله يرى فيه من المصلحة ، وإن كنتم لاترون ذلك ، وبينه بقوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً) إلى أن قال (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) يعنى كان الكف محافظة على مافى مكة من المسلمين ليخرجوا منها ، ويدخلوها على وجه لايكون فيه ايذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات ، واختلف المفسرون فى ذلك الكف منهم من قال المراد ماكان عام الفتح ، ومنهم من قال ماكان عام الحديبية ، فإن المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم ، وقيل إن الحرب كان بالحجارة .

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ

قوله تعالى : ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله﴾.

إشارة إلى أن الكف لم يكن لأمر فيهم لأنهم كفروا وصدوا وأحصروا ، وكل ذلك يقتضى قتالهم ، فلا يقع لأحد أن الفريقين اتفقوا ، ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا ، ولم يبق بينهما نزاع ، بل الاختلاف باق والنزاع مستمر ، لأنهم (هم الذين كفروا وصدوكم) ومنعوا فازدادوا كفراً وعداوة ، وإنما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، وقوله (والهدى) منصوب على العطف على كم فى (صدوكم) ويجوز الجر عطفاً على المسجد ، أى وعن الهدى . و(معكوفاً) حال و(أن يبلغ) تقديره عن أن يبلغ ، ويحتمل أن يقال (أن يبلغ محله) رفع ، تقديره معكوفاً بلوغه محله ، كما يقال : رأيت زيداً شديداً بأسه ، ومعكوفاً ، أى ممنوعاً ، ولا يحتاج إلى تقدير عن على هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾.

وصف الرجال والنساء ، يعنى لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين ، وقوله تعالى (أن تطئوهم) بدل اشتمال ، كأنه قال : رجال غير معلومى الوطء فتصيبكم منهم معرة عيب أو إثم ، وذلك لأنكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهى دليل الإثم ، أو يعيبكم الكفار بأنهم فعلوا بإخوانهم مافعلوا بأعدائهم ، وقوله تعالى (بغير علم) قال الزمخشرى : هو متعلق بقوله (أن تطئوهم) يعنى تطئوهم بغير علم ، وجاز أن يكون بدلا عن الضمير المنصوب فى قوله (لم تعلموهم) ولقائل أن يقول : يكون هذا تكراراً ، لأن على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير : لم تعلموا أن تطئوهم بغير علم ، فيلزم تكرار بغير علم لحصوله بقوله (لم تعلموهم) فالأولى أن يقال (بغير علم) هو فى موضعه تقديره : لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، من يعركم ويعيب عليكم ، يعنى إن وطأتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار (بغير علم) أى بجهل لا يعلمون أنكم معذورون فيه ، أو نقول تقديره : لم تعلموا أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، أى فتقتلوهم بغير علم ، أو تؤذوهم بغير علم ، فيكون الوطء سبب القتل ، والوطء غير معلوم لكم ، والقتل الذى هو بسبب المعرة وهو الوطء الذى يحصل بغير علم . أو نقول : المعرة قسمان (أحدهما) مايحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل (والثانى) مايحصل من القتل خطأ ، وهو

لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

غير عدم العلم ، فقال : تصيبكم منهم معرة غير معلومة ، لا التى تكون عن العلم (وجواب) لولا محذوف تقديره : لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم ، هذا ما قاله الزمخشرى وهو حسن ، ويحتمل أن يقال (جوابه) مايدل عليه قوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام) يعنى قد استحقوا أن لايهملوا ، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه ، كما يقول القائل : هو سارق ولولا فلان لقطعت يده ، وذلك لأن لولا لا تستعمل إلا لامتناع الشىء لوجود غيره ، وامتناع الشىء لايكون إلا إذا وجد المقتضى له فمنعه الغير فذكر الله تعالى أولا المقتضى التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع ، وذكر ماامتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما ﴾ فيه أبحاث :

﴿الأول﴾ فى الفعل الذى يستدعى اللام الذى بسببه يكون الإدخال وفيه وجوه (أحدها) أن يقال هو قوله (كف أيديكم عنهم) ليدخل ، لايقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال : كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشىء آخر ؟ نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن نقول كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا كما يقال أطعمته ليشبع ليغفر الله لى أى الإطعام للشابع كان ليغفر (الثانى) هو أنا بينا أن لولا جوابه مادل عليه قوله (هم الذين كفروا) فيكون كأنه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجل فى إهلاكهم ، ولولا رجال لعجل بهم ولكن كف أيديكم ليدخل (ثانيها) أن يقال فعل مافعل ليدخل لأن هناك أفعالا من الألطاف والهداية وغيرهما ، وقوله (ليدخل الله فى رحمته من يشاء) ليؤمن منهم من علم الله تعالى أنه يؤمن فى تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم فى رحمته وقوله تعالى (لو تزيلوا) أى لو تميزوا ، والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، فإن قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف أو لعجل ولو كان لو تزيلوا راجعاً إلى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا ؟ نقول وقد قال به الزمخشرى فقال (لو تزيلوا) يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا ، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء ، كأنه قال ليدخل من يشاء فى رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون ، وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم ، إما بسبب عدم التزييل ، أو بسبب وجود الرجال وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لايندفع

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

عن الكافر ، نقول المراد عذاباً عاجلا بايديكم يبتدىء بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليما .

﴿ البحث الثانى ﴾ ما الحكمة فى ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل فى ذكر المذكر عند الاجتماع ؟ قلنا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما تقدم يعنى أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله (تطئوهم فتصيبكم) معناه تهلكوهم والمراد لاتقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال (والنساء المؤمنات) أيضاً لأن تخريب بيوتهن ويتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة (وثانيهما) أن فى محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب ، يقال لمن يعذب شخصاً لاتعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه ، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين ، فكذلك ههنا قال (لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) لترقيق قلوب المؤمنات ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر .

قوله تعالى : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

إذ يحتمل أن يكون ظرفاً فلابد من فعل يقع فيه ويكون عاملا له ، ويحتمل أن يكون مفعولا به ، فإن قلنا إنه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور ، ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور ، فإن قلنا هو مذكور ففيه وجهان (أحدهما) هو قوله تعالى (وصدوكم) أى وصدوكم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (وثانيها) قوله تعالى (لعذبنا الذين كفروا منهم) أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (والثانى) أقرب لقربه لفظاً وشدة مناسبته معنى لأنهم إذا جعلوا فى قلوبهم الحمية لايرجعون إلى الاستسلام والانقياد ، والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لايتركون الاجتهاد فى الجهاد والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذاباً أليماً أو غير المؤمنين ، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان (أحدهما) حفظ الله المؤمنين عن أن يطئوهم وهم الذين كفروا الذين جعل فى قلوبهم الحمية (وثانيها) أحسن الله إليكم إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، وعلى هذا فقوله تعالى (فأنزل الله سكينته) تفسير لذلك الإحسان ، وأما إن قلنا إنه مفعول به ، فالعامل مقدر تقديره اذكر ، أى اذكر ذلك الوقت ، كما تقول أتذكر إذ قام زيد ، أى أتذكر وقت قيامه

كما تقول أتذكر زيداً ، وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف إليه عاملا فيه ، وفيه لطائف معنوية ولفظية : (الأولى) هو أن الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، فأشار إلى ثلاثة أشياء (أحدها) جعل ما للكافرين بجعلهم فقال (إذ جعل الذين كفروا) وجعل ما للمؤمنين بجعل الله ، فقال (فأنزل الله) وبين الفاعلين ما لا يخفى (ثانيها) جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره (ثالثها) أضاف الحمية إلى الجاهلية وأضاف السكينة إلى نفسه حيث قال : حمية الجاهلية ، وقال : سكينته ، وبين الإضافتين مالا يذكر (الثانية) زاد المؤمنين خيراً بعد حصول مقابلة شيء بشيء فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والإضافة إلى الجاهلية بالإضافة إلى الله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) وسنذكر معناه ، وأما اللفظية فثلاث لطائف (الأولى) قال في حق الكافر (جعل) وقال في حق المؤمن (أنزل) ولم يقل خلق ولا جعل سكينته إشارة إلى أن الحمية كانت مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها (الثانية) قال الحمية ثم أضافها بقوله (حمية الجاهلية) لأن الحمية في نفسها صفة مذمومة وبالإضافة إلى الجاهلية تزداد قبحاً ، وللحمية في القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف إلى الجاهلية . وأما السكينة في نفسها وإن كانت حسنة لكن الإضافة إلى الله فيها من الحسن مالا يبقى معه لحسن اعتبار ، فقال سكينته اكتفاء بحسن الإضافة (الثالثة) قوله (فأنزل) بالفاء لا بالواو إشارة إلى أن ذلك كالمقابلة تقول أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت أكرمني وأكرمته لا ينبىء عن ذلك ، وحينئذ يكون فيه لطيفة : وهي أن عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر إما أن يكون ضعيفاً أو قوياً ، فإن كان ضعيفاً ينهزم وينقهر ، وإن كان قوياً فيورث غضبه فيه غضباً ، وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال في نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا ، وقوله تعالى (فأنزل الله) بالفاء يدل تعلق الإنزال بالفاء على ترتيبه على شيء ، نقول فيه وجهان : (أحدهما) ما ذكرنا من أن إذ ظرف كأنه قال أحسن الله (إذ جعل الذين كفروا) وقوله (فأنزل) تفسير لذلك الإحسان كما يقال أكرمني فأعطاني لتفسير الإكرام (وثانيهما) أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة ، تقول أكرمني فأثنيت عليه ، ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة ، كما تقول جاءني زيد وخرج عمرو ، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين : إما إقدام ، وإما انهزام . لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضاً وهذا يثير الفتن ، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا ، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى ، قوله تعالى (على رسوله وعلى المؤمنين) فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح ، وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة بالنحر في المنحر ، وأبوا أن

لايكتبوا محمداً رسول الله وبسم الله ، فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون ، وقوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) فيه وجوه أظهرها أنه قول لاإله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك ، وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه ، وقيل هى الوفاء بالعهد إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه مايترجح بالدليل فنقول (وألزمهم) يحتمل أن يكون عائداً إلى النبي ﷺ والمؤمنين جميعاً يعنى ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى ، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المؤمنين لحسب ، فإن قلنا إنه عائد إليهما جميعاً نقول هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي ﷺ (ياأيها النبي اتق ولا تطع الكافرين) وقال للمؤمنين (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ماسوى الله ، كما قال فى حق النبي صلى الله عليه وسلم (اتق الله ولا تطع الكافرين) وقال تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ثم بين له حال من صدقه بقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحداً إلا الله) وأما فى حق المؤمنين فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) وقال (فلا تخشوهم واخشونى) وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ألا ترى إلى قوله (واتقوا الله) وهو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) وفى معنى قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) على هـــذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال (اتقوا) يكون الأمر وارداً ثم إن من النـاس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لايلتزمه ، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه فكأنه قال تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) وفى هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملا ولـكنه أقرب إلى الكلمة ، وعلى هذا فقوله (وكانوا أحق بها وأهلها) معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه ، وذلك لأن قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر (والثانى) أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى ، كما فى قوله «والمخلصون على خطر عظيم» وقوله تعالى (وهم من خشية ربهم مشفقون) وعلى الوجه الثانى يكون معنى قوله (وكانوا أحق بها) لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقوله (وأهلها) يحتمل وجهين (أحدهما) أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحاناً على الكافرين إن لم يثبت الأهلية ، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولـكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال فى الأقرب إلى الاستحقاق إذا كان ولابد فهذا أحق ، كما يقال الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال (وأهلها) دفعاً لذلك (الثانى) وهو أقوى وهو أن يقال قوله تعالى (وأهلها) فيه وجوه نبينهـا بعد مانبين معنى الأحق ، فنقول هو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الأحق بمعنى الحق لاللتفضيل كما فى قوله تعالى (خير مقاماً وأحسن ندياً) إذ لاخير فى غيره (والثانى) أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

بالنسبة إلى غيرهم أى المؤمنون أحق من الكافرين (والثانى) أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى ، تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة ، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه ، نقول هو بالفقه أعلم أى من الطب .

قوله تعالى :﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين ر.وسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ .

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أمروا به من عدم الإقبال على القتال وذلك قولهم ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم رآى فى منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتاً فقص رؤياه على المؤمنين ، فقطعوا بأن الأمر كما رآى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وظنوا أن الدخول يكون عام الحديبية ، والله أعلم أنه لايكون إلا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حلقنا فقال تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) وتعدية صدق إلى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه ، وكونه من الأفعال التى تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق ، ويحتمل أن يقال عدى إلى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله فى الرؤيا ، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به ، وعلى الثانى معناه ما أراه الله لم يكذب فيه ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رآى فى منامه أن الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله (صدق) ظاهراً لأن استعمال الصدق فى الكلام ظاهر ، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله (صدق الله) معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقاً يقال صدقنى سن بكره مثلا وفيما إذا حقق الأمر الذى يريه من نفسه ، مأخوذ من الإبل إذا قيل له هدع سكن فحقق كونه من صغار الإبل ، فإن هدع كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى (بالحق) قال الزمخشرى هو حال أو قسم أو صفة صدق ، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقاً ملتبساً بالحق وعلى تقدير كونه قسماً ، إما أن يكون قسماً بالله فإن الحق من أسمائه ، وإما أن يكون قسماً بالحق الذى هو نقيض الباطل هذا ما قاله ، ويحتمل أن يقال [إن] فيه وجهين آخرين : (أحدهما) أن يقال فيه تقديم

تأخير تقديره : صدق الله رسوله بالحق الرؤيا ، أى الرسول الذى هو رسول بالحق وفيه إشارة إلى امتناع الكذب فى الرؤيا لأنه لما كان رسولا بالحق فلا يرى فى منامه الباطل (والثانى) أن يقال أن يقال بأن قوله (لتدخلن المسجد الحرام) إن قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر ، وإن لم يقل به فتقديره : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، والله لتدخلن ، وقوله : والله لتدخلن ، جاز أن يكون تفسيراً للرؤيا يعنى الرؤيا هى : والله لتدخلن ، وعلى هذا تبين أن قوله (صدق الله) كان فى الكلام لأن الرؤيا كانت كلاماً ، ويحتمل أن يكون تحقيقاً لقوله تعالى (صدق الله رسوله) يعنى والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام وقوله تعالى (إن شاء الله) فيه وجوه (أحدها) أنه ذكره تعليما للعباد الأدب وتأكيداً لقول تعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) (الثانى) هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية ، وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال (لتدخلن) ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم ، إنما تدخلون بمشيئة الله تعالى (الثالث) هو أن الله تعالى لما قال فى الوحى المنزل على النبى ﷺ (لتدخلن) ذكر أنه بمشيئة الله تعالى ، لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دين ولا حق واجب ، ومن وعد بشىء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يلزمه به أحد ، وإذا كان هذا حال الموعود به فى الوحى المنزل صريحاً فى اليقظة فما ظنكم بالوحى بالمنام وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام ، فإذا تأخر الدخول لم يستهزئون ؟ (الرابع) هو أن ذلك تحقيقاً للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم فى هذه السنة ، ونختار دخولكم فى السنة القابلة ، والمؤمنون أرادوا الدخول فى عامهم ولم يقع . فكان لقائل أن يقول بقى الأمر موقوفاً على مشيئة أهل مكة إن أرادوا فى السنة الآتية يتركوننا ندخلها . وإن كرهوا لا ندخلها فقال لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم ، بل تمام الشرط بمشيئة الله ، وقوله (محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره ، فقوله (لتدخلن) إشارة إلى الأول وقوله (محلقين) إشارة إلى الآخر ، وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (محلقين) حال الداخلين . والداخل لا يكون الآن محرماً ، والمحرم لا يكون محلقاً ، فقوله (آمنين) ينبىء عن الدوام فيه إلى الحلق فكأنه قال : تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (لا تخافون) أيضا حال معناه غير خائفين ، وذلك حصل بقوله تعالى (آمنين) فما الفائدة فى إعادتها ؟ نقول : فيه بيان كمال الأمن ، وذلك لأن بعد الحلق يخرج الإنسان عن الإحرام فلا يحرم عليه القتال ، وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال : تدخلون آمنين ، وتحلقون ، ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الإحرام ، وقوله تعالى (فعلم ما لم تعلموا) أى من المصلحة وكون دخولكم فى سنتكم سبباً لوطء المؤمنين والمؤمنات

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ

أو (فعلم) للتعقيب ، (فعلم) وقع عقيب ماذا ؟ نقول إن قلنا المراد من (فعلم) وقت الدخول فهو عقيب صدق ، وإن قلنا المراد (فعلم) المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب ، والتقدير يعنى حصلت المصلحة فى العام القابل (فعلم مالم تعلموا) من المصلحة المتجددة (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) إما صلح الحديبية ، وإما فتح خيبر ، وقد ذكرناه وقوله تعالى (وكان الله بكل شيء عليما) يدفع وهم حدوث علمه من قوله (فعلم) وذلك لأن قوله (وكان الله بكل شيء عليما) يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ﴾ .

تأكيداً لبيان صدق الله فى رسوله الرؤيا ، وذلك لأنه لما كان مرسلا لرسوله ليهدى ، لا يريد مالا يكون مهدياً للناس فيظهر خلافه ، فيقع ذلك سبباً للضلال ، ويحتمل وجوهاً أقوى من ذلك ، وهو أن الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل ، لكن رؤية الأشياء قبل وقوعها فى اليقظة لا تقع لكل أحد فقال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى) وحكى له ما سيكون فى اليقظة ، ولا يبعد من أن يريه فى المنام ما يقع فلا استبعاد فى صدق رؤياه ، وفيها أيضاً بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى (ليظهره على الدين كله) أى من يقويه على الأديان لا يستبعد منه فتح مكة له (والهدى) يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى (أنزل فيه القرآن هدى للناس) وعلى هذا (دين الحق) هو ما فيه من الأصول والفروع ، ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أى أرسله بالحق أى مع الحق إشارة إلى ما شرع ، ويحتمل أن يكون الهدى هو الأصول (ودين الحق) هو الأحكام ، وذلك لأن من الرسل من لم يكن له أحكام بل بين الأصول فحسب ، والألف واللام فى (الهدى) يحتمل أن تكون للاستغراق أى كل ما هو هدى ، ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) وهو إما القرآن لقوله تعالى (كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر) إلى أن قال (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) وإما ما اتفق عليه الرسل لقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) والكل من باب واحد لأن ما فى القرآن موافق لما اتفق

عليه الأنبياء وقوله تعالى (ودين الحق) يحتمل وجوها : (أحدها) أن يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال : بالهدى ودين الله ، (وثانيها) أن يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال (ودين) الأمر (الحق) (وثالثها) أن يكون المراد به الانقياد إلى الحق والتزامه (ليظهره) أى أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه (ليظهره على الدين كله) أى جنس الدين ، فينسخ الأديان دون دينه ، وأكثر المفسرين على أن الهاء فى قوله (ليظهره) راجعة إلى الرسول ، والأظهر أنه راجع إلى دين الحق أى أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره أى ليظهر الدين الحق على الأديان ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله ، ويحتمل أن يكون هو النبى أى ليظهر النبى دين الحق ، وقوله تعالى (وكفى بالله شهيداً) أى فى أنه رسول الله وهذا مما يسلى قلب المؤمنين فإنهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب ، وقالوا لا نعلم أنه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبد الله ، فقال تعالى (كفى بالله شهيداً) فى أنه رسول الله ، وفيه معنى لطيف وهو أن قول الله مع أنه كاف فى كل شىء ، لكنه فى الرسالة أظهر كفاية ، لأن الرسول لا يكون إلا بقول المرسل ، فإذا قال ملك هذا رسولى ، لو أنكر كل من فى الدنيا أنه رسول فلا يفيد إنكارهم فقال تعالى أى خلل فى رسالته بإنكارهم مع تصديق إياه بأنه رسولى ، وقوله (محمد رسول الله) فيه وجوه (أحدها) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذى سبق ذكره بقوله (أرسل رسوله) ورسول الله عطف بيان (وثانيها) أن محمداً مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لأنه لما قال (هو الذى أرسل رسوله) ولا تتوقف رسالته إلا على شهادته ، وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير (وثالثها) وهو مستنبط وهو أن يقال (محمد) مبتدأ و(رسول الله) عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز (والذين معه) عطف على محمد ، وقوله (أشداء) خبره ، كأنه تعالى قال (والذين معه) جميعهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) لأن وصف الشدة والرحمة وجد فى جميعهم ، أما فى المؤمنين فكما فى قوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وأما فى حق النبى صلى الله عليه وسلم فكما فى قوله (واغلظ عليهم) وقال فى حقه (بالمؤمنين رءوف رحيم) وعلى هذا قوله (تراهم) لايكون خطاباً مع النبى صلى الله عليه وسلم بل يكون عاماً أخرج مخرج الخطاب تقديره أيها السامع كائناً من كان ، كما قلنا إن الواعظ يقول انتبه قبل أن يقع الانتباه ولا يريد به واحداً بعينه ، وقوله تعالى (يبتغون فضلا من الله ورضواناً) لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم ، وركوع المرائى وسجوده ، فإنه لا يبتغى به ذلك . وفيه إشارة إلى معنى لطيف وهو أن الله تعالى قال الراكعون والساجدون (فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقال الراكع يبتغى الفضل ولم يذكر الأجر لأن الله تعالى إذا قال لكم أجر كان ذلك منه تفضلا ، وإشارة إلى أن عملكم جاء على ماطلب الله منكم ، لأن الأجرة لا تستحق إلا على العمل الموافق للطلب من المالك ، والمؤمن إذا قال أنا أبتغى فضلك يكون منه اعترافاً

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ

بالتقصير فقال (يبتغون فضلا من الله) ولم يقل أجراً .

قوله تعالى : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك يوم القيامة . كما قال تعالى (يوم تبيض وجوه) وقال تعالى (نورهم يسعى) وعلى هذا فنقول . نورهم فى وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال إبراهيم عليه السلام (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) ومن يحاذى الشمس يقع شعاعها على وجهه ، فيتبين على وجهه النور منبسطاً ، مع أن الشمس لها نور عارضى يقبل الزوال ، والله نور السموات والأرض فمن يتوجه إلى وجهه يظهر فى وجهه نور يبهر الأنوار (وثانيهما) أن ذلك فى الدنيا وفيه وجهان (أحدهما) أن المراد مايظهر فى الجباه بسبب كثرة السجود (والثانى) مايظهره الله تعالى فى وجوه الساجدين ليلا من الحسن نهاراً ، وهذا محقق لمن يعقل فان رجلين يسهران بالليل أحدهما قداشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم فكل أحد فى اليوم الثانى يفرق بين الساهر فى الشرب واللعب ، وبين الساهر فى الذكر والشكر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك مثلهم فى التوراة ﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة (أحدها) أن يكون (ذلك) مبتدأ ، و (مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل) خبراً له ، وقول تعالى (كزرع أخرج شطأه) خبراً مبتدأ محذوف تقديره ومثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع (وثانيها) أن يكون خبر ذلك هو قوله (مثلهم فى التوراة) وقوله (ومثلهم فى الإنجيل) مبتدأ وخبره كزرع (وثالثها) أن يكون ذلك إشارة غير معينة أو ضحت بقوله تعالى (كزرع) كقوله (ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) وفيه وجه (رابع) وهو أن يكون ذلك خبراً له مبتدأ محذوف تقديره هذا الظاهر فى وجوههم ذلك يقال ظهر فى وجهه أثر الضرب ، فنقول أى والله ذلك أى هذا ذلك الظاهر ، أو الظاهر الذى تقوله ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ .

أى وصفوا فى الكتابين به ومثلوا بذلك وإنما جعلوا كالزرع لأنه أول مايخرج يكون ضعيفاً وله نمو إلى حد الكمال ، فكذلك المؤمنون ، والشطء الفرخ و (فآزره) يحتمل أن يكون المراد أخرج

لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

الشط ، وآزر الشط ، وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله (يعجب الزراع) .

قوله تعالى : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ أى تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو .

قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى وعد (ليغيظ بهم الكفار) يقال رغماً لأنفك أنعم عليه .

قوله تعالى : ﴿ منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض ، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض ، ومعناه : ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الأجر العظيم ، والعظيم والمغفرة قد تقدم مراراً والله تعالى أعلم ، وههنا لطيفة وهو أنه تعالى قال فى حق الراكعين والساجدين (إنهم يبتغون فضلا من الله) وقال : لهم أجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجراً يعتد به ، فقال لا أبتغى إلا فضلك ، فإن عملى نزر لا يكون له أجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجراً إشارة إلى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزراً لا يستحق عليه المؤمن أجراً ، وقد علم بما ذكرنا مراراً أن قوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) لبيان ترتب المغفرة على الإيمان فإن كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) والأجر العظيم على العمل الصالح والله أعلم .

قال المصنف رحمه الله تعالى : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

٤٨ — سورة الفتح

نزلت فى الحديبية وآياتها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) ٤٨ الفتح

هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء * على أنه بمعنى الذين أى هاأنتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والإنفاق فى سبيل الله يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فمنكم من يبخل) أى ناس يبخلون وهو فى حيز الدليل على الشرطية * السابقة (ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه) فإن كلا من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه والبخل * يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الإمساك والتعدى (والله الغنى) دون من عداه (وأنتم الفقراء) فما * يأمركم به فهو لاحتياجكم إلى مافيه من المنافع فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم وقوله تعالى (وإن * تتولوا) عطف على إن تؤمنوا أى وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى (يستبدل قوماً غيركم) يخلف * مكانكم قوماً آخرين (ثم لا يكونوا أمثالكم) فى التولى عن الإيمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما * قيل هم الأنصار وقيل الملائكة وقيل أهل فارس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذى نفسى بيده لوكان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كندة والنخع وقيل العجم وقيل الروم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله عز وجل أن يسقيه من أنهار الجنة .

﴿ سورة الفتح مدنية نزلت فى مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وآياتها تسع وعشرون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (إنا فتحنا لك) فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحاً بحراب أو بدونه فإنه ما لم يظفر به منغلق مأخوذ من فتح باب الدار وإسناده إلى نون العظمة لاستناد أفعال العباد إليه تعالى خلقاً وإيجاداً والمراد به فتح مكة شرفها الله وهو المروى عن أنس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الأخبار الربانية للإيذان بتحققه لامحالة تأكيداً للتبشير كما أن تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعز سلطانه مالا يخفى وقيل هو ما أتيح له عليه الصلاة والسلام فى تلك السنة من فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فإنه وإن لم يكن فيه حراب شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحاً بلاريب وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وعن الكلبى ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين

لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ٤٨ الفتح

وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ٤٨ الفتح

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ٤٨ الفتح

بلغه أن رجلا قال ماهذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا قال بل هو أعظم الفتوح وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم مايكرهون وعن الشعبي نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة مالم يصب فى غزوة حيث أصاب أن بويع بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من ذنبه وماتأخر وبلغ الهدى محله وأطعموا نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح به المسلمون وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة هى أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وشبع وقيل فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع مافتح له عليه الصلاة والسلام من الفتوح وقيل هو مافتح الله له عليه الصلاة والسلام من الإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كافة إذ لافتح من فتوح الإسلام إلا وهو شعبة من شعبه وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتاحة للحكومة والمعنى قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة رضى الله عنه وأياً ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والإيذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا خصوصية المفتوح

٢ (فتحاً مبيناً) بينا ظاهر الأمر مكشوف الحال أو فارقا بين الحق والباطل وقوله تعالى (ليغفر لك الله) غاية للفتح من حيث أنه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام فى إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للإشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر

* مترتبة على صفة من صفاته تعالى (ماتقدم من ذنبك وما تأخر) أى جميع مافرط منك من ترك الأولى

* وتسميته ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل (ويتم نعمته عليك) بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة وغيرهما

* مما أفاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية (ويهديك صراطا مستقيما) فى تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق

٣ واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلا قبل (وينصرك الله) إظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات

* ولإظهار كمال العناية بشأن النصر كما يعرب عنه تأكيده بقوله تعالى (نصراً عزيزاً) أى نصراً فيه عزة ومنعة

٤ أو قوياً منيعاً على وصف المصدر بوصف صاحبه مجازاً للمبالغة أو عزيزاً أصحابه (هو الذى أنزل السكينة)

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ٤٨ الفتح

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ٤٨ الفتح

بيان لما أفاض عليهم من مبادى الفتح من الثبات والطمأنينة أى أنزلها (فى قلوب المؤمنين) بسبب الصلح والأمن إظهاراً لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف (ليزداودوا إيماناً مع إيمانهم) أى يقيناً منضما إلى يقينهم أو أنزل فيها السكون إلى ماجاء به عليه الصلاة والسلام من الشرائع ليزدادوا إيماناً بها مقروناً مع إيمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول ماأتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيمانا مع إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم (ولله جنود السموات والأرض) يدبر أمرها كيفما يريد يسلط بعضها على بعض تارة ويوقع بينهما السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم بجميع الأمور (حكيما) فى تقديره وتدبيره وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) متعلق بما يدل عليه ماذكر من كون جنود السموات والأرض له تعالى من معنى التصرف والتدبير أى دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فى ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى يغطيها ولا يظهرها وتقديم الإدخال فى الذكر على التكفير مع أن الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ماهو المطلب الأعلى (وكان ذلك) أى ماذكر من الإدخال والتكفير (عند الله فوزاً عظيما) لايقادر قدره لأنه منتهى مايمتد إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر وعند الله حال من فوزاً لأنه صفته فى الأصل فلما قدم عليه صار حالا أى كائنا عند الله أى فى علمه تعالى وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطف على يدخل وفى تقديم المنافقين على المشركين مالا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب (الظانين بالله ظن السوء) أى ظن الأمر السوء وهو أن لاينصر رسوله والمؤمنين (عليهم دائرة السوء) أى مايظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم وقرىء دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء كالكره والكره خلا أن المفتوح غلب فى أن يضاف إليه مايراد ذمه من كل شىء وأما المضموم فجار مجرى الشر (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم) عطف على مااستحقوه فى الآخرة على مااستوجبوه فى الدنيا والواو فى الأخيرين مع أن حقها الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لما بعدها للإيذان باستقلال كل منها فى الوعيد وأصالته من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض (وساءت مصيراً) أى جهنم.

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ٤٨ الفتح

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ٤٨ الفتح

لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ٤٨ الفتح

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ٤٨ الفتح

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ٤٨ الفتح

---

٧ (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما) إعادة لما سبق قالوا فائدتها التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب وأن المراد ههنا جنود العذاب كما ينبيء عنه التعرض لوصف العزة

٨ (إنا أرسلناك شاهداً) أى على أمتك لقوله تعالى ويكون الرسول عليكم شهيداً (ومبشراً) على الطاعة

٩ (ونذيراً) على المعصية (لتؤمنوا بالله ورسوله) الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولأمته (وتعزروه) وتقووه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أو تصلوا له من السبحة (بكرة وأصيلا) غدوة وعشياً عن ابن عباس رضى الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وقرىء الأفعال الأربعة بالياء التحتانية وقرىء وتعزروه بضم التاء وتخفيف الزاى المكسورة وقرىء

١٠ بفتح التاء وضم الزاى وكسرها وتعززوه بزاءين وتوقروه من أوقره بمعنى وقره (إن الذين يبايعونك) أى على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى (إنما يبايعون الله) خبران يعنى أن مبايعتك هى مبايعة الله عز وجل لأن المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) حال أو استئناف مؤكد له على طريقة التخييل والمعنى أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وقرىء إنما يبايعون لله أى لأجله ولوجهه (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه وقرىء بكسر الكاف (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) بضم الهاء فإنه أبقى بعد حذف الواو توسلا بذلك إلى تفخيم لام الجلالة وقرىء بكسرها أى ومن وفى بعهده (فسيؤتيه أجراً عظيما) هو الجنة

١١ وقرىء بما عهد وقرىء فسنؤتيه بنون العظمة (سيقول لك المخلفون من الأعراب) هم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنفر من

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ٤٨ الفتح

حول المدينة من الإعراب وأهل البوادى ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم عليه الصلاة والسلام وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد الحرب وتثاقلوا عن الخروج وقالوا نذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم فأوحى الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام بأنهم سيعتلون ويقولون (شغلتنا أموالنا وأهلونا) ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرىء * شغلتنا بالتشديد للتكثير (فاستغفر لنا) الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن * اضطرار (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) بدل من سيقول أو استئناف لتكذيبهم فى الاعتذار * والاستغفار (قل) رداً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم (فمن يملك لكم من الله شيئاً) أى فمن يقدر * لأجلكم من مشيئة الله تعالى وقضائه على شىء من النفع (إن أراد بكم ضراً) أى ما يضركم من هلاك * الأهل والمال وضياعهما حتى تتخلفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما وقرىء ضراً بالضم (أو أراد بكم نفعاً) أى ومن يقدر على شىء من الضرر إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ * أموالكم وأهليكم فأى حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة وتعميم الضر والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر والغنيمة يرده قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) فإنه إضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد * بيان فساده على تقدير صدقه أى ليس الأمر كما تقولون بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملون من الأعمال التى من جملتها تخلفكم وما هو من مباديه وقوله تعالى (بل ظننتم) الخ بدل من كان الله الخ مفسر لما ١٢ فيه من الإبهام أى بل ظننتم (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً) بأن يستأصلهم المشركون * بالمرة فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة والأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كأرضات على تقدير تاء التأنيث وأما الأهالى فاسم جمع كالليالى وقرىء إلى أهلهم (وزين ذلك فى قلوبكم) وقبلتموه واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم وقرىء * زين على البناء للفاعل بإسناده إلى الله سبحانه أو إلى الشيطان (وظننتم ظن السوء) المراد به إما الظن * الأول والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو مايعمه وغيره من الظنون الفاسدة التى من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه الصلاة والسلام فإن الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ماذكر من الاستئصال (وكنتم قوماً بوراً) أى هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه على أنه جمع بائر كعائذ وعوذ أو فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم وقيل البور من بار كالهلك من هلك بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ٤٨ الفتح

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ٤٨ الفتح

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ٤٨ الفتح

---

١٣ (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أى ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين (فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً) أى لهم وإنما وضع موضع الضمير الكافرون إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة (ولله ملك السموات والأرض) وما فيهما يتصرف فى الكل كيف يشاء (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (ويعذب من يشاء) أن يعذبه من غير دخل لأحد فى شىء منهما وجوداً وعدماً وفيه حسم لأطماعهم الفارغة فى استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم (وكان الله غفوراً رحيما) مبالغاً فى المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء إلا لمن تقتضى

١٥ الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله وأما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعاً (سيقول المخلفون) أى المذكورون وقوله تعالى (إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) ظرف لما قبله لا شرط لما بعده أى سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم إياها وخصكم بها عوضاً مما فاتكم من غنائم مكة (ذرونا نتبعكم) إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها (يريدون أن يبدلوا كلام الله) بأن يشاركوا فى الغنائم التى خصها بأهل الحديبية فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالا كثيرة فخصها بهم حسبما أمره الله عز وجل وقرىء كلم الله وهو جمع كلمة وأياما كان فالمراد ماذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة لا قوله تعالى لن تخرجوا معى أبداً فإن ذلك فى غزوة تبوك (قل) إقناطا لهم (لن تتبعونا) أى لا تتبعونا فإنه نفى فى معنى النهى للمبالغة (كذلكم قال الله من قبل) أى عند الانصراف من الحديبية (فسيقولون) للمؤمنين عند سماع هذا النهى (بل تحسدوننا) أى ليس ذلك النهى حكم الله بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم وقرىء تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى (بل كانوا لا يفقهون) أى لا يفهمون (إلا قليلا) إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لأمور الدنيا رد لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ٤٨ الفتح

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ٤٨ الفتح

لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ٤٨ الفتح

المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين (قل للمخلفين من الأعراب) كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى ذمهم (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المشركون لقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) أى يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أبداً أو الإسلام لاغير كما يفصح عنه قراءة أويسلموا وأمامن عداهم فينتهى قتالهم بالجزية كما ينتهى بالإسلام وفيه دليل على أمامة أبى بكر رضى الله عنه إذ لم تتفق هذه الدعوة لغيره إلا إذا صح أنهم ثقيف وهوازن فإن ذلك كان فى عهد النبوة فيخص دوام نفى الاتباع بما فى غزوة خيبر كما قاله محيى السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى يسلمون ينقادون فإن الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم الجزية (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً) هو الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة (وإن تتولوا) عن الدعوة (كما توليتم من قبل) فى الحديبية (يعذبكم عذاباً أليما) لتضاعف جرمكم (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى فى التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة فإن التكليف يدور على الاستطاعة وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (ومن يطع الله ورسوله) فيما ذكر من الأوامر والنواهى (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقرىء ندخله بنون العظمة (ومن يتول) أى عن الطاعة (يعذبه) وقرىء بالنون (عذاباً أليما) لايقدر قدره (لقد رضى الله عن المؤمنين) هم الذين ذكر شأن مبايعتهم وبهذه الآية سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى (إذ يبايعونك تحت الشجرة) منصوب برضى وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة متعلق به أو بمحذوف هو حال من مفعوله روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة فهموا به فمنعه الأحابيش فرجع فبعث عثمان بن عفان رضى الله عنه فأخبرهم أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال ماكنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال عليه الصلاة والسلام لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ٤٨ الفتح

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) ٤٨ الفتح

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) ٤٨ الفتح

سمرة وقيل سدرة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا وروى على الموت دونه وأن لايفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الأرض وكانوا ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفاً وأربعمائة وقيل ألفاً وثلثمائة وقوله تعالى (فعلم مافى قلوبهم) عطف على يبايعونك لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك لاعلى رضى فإن رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه تعالى بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (فأنزل السكينة عليهم) عطف على رضى أى فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالربط على قلوبهم وقيل بالصلح (وأثابهم فتحاً قريباً) هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما مر تفصيله وقرىء وآتاهم (ومغانم كثيرة يأخذونها) أى مغانم خيبر والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع لتشريفهم فى مقام الامتنان (وكان الله عزيزاً) غالبا (حكيما) مراعيا لمقتضى الحكمة فى أحكامه وقضاياه (وعدكم الله مغانم كثيرة) هى مايفيؤه على المؤمنين إلى يوم القيامة (تأخذونها) فى أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها (فعجل لكم هذه) أى غنائم خيبر (وكف أيدى الناس عنكم) أى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من بنى أسد وغطفان حيث جاءوا لنصرتهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل أيدى أهل مكة بالصلح (ولتكون آية للمؤمنين) أمارة يعرفون بها صدق رسول صلى الله عليه وسلم فى وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ماذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام واللام متعلقة إما بمحذوف مؤخر أى ولتكون آية لهم فعل مافعل من التعجيل والكف أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين أى فعجل لكم هذه أو كف أيدى الناس لتغتنموها ولتكون الخ فالواو على الأول اعتراضية وعلى الثانى عاطفة (ويهديكم) بتلك الآية (صراطاً مستقيما) هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه فى كل ماتأتون وما تذرون (وأخرى) عطف على هذه أى فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى (لم تقدروا عليها) وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى (قد أحاط الله بها) صفة أخرى لأخرى مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة إلى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم أى قد قدر الله عليها واستولى وأظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم هذا وقد قيل إن أخرى منصوب بمضمر يفسره قد أحاط الله بها أى وقضى الله أخرى ولا ريب فى أن الإخبار بقضاء الله إياها بعد اندراجها فى جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ليس فيه مزيد فائدة وإنما الفائدة

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ٤٨ الفتح

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ٤٨ الفتح

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ٤٨ الفتح

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ٤٨ الفتح

في بيان تعجيلها (وكان الله على كل شيء قدير) لأن قدرته تعالى ذاتية لاتختص بشيء دون شيء (ولو قاتلكم الذين كفروا) أى أهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خيبر (لولوا الأدبار) منهزمين (ثم لايجدون ولياً) يحرسهم (ولا نصيراً) ينصرهم (سنة الله التي قد خلت من قبل) أى سن الله غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى تغييراً (وهو الذى كف أيديهم) أى أيدى سفار مكة (عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) أى فى داخلها (من بعد أن أظفركم عليهم) وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لاصلحاً (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم وهزمهم أولا والكف عنهم ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرىء بالياء (بصيراً) فيجازيكم بذلك أو يجازيهم (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى) بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى صدوركم وقرىء بالجر عطفا على المسجد بحذف المضاف أى ونحر الهدى وبالرفع على وصد الهدى وقوله تعالى (معكوفا) حال من الهدى أى محبوسا وقوله تعالى (أن يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدى أو منصوب بنزع الخافض أي محبوسا من أن يبلغ مكانه الذى يحل فيه نحره وبه استدل أبو حنيفة رحمه الله تعالى على أن المحصر محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من الحرم وروى أن خيامه صلى الله عليه وسلم كانت فى الحل ومصلاه فى الحرم وهناك نحرت هداياه صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها المعهود الذى هو منى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم وهو صفة لرجال ونساء وقوله تعالى (أن تطؤوهم) أى توقعوا بهم وتهلكوهم بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب فى تعلموهم (فتصيبكم منهم) أى من جهتهم (معرة) أى مشقة ومكروه كوجوب الدية أو الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء قالتهم والإثم بالتقصير فى البحث عنهم وهى مفعلة من عره إذا عراه ودهاه مايكرهه (بغير علم) متعلق بأن تطؤهم أى غير عالمين بهم وجواب لولا

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ٤٨ الفتح

محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف أيديكم عنهم وقوله تعالى (ليدخل الله فى رحمته) متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كأنه قيل عقيبه لكن كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى إلى الفتح بلا محذور فى رحمته الواسعة بقسميها (من يشاء) وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التى من جملتها الأمن مستضعفين تحت أيدى الكفرة وأما الرحمة الأخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها بالمرة لكنهم كانوا قاصرين فى إقامة مراسم العبادة كما ينبغى فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم فى الرحمة الأخروية وقد جوز أن يكون من يشاء عبارة عمن رغب فى الإسلام من المشركين ويأباه قوله تعالى (لو تزيلوا) الخ فإن فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضى تحقق المباينة بين الفريقين بالإيمان والكفر قبل التزيل حتما أى لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض وقرىء لو تزايلوا (لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها

٢٦ (إذ جعل الذين كفروا) منصوب باذكر على المفعولية أو بعذبنا على الظرفية وقيل بمضمر هو أحسن الله إليكم وأياً ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة وتعليل الحكم به والجعل إما بمعنى الإلقاء فقوله تعالى (فى قلوبهم الحمية) أى الأنفة والتكبر متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم (حمية الجاهلية) بدل من الحمية أى حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) على الأول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثانى على مايدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ وعلى الثالث على المضمر تفسير له والسكينة الثبات والوقار يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز ابن حفص بن الأحنف على أن يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ماهذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ماصالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا لوكنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب مايريدون فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وحلموا (وألزمهم كلمة التقوى) أى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم أو محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه وإضافتها إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها أو كلمة أهلها (وكانوا

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ٤٨ الفتح

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ٤٨ الفتح

أحق بها) متصفين بمزيد استحقاق لها على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقاً وقيل أحق بها من الكفار (وأهلها) أى المستأهل لها (وكان الله بكل شىء عليما) فيعلم حق كل شىء فيسوقه إلى مستحقه (لقد ٢٧ صدق الله رسوله الرؤيا) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبى وعبدالله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت أى صدقه صلى الله عليه وسلم فى رؤياه كما فى قولهم صدقنى سن بكره وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى (بالحق) إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أى صدقا * ملتبساً بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التى هى التمييز بين الراسخ فى الإيمان والمتزلزل فيه أو حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام وقد جوز أن يكون قسما بالحق الذى هو من أسماء الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) جوابه * وهو على الأولين جواب قسم محذوف أى والله لتدخلن الخ وقوله تعالى (إن شاء الله) تعليق للعدة * بالمشيئة لتعليم العباد أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك أو هى حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لما قاله عليه الصلاة والسلام لأصحابه (آمنين) * حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى (محلقين رؤسكم ومقصرين) أى محلقاً * بعضكم ومقصراً آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة (لاتخافون) حال مؤكدة * من فاعل لتدخلن أو آمنين أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أى لاتخافون بعد ذلك (فعلم مالم تعلموا) * عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أى فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة مالم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً (فجعل) * لأجله (من دون ذلك) أى من دون تحقق مصداق ما رآه من دخول المسجد الحرام الخ (فتحاً قريباً) * وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون آية للمؤمنين وأما جعل ما فى قوله تعالى مالم تعلموا عبارة عن الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل كما جنح إليه الجمهور فتأباه الفاء فإن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعا (هو الذى ٢٨ أرسل رسوله بالهدى) أى ملتبسا به أو بسببه ولأجله (ودين الحق) وبدين الإسلام (ليظهره على * الدين كله) ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده التى هى الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقا من بعض

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ٤٨ الفتح

الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصار وإظهار بطلان ما كان باطلا أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم مايستقلون إليه فتح مكة (وكفى بالله شهيداً) على أن ماوعده كائن لامحالة أو على نبوته عليه الصلاة والسلام بإظهار المعجزات (محمد) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (رسول الله) بدل أو بيان أو نعت أى ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله وقيل محمد مبتدأ رسول الله خبره والجملة مبينة للمشهود به وقوله تعالى (والذين معه) مبتدأ خبره (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وأشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة ولمن وافقهم فى الدين الرحمة والرأفة كقوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وقرىء أشداء ورحماء بالنصب على المدح أو على الحال من المستكن فى معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى (تراهم ركعاً سجداً) أى تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات وهو على الأول خبر آخر أو استئناف وقوله تعالى (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أى ثواباً ورضاً إما خبر آخر أو حال من ضمير تراهم أو من المستتر فى ركعاً سجداً أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون فضلا من الله الخ (سيماهم) أى سمتهم وقرىء سيمياؤهم بالياء بعد الميم والمد وهما لغتان وفيها لغة ثالثة هى السيماء بالمد وهو مبتدأ خبره (فى وجوههم) أى فى جباههم وقوله تعالى (من أثر السجود) حال من المستكن فى الجار أى من التأثير الذى يؤثره كثرة السجود وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قوله عليه الصلاة والسلام لاتعلبوا صوركم أى لاتسموها إنما هو فيما إذا اعتمد بجبهته على الأرض ليحدث فيها تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث فى جبهة السجاد الذى لايسجد إلا خالصا لوجه الله عز وجل وكان الإمام زين العابدين وعلى بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهما يقال لهما ذو الثفنات لما أحدثت كثرة سجودهما فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير قال قائلهم [ديار على والحسين وجعفر * وحمزة والسجاد ذى الثفنات] وقيل صفرة الوجه من خشية الله تعالى وقيل ندى الطهور وتراب الأرض وقيل استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل قال عليه الصلاة والسلام من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وقرىء من آثار السجود ومن إثر السجود بكسر الهمزة (ذلك) إشارة إلى ماذكر

﴿ سورة الفتح ٤٨ ﴾

نزلت بالمدينة على ماروى عن ابن عباس . وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم، والاخبار تدل على أنها نزلت في السفر لا في المدينة نفسها وهو الصحيح . أخرج ابن أبي شيبة. وأحمد. والبخاري في تاريخه. وأبو داود. والنسائي. وجماعة عن ابن مسعود قال: « أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ أي عام ست بعد الهجرة وكان قد خرج اليها عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين هلال ذى القعدة فأقام بها بضعة عشر يوما ، وقيل : عشرين يوما ثم قفل عليه الصلاة والسلام فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي وكان إذا أتاه اشتد عليه فسرى عنه وبه من السرور ماشاء الله تعالى فأخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) وأخرج أحمد. والبخاري . والترمذي . والنسائي. وابن حبان. وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال: « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد على فحركت بعيرى ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن فما نشبت إذ سمعت صارخا يصرخ بي فوجفت وأنا أظن أنه نزل في شيء فقال النبي ﷺ : لقد أنزلت على الليلة سورة أحب إلى من الدنيا ومافيها (إنا فتحنا لك فتحنا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر) وفي حديث صحيح أخرجه أحمد . وأبو داود. وغيرهما عن مجمع بن جارية الانصاري مايدل على أنها نزلت بعد منصرفه ﷺ من الحديبية أيضا وأن ذلك عند كراع الغميم فقرأها عليه الصلاة والسلام على الناس وهو على راحلته، وفي رواية ابن سعد عنه

مايدل على أنها بضجنان، ونقل ذلك عن البقاعى، وضجنان بضاد معجمة وجيم ونونين بينهما الف بزنة سكران كما فى القاموس جبل قرب مكة، وهذا ونحوه قول بنزولها بين مكة والمدينة، ومثل ذلك يعد مدنيا على المشهور وهو أن المدنى مانزل بعد الهجرة سواء نزل بالمدينة أم بمكة أم بسفر من الاسفار، والمكى مانزل قبل الهجرة، وأما على القول بأن المكى مانزل ولو بعد الهجرة بمكة ويدخل فيها كما قال الجلال السيوطى نواحيها كمنى وعرفات والحديبية بل بعضها على مافى الهداية وأكثرها على ماقال المحب الطبرى من حرم مكة، والمدنى مانزل بالمدينة ويدخل فيها كما قال أيضا نواحيها كأحد. وبدر. وسلع فلا بل يعد على القول بأنه نزل قرب مكة مكيا، فالقول بأن السورة مدنية بلا خلاف فيه نظر ظاهر، وهى تسع وعشرون آية بالاجماع، ولايخفى حسن وضعها هنا لأن الفتح بمعنى النصر مرتب على القتال، وفى كل من ذكر المؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين مافيه، وقد ذكر أيضا فى الأولى الامر بالاستغفار وذكرهنا وقوع المغفرة، وذكرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف وكنى عنها بكلمة التقوى بناء على أشهر الاقوال فيها، وستعرفها إن شاء الله تعالى إلى غير ذلك. وفى البحر وجه مناسبتها لما قبلها أنه لما تقدم (وإن تتولوا) الآية وهو خطاب لكفار قريش أخبر سبحانه رسوله ﷺ بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال وأمن كل من كان بمكة وصارت دار ايمان وفيه مالايخفى. وفى الاخبار السابقة مايدل على جلالة قدرها. وفى حديث مجمع بن جارية الذى اخرجه عنه ابن سعد لما نزل بها جبريل عليه السلام قال: نهنيك يارسول الله فلما هناه جبريل عليه السلام هناه المسلمون، ويحكى أنه من قرأها أول ليلة من رمضان حفظ ذلك العام ولم يثبت ذلك فى خبر صحيح والله تعالى اعلم *

﴿بسم الله الرحمن الرحيم انا فتحنا لك﴾ اخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور وروى ذلك عن ابن عباس. وانس. والشعبى. والزهرى قال ابن عطية: وهو الصحيح، واصل الفتح ازالة الاغلاق، وفتح البلد كما فى الكشاف الظفر به عنوة أو صلحا بحرب اوبغيره لأنه منغلق مالم يظفر به فاذا ظفر به وحصل فى اليد فقد فتح، وسمى ذلك الصلح فتحا لاشتراكهما فى الظهور والغلبة على المشركين فانهم كما قال الكلبى ماسألوا الصلح الابعدان ظهر المسلمون عليهم، وعن ابن عباس أن المسلمين رموهم أى بسهام وحجارة كما قيل حتى ادخلوهم ديارهم أولأن ذلك الصلح صار سببا لفتح مكة، قال الزهرى: لم يكن فتح اعظم من صلح الحديبية اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم وتمكن الاسلام من قلوبهم وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير وكثر بهم سواد الاسلام، قال القرطبى: فما مضت تلك السنون الا والمسلمون قد جاؤا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها، والتسمية على الاول من باب الاستعارة التبعية كيفما قررت، وعلى الثانى من باب المجاز المرسل سواء قلنا إنه فى مثل ماذكر تبعى أم لاحيث سمى السبب باسم المسبب، ولامانع من أن يكون بين شيئين نوعان من العلاقة فيكون استعمال أحدهما فى الآخر باعتبار كل نوعا من المجاز كما فى المشفر والشفة الغليظة لانسان، واسناد الفتح المراد به الصلح الذى هو فعل رسول الله ﷺ اليه عز وجل مجاز من اسناد ماللقابل للفاعل الموجد، وفى ذلك من تعظيم شأن الصلح والرسول عليه الصلاة والسلام مافيه، لايقال: قد تقرر فى الكلام أن الافعال كلها مخلوقة له تعالى فنسبة الصلح اليه سبحانه اسناد إلى ماهو له فلا مجاز لأنا نقول: ماهو له عبارة عما كان الفعل حقه أن يسند اليه فى العرف سواء كان مخلوقا له تعالى أو لغيره عز وجل كما صرح به السعد فى المطول وكيف لا ولو كان كذلك لكان اسناد جميع الافعال إلى غيره تعالى مجازا واليه تعالى حقيقة كالصلاة والصيام وغيرهما *

وقال المحقق میرزاجان: یمکن توجیه مافی الآیة الکریمة علی أنه استعارة مکنیة أو علی أن یراد خلق الصلح وإیجاده أو علی أن یکون المجاز فی الهیئة الترکیبیة الموضوعة للاسناد إلی ماهو له فاستعملت فی الاسناد إلی غیره أو علی أن یکون من قبیل الاستعارة التمثیلیة، والاوجه الأربعة جاریة فی کل ما کان من قبیل المجاز العقلی کأنبت الربیع البقل، وقد صرح القوم بالثلاثة الأول منها، وزعم بعض أن الصلح مما یسند الیه تعالی حقیقة فلایحتاج الی شیء من ذلك وفیه مافیه، ویجوز أن یکون ذلك إخبارا عن جعل المشرکین فی الحدیبیة مغلوبین خائفین طالبین للصلح ویکون الفتح مجازا عن ذلك واسناده الیه تعالی حقیقة، وقد خفی کون ما کان فی الحدیبیة فتحا علی بعض الصحابة حتی بینه علیه الصلاة والسلام. أخرج البیهقی عن عروة قال: «أقبل رسول الله ﷺ من الحدیبیة راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله صلی الله تعالی علیه وسلم: والله ماهذا بفتح لقد صددنا عن البیت وصد هدینا وعکف رسول الله صلی الله تعالی علیه وسلم بالحدیبیة ورد رجلین من المسلمین خرجا فبلغ رسول الله صلی الله تعالی علیه وسلم ذلك فقال: بئس الکلام هذا بل هو أعظم الفتح لقد رضی المشرکون أن یدفعوکم بالراح عن بلادهم ویسألونکم القضیة ویرغبون الیکم فی الأمان وقد کرهوا منکم ما کرهوا، وقد أظفرکم الله علیهم وردکم سالمین غانمین مأجورین فهذا أعظم الفتح، أنسیتم یوم أحد إذ تصعدون ولا تلون علی أحد وأنا أدعوکم فی أخراکم؟ أنسیتم یوم الأحزاب إذ جاءوکم من فوقکم ومن أسفل منکم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون؟ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله یانبی الله مافکرنا فیما ذکرت ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا، وفائدة الخبر بالفتح علی الوجهین بالنسبة إلی غیره علیه الصلاة والسلام لأنه صلی الله تعالی علیه وسلم یعلم ذلك وکذا یعلم لازم الفائدة کذا قیل،

وحمل الغیر علی من لم یحضر الفتح من الصحابة وغیرهم لأن الحاضرین علموا ذلك قبل النزول، وقیل: الحاضر انما علم وقوع الصلح أو کون المشرکین بحیث طلبوه ولم یعلم کونه فتحا کما یشعر به الخبر، وإن سلم أنه علم ذلك لکنه لم یعلم عظم شأنه علی ما یشعر به إسناده إلی نون العظمة والاخبار به بذلك الاعتبار.

وقال بعض المحققین: لعل المقصود بالافادة کون ذلك للمغفرة وما عطف علیها فیجوز أن تکون الفائدة بالنسبة الیه صلی الله تعالی علیه وسلم أیضا، وأقول: قد صرحوا بأنه کثیرا ما تورد الجملة الخبریة لأغراض أخر سوی افادة الحکم أو لازمه نحو (رب إنی وضعتها أنثی، رب إنی وهن العظم منی. لا یستوی القاعدون من المؤمنین) الآیة إلی غیر ذلك مما لا یحصی فیجوز أن یکون الغرض من إیرادها ههنا الامتنان دون إفادة الحکم أو لازمه ولا مجاز فی ذلك ونحوه علی ما أشار الیه العلامة عبد الحکیم السالکوتی فی حواشیه علی المطول.

وصرح فی الرسالة الجندیة بأن الهیئة الترکیبیة الخبریة فی نحو ذلك منقولة إلی الانشائیة وان المجاز فی الهیئة فقط لافی الأطراف ولافی المجموع وهو مجاز مفرد عند صاحب الرسالة والکلمة أعظم من اللفظ الحقیقی والحکمی؛ وبعضهم یقول: هو مجاز مرکب ولا ینحصر فی التمثیلیة، وتحقیقه فی موضعه.

والتأکید بان للاعتناء لا لرد الانکار وقیل لأن الحکم لعظم شأنه مظنة للانکار. وقیل: لأن بعض السامعین منکر کون ما وقع فتحا، ویقال فی تکریر الحکم نحو ذلك. وقال مجاهد: المراد بالفتح فتح خیبر وهی مدینة کبیرة ذات حصون ومزارع علی ثمانیة برد من المدینة الی جهة الشام، وکان خروج النبی صلی الله تعالی علیه وسلم کما قال ابن اسحق ورجحه الحافظ ابن حجر فی بقیة المحرم سنة سبع وأقام یحاصرها بضع عشره لیلة الی أن فتحها

ونقل عن مالك وجزم به ابن حزم أنه كان فى آخرسنة ست، وجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على ان ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقى وهو شهر ربيع الاول،وقول الشيخ أبى حامد فى التعليقة:ان غزوة خيبر كانت سنة خمس وهم،وقول ابن سعد . وابن أبى شيبة رواية عن أبى سعيد الخدرى،انها كانت لثمان عشرة من رمضان خطأ، ولعل الاصل كانت حنين فحرف ومع هذا يحتاج الى توجيه وقد فتحت على أيدى أهل الحديبية لم يشركهم أحد من المتخلفين عنها فالفتح على حقيقة واسناده اليه تعالى على حد ماسمعت فيما تقدم، والتأكيد بان وتكرير الحكم للاعتناء، والتعبير عن ذلك بالماضى مع انه لم يكن واقعا يوم النزول بناء على ماروى عن المسور بن مخرمة من أن السورة نزلت من أولها الى آخرها بين مكة والمدينة من باب مجاز المشارفة نحو من قتل قتيلا على المشهور أو الأول نحو (إنى أرانى اعصر خمراً) ولا يضر اختلافهما فى الفعلية والاسمية)،وفيه وجه آخر يعلم مما سيأتى ان شاء الله تعالى.وذهب جماعة الى أنه فتح مكة وهو كما فى زاد المعاد الفتح الاعظم الذى أعز الله تعالى به دينه واستنقذ به بلده وطهر حرمه واستبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس بعده فى دين الله عز وجل أفواجا وأشرق وجه الدهر ضياء وابتهاجا، وكان سنة ثمان وفى رواية ونصف،وقد خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ما أخرجه أحمد باسناد صحيح عن أبى سعيد لليلتين خلتا من شهر رمضان، وفتح مكة لثلاث عشرة خلت منه على ماروى عن الزهرى، وروى عن جماعة أنه كان الفتح فى عشر بقيت من شهر رمضان وقيل غير ذلك، وكان معه صلى الله تعالى عليه وسلم من المسلمين عشرة آلاف وقيل : إثنا عشر الفاً.والجمع ممكن ،وكان الفتح عند الشافعى صلحا وهى رواية عن أحمد للتأمين فى مر الظهران بمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن،ولعدم قسمة الدور بين الغانمين، وذهب الاكثرون الى أنه عنوة للتصريح بالامر بالقتال ووقوعه من خالد بن الوليد وقوله عليه الصلاة والسلام: «أحلت لى ساعة من نهار» ولا يسمى ذلك التأمين صلحا إلا إذا التزم من أشير اليه به الكف عن القتال، والاخبار الصحيحة ظاهرة فى أن قريشا لم يلتزموا،وترك القسمة لا يستلزم عدم العنوة فقد تفتح البلدة عنوة ويمن على أهلها وتترك لهم دورهم.

واقام عليه الصلاة والسلام بعد الفتح خمس عشرة ليلة فى رواية البخارى وسبع عشرة فى رواية أبى داود وثمان عشرة فى رواية الترمذى،وتسع عشرة فى رواية بعض، وتمام الكلام فى كتب السير.واستظهر هذا القول ابو حيان وذكر انه المناسب لآخر السورة التى قبل لما قال سبحانه:(ها انتم هؤلاء تدعون) الآية فبين جل وعلا انه فتح لهم مكة وغنموا وحصل لهم اضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم الا على انفسهم، وأيضاً لما قال سبحانه:(وأنتم الاعلون والله معكم) بين تعالى برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلين،وأيضاً لما قال تعالى: (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم) كان ذلك فى فتح مكة ظاهرا حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا الى الصلح بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين وهذا ظاهر بالنسبة الى القول بأن المراد به فتح الحديبية،وأما على القول بأن المراد به فتح خيبر فليس كذلك،ورجح بعضهم القول بأنه صلح الحديبية على القول بأنه فتح مكة بأن وعد فتح مكة يجىء صريحا فى هذه السورة الكريمة وذلك قوله تعالى:(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين) الآية فلو حمل هذا الفتح عليه لكان تأكيداً بخلاف ما اذا حمل على صلح الحديبية فانه يكون تأسيسا والتأسيس خير من التأكيد، ورجحه بعض على القول بأنه فتح خيبر بمثل هذا لأن فتح خيبر مذكور فيما بعد أيضاً ، وللبحث فى ذلك مجال، وان والتكرير لما تقدم،وكذا الاسناد الى ضمير العظمة بل هذا الفتح أولى

بالاعتناء وتعظيم الشأن حتى قيل: ان اسناده اليه تعالى لكونه من الامور الغريبة العجيبة التى يخلقها الله تعالى على يد انبيائه عليهم السلام كالرمى بالحصى المشار اليه بقوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وهذا خلاف ظاهر، والمشهور أن فى الكلام مجازاً عقليا وفيه الاحتمالات السابقة *

وقال بعض المحققين: يمكن أن يقال: لعل الارادة ههنا معتبرة اما على سبيل الحذف أو على المجاز المرسل كما فى قوله تعالى: (إذا قمتم الى الصلاة) الآية، وقوله تعالى: (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) عند أكثر الأئمة، ومثل هذا التأويل قيل: مطرد فى الافعال الاختيارية، وزعم بعضهم أن الفتح مجاز عن تيسيره، وذكر بعض الصدور فى توجيه التأكيد بان ههنا أنه قد يجعل غير السائل بمنزلة السائل إذا قدم اليه مايلوح له بالخبر، وصرحوا بأن الملوح لا يلزم أن يكون كلاما، وقد ذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أنه عليه الصلاة والسلام رأى فى المنام أنه وأصحابه رضى الله تعالى عنهم دخلوا مكة آمنين فصار المقام مقام أن يتردد فى الفتح فالقى اليه عليه الصلاة والسلام الكلام مؤكداً كما يلقى إلى السائل كذلك، وجوز أن يكون لرد الانكار بناء على تحققه من المشركين فانهم كانوا يزعمون أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يستولى على مكة كما لم يستول عليها من أراد الاستيلاء عليها قبله عليه الصلاة والسلام وهو كما ترى، وذكر بعض أجلة القائلين بأن المراد به فتح مكة أن الكلام وعد بفتحها فقيل إن الجملة حينئذ اخبار، وقيل: إنها انشاء، واستشكل بما صرح به الرضى من أن الجمل الانشائية منحصرة بالاستقراء فى الطلبية والايقاعية والوعد ليس شيئاً منهما أما الاول فظاهر، وأما الثانى فلأن مجرد قولك لأكرمنك مثلا لا يقع به الاكرام، وقال بعض الصدور أن كلامهم مضطرب فى كون الوعد انشاء أو اخبارا، ويمكن التوفيق بأن يقال: أصل الوعد انشاء لأنه اظهار أمر فى النفس يوجب سرور المخاطب وما يتعلق به الوعد وهو الموعود اخبار نظيره قول النحاة كأن لانشاء التشبيه مع أن مدخولها جملة خبرية *

وقال الخفاجى: هذا ناشىء من عدم فهم المراد منه، فان قيل: المراد من لأكرمنك مثلا اكرام فى المستقبل فهو خبر بلا مرية، وإن قيل: معناه العزم على اكرامه وتعجيل المسرة له باعلامه فهو انشاء، وأقول لا يخفى أن الاخبار أصل للانشاء، وقد صرح بذلك العلامة التفتازانى فى المطول وليست هيئة المركب دالة على أنه انشاء وليس فيه مايدل بمادته على ذلك فيمكن أن يقال: انه اخبار قصد به تعجيل المسرة وإن ذلك لا يخرجه عن الاخبار نظير ماقيل فى قوله تعالى: (رب إنى وضعتها أنثى) ونحوه فتدبر، والتعبير عن ذلك بالماضى لتحققه، وفيه من تسلية قلوب الاصحاب وتسليتهم حيث صاروا محزونين غاية الحزن من تأخير الفتح مافيه، وهذا التعبير من قبيل الاستعارة التبعية على ماحققه السيد السند فى حواشى المطول حيث قال: اعلم أن التعبير عن المضارع بالماضى وعكسه يعد من باب الاستعارة بأن يشبه غير الحاصل بالحاصل فى تحقق الوقوع ويشبه الماضى بالحاضر فى كونه نصب العين واجب المشاهدة ثم يستعار لفظ أحدهما للآخر فعلى هذا تكون استعارة الفعل على قسمين. أحدهما أن يشبه الضرب الشديد مثلا بالقتل ويستعار له اسمه ثم يشتق منه قتل بمعنى ضرب ضربا شديداً. والثانى أن يشبه الضرب المستقبل بالضرب فى الماضى مثلا فى تحقق الوقوع فيستعمل فيه ضرب فيكون المعنى المصدرى أعنى الضرب موجودا فى كل واحد من المشبه والمشبه به لكنه قيد فى كل منهما بقيد يغاير الآخر فصح التشبيه لذلك *

وقال المحقق ميرزاجان يمكن توجيه الاستعارة ههنا بوجه آخر وهو أن يشبه الزمان المستقبل بالزمان الماضى ووجه الشبه أنه كما أن الثانى ظرف أمر محقق الوقوع كذلك الزمان الاول واللفظ الدال على الزمان الثانى وهو لفظ

الفعل الماضى من جهة الصيغة جعل دالا على الزمان المستقبل مستعملا فيه، ومن البين أن المصدر على حاله لم يتغير معناه فكانت الاستعارة فى الصيغة والهيئة أولى لأنها الدلة على الزمان الماضى وبواسطتها كانت الاستعارة فى الفعل كما كانت الاستعارة فى الفعل بواسطة المصدر، والفرق أن هذه الاستعارة فى الفعل بواسطة جوهره ومادته وفيما نحن فيه بواسطة صورته، لا يقال: الدال على الزمان هو نفس اللفظ المشتق لا جزؤه لأنا نقول: يجرى هذا الاحتمال فى الاستعارة التبعية المشهورة بأن يقال: الدال على المعنى الحدثى هو نفس اللفظ المشتق لا جزؤه لأن المصدر بصيغته غير متحقق فى المشتق فان الضرب غير موجود فى ضارب وضرب *

فان قلت: المصدر لفظ مستقل يمكن التعبير به عن معناه بخلاف الهيئة قلت: لفظ الزمان الماضى أيضاً كذلك فلا فرق ولو سلم نقول فى كل منهما: نستعير المعنى المطابقى للفظ الفعل بواسطة المعنى التضمنى له، ولا يبعد أن يسمى مثل هذا استعارة تبعية، والامر فى التسمية هين لا اعتداد بشأنه، ولعلهم إنما جعلوا الاستعارة فى مثل ذلك بواسطة المصدر واعتبروا التغاير الاعتبارى ولم يعتبروا ما اعتبرنا من تشبيه نفس الزمان بالزمان حتى تصير الاستعارة فى الفعل تبعية بلا تكلف رعاية لطى النشر بقدر الامكان وأيضا فى كون الصيغة والهيئة جزأ للفظ تأمل، وأيضا الهيئة ليست جزأ مستقلا كالمصدر، وأيضا الهيئة ليست لفظا والاستعارة قسم للفظ، ولعل القوم لهذه كلها أو بعضها لم يلتفتوا اليه انتهى، وفيه بحث، وللفاضل ميرصدر الدين رسالة فى هذه الآية الكريمة تعرض فيها للمحقق فى هذا المقام، وتعقبها الفاضل يوسف القرباغى برسالة أطال الكلام فيها وجرح وعدل وذكر عدة احتمالات فى الاستعارة التبعية، ومال الى أن الهيئة لفظ محتجاً بما نقله من شرح المختصر العضدى ومن شرح الشرح للعلامة التفتازانى وأيده بنقول أخر فليراجع ذلك فانه وإن كان فى بعضه نظر لا يخلو عن فائدة *

والذى يترجح عندى أن الهيئة ليست بلفظ لكنها فى حكمه وأنه قد يتصرف فيها بالتجوز كما فى الخبر اذا استعمل فى الانشاء وان المجاز المرسل يكون تبعيا بناء على ماذكروه فى وجه التبعية فى الاستعارة، وقول الصدر فى الفرق: ان العلاقة فى الاستعارة ملحوظة حين الاطلاق فانهم صرحوا بأن اسم المشبه به لا يطلق على المشبه إلا بعد دخوله فى جنس المشبه به بخلاف المرسل فان العلاقة باعثة للانتقال وليست ملحوظة حين الاستعمال فلا ضرورة فى القول بالتبعية فيه ان تم لا يجدى نفعا فافهم، وزعم بعضهم أن التعبير بالماضى ههنا على حقيقته بناء على أن الفتح مجاز عن تيسيره وتسهيله وهو مما لا يتوقف على حصول الفتح ووقوعه ليكون مستقبلا بالنسبة الى زمن النزول مثله ألا ترى أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه تعالى بقوله: (يسرلى أمرى) ان يسهل أمره وهو خلافته فى أرضه ومايصحبها، وأجيب اليه فى موقف السؤال بقوله تعالى: (قد أوتيت سؤلك ياموسى) ولم يباشر بعد شيئا، وحمله على الوعد بإيتاء السؤال خلاف الظاهر، وأنت تعلم أن ماذهب اليه الجمهور أظهر وأبلغ، وفى مجئ المستقبل بصيغة الماضى لتنزيله منزلة المحقق من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر مالا يخفى كما فى الكشاف، وذلك على ماقيل لأنه يدل على أن الازمنة كلها عنده تعالى على السواء وان منتظره كمحقق غيره وأنه سبحانه إذا أراد أمرا تحقق لا محالة وأنه لجلالة شأنه إذا أخبر عن حادث فهو كالكائن لما عنده من أسبابه القريبة والبعيدة، وقيل غير ذلك. واستشكل أمر المضى فى كلامه تعالى بناء على ثبوت الكلام النفسى الازلى للزوم الكذب لأن صدق الكلام يستدعى سبق وقوع النسبة ولا يتصور السبق على الازل، وأجيب بأن كلامه تعالى النفسى الازلى لا يتصف بالماضى وغيره لعدم الزمان. وتعقب بأن تحقق

هذا مع القول بأن الازلى مدلول اللفظى عسير جدا ، وكذا القول بأن المتصف بالمضى وغيره إنما هو اللفظ الحادث دون المعنى القديم . وأجاب بعضهم بأن العسر لوكان دلالة اللفظى عليه دلالة الموضوع على الموضوع له وليس كذلك عندهم بل هى دلالة الاثر على المؤثر ، ولا يلزم من اعتبار شىء فى الاثر اعتباره فى المؤثر ، ولايخفى أن كون الدلالة دلالة الاثر على المؤثر خلاف الظاهر ، وقال ابن الصدر فى ذلك : إن اشتمال الكلام اللفظى على المضى والحضور والاستقبال إنما هو بالنظر إلى زمان المخاطب لا إلى زمان المتكلم كما إذا أرسلت زيداً إلى عمرو تكتب فى مكتوبك اليه إنى أرسلت اليك زيداً مع أنه حين ماتكتبه لم يتحقق الارسال فتلاحظ حال المخاطب ، وكما تقدر فى نفسك مخاطباً وتقول : لم تفعل الآن كذا وكان قبل ذلك كذا ، ولاشك أن هذا المضى والحضور والاستقبال بالنسبة إلى زمان الوجود المقدر لهذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان المتكلم بالكلام النفسى لكونه متوجها لمخاطب مقدر لا يلاحظ فيه الأزمنة المخاطبين المقدرين ، وما اعتبره أئمة العربية من حكاية الحال الماضية واعتبار المضى والحضور والاستقبال فى الجملة الحالية بالقياس إلى زمان الفعل لا زمان التكلم قريب منه جدا انتهى ، وللمحقق ميرزاجان كلام فى هذا المقام يطلب من حواشيه على الشرح العضدى *

وقيل: المراد بالفتح فتح الروم على اضافة المصدر إلى الفاعل فانهم غلبوا على الفرس فى عام النزول، وكونه فتحا له عليه الصلاة والسلام لأنه أخبر عن الغيب فتحقق ماأخبر به فى ذلك العام ولأنه تفاءل به لغلبة أهل الكتاب المؤمنين وفى ذلك من ظهور أمره صلى الله تعالى عليه وسلم ماهو بمنزلة الفتح ، قيل : فى الفتح استعارة لتشبيه ظهوره صلى الله تعالى عليه وسلم بالفتح ، وقيل : لاتجوز فيه وإنما التجوز فى تعلقه به عليه الصلاة والسلام ، وقيل : لاتجوز أصلا والمعنى فتحنا على الروم لأجلك . وأنت تعلم ان حمل الفتح على ماذكره فى نفسه بعيد جدا *

وأورد عليه أن فتح الروم لم يكن مسببا على الجهاد ونحوه فلا يصح ماذكروه فى توجيه التعليل الآتى ، وعن قتادة ان (فتحنا) من الفتاحة بالضم وهى الحكومة أى اناقضينا لك على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت وهو بعيد أيضا ، وقيل : المراد به فتح الله تعالى له صلى الله تعالى عليه وسلم بالاسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ؛ وقريب منه مانقله الراغب من أنه فتحه عز وجل له عليه الصلاة والسلام بالعلوم والهدايات التى هى ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة ، وأمره فى البعد كما سبق ، وأياما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل والايذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لاخصوصية المفتوح ، وتقديم (لك) على المفعول المطلق أعنى قوله تعالى : ﴿ فَتْحًا مُبِينًا ١ ﴾ مع أن الاصل تقديمه على سائر المفاعيل كما صرح به العلامة التفتازانى للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام ، وقيل : لأنه مدار الفائدة ، و(مبين) من أبان بمعنى بان اللازم أى فتحا بينا ظاهر الامر مكشوف الحال أوفارقا بين الحق والباطل *

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ﴾ مذهب الاشاعرة القائلين بان أفعاله تعالى لاتعلل بالاغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة أولتشبيه مدخولها بالعلة الغائية فى ترتبه على متعلقها وترتب المغفرة على الفتح من حيث أن فيه سعيا منه ﷺ فى اعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب ؛ والسلف كما قال ابن القيم وغيره يقولون بتعليل أفعاله عز وجل ، وفى شرح المقاصد للعلامة التفتازانى أن من بعض أدلتهم ـ أى الاشاعرة ـ ومن وافقهم على هذا المطلب يفهم أنهم أرادوا عموم السلب ومن بعضها أنهم أرادوا سلب العموم ، ثم قال : الحق أن بعض

أفعاله تعالى معلل بالحكم والمصالح وذلك ظاهر والنصوص شاهدة به ، وأما تعميم ذلك بأنه لايخلو فعل من أفعاله سبحانه من غرض فحل بحث ، وذكر الاصفهانى فى شرح الطوالع فى هذه المسئلة خلافا للمعتزلة وأكثر الفقهاء ، وأنا أقول : بماذهب اليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث والتزام تأويل جميعها خروج عن الانصاف ، ومايذكره الحاضرون من الادلة يدفع بأدنى تأمل كما لايخفى على من طالع كتب السلفيين عليهم الرحمة . وفى الكشاف لم يجعل الفتح علة للمغفرة لكن لاجتماع ماعدد من الامور الاربعة وهى المغفرة واتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين واغراض العاجل والآجل ، وحاصله كما قال العلامة ان الفتح لم يجعل علة لكل من المتعاطفات بعد اللام أعنى المغفرة واتمام النعمة والهداية والنصر بل لاجتماعها، ويكفى فى ذلك أن يكون له دخل فى حصول البعض كاتمام النعمة والنصر العزيز ، وتحقيقه كما قال ان العطف على المجرور باللام قد يكون للاشتراك فى متعلق اللام مثل جئتك لأفوز بلقياك وأحوز عطاياك و يكون بمنزلة تكرير اللام وعطف جار ومجرور على جار ومجرور ، وقد يكون للاشتراك فى معنى اللام كجئتك لتستقر فى مقامك وتفيض على من انعامك أى لاجتماع الامرين ، ويكون من قبيل جاءنى غلام زيد وعمرو أى الغلام الذى لهما . واستظهر دفعا لتوهم أنه إذا كان المقصود البعض فذكر الباقى لغو أن يقال : لايخلو كل منهما أن يكون مقصودا بالذات وهو ظاهر أو المقصود البعض وحينئذ فذكر غيره إما لتوقفه عليه أو لشدة ارتباطه به أو ترتبه عليه فيذكر للاشعار بأنهما كشئ واحد كقوله تعالى : (أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى) وقولك : أعددت الخشب ليميل الحائط فادعمه ولازمت غريمى لأستوفى حقى وأخليه . وظاهر كلام الزمخشرى أن المقصود فيما نحن فيه تعليل الهيئة الاجتماعية فحسب فتأمل لتعرف أنه من أى الاقسام هو . واعلم أن المشهور كون العلة مادخلته اللام لاما تعلقت به كما هو ظاهر عبارة الكشاف، لكن حقق أنها إذا دخلت على الغاية صح أن يقال : ان مابعدها علة ويراد بحسب التعقل وأن يقال : ماتعلقت به علة ويراد بحسب الوجود فلا تغفل . وزعم صاحب الغنيان أن اللام ههنا هى لام القسم وكسرت وحذف النون من الفعل تشبيها بلام كى . ورد بأن لام القسم لاتكسر ولاينصب بها فانه لم يسمع والله ليقوم زيد على معنى ليقومن زيد، وانتصر له بأن الكسر قدعلل بتشبيهها بلام كى ٭

وأما النصب فله أن يقول فيه : بأنه ليس نصبا وإنما هو الحركة التى تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف . وأنت تعلم أنه لايجدى نفعا مع عدم السماع ، هذا والالتفات إلى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات قيل : الاشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه عز وجل من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته جل شانه ٭

وقال الصدر لا يبعد أن يقال : ان التعبير عنه تعالى فى مقام المغفرة بالاسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على عذابه . وفى البحر لما كان الغفران وما بعده يشترك فى إطلاقه الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله سبحانه :(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وقوله تعالى : (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وقوله عز وجل : (يهدى من يشاء) وقوله تبارك وتعالى : (انهم لهم المنصورون) وكان الفتح مختصا بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أسنده الله تعالى الى نون العظمة تفخيما لشأنه وأسند تلك الاشياء الى الاسم الظاهر وضميره

وهو كما ترى وإن قاله الامام أيضا، واقول: يمكن أن يكون فى إسناد المغفرة اليه تعالى بالاسم الاعظم بعد أسناد الفتح اليه تعالى بنون العظمة ايماء الى ان المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط، وقد صرح بعضهم بأن عادة العظماء ان يعبروا عن انفسهم بصيغة المتكلم مع الغير لأن ما يصدر عنهم فى الاكثر باستخدام توابعهم، ولا يعترض بان النصر كالفتح وقد أسند الى الاسم الجليل لما لايخفى عليك، وتقديم (لك) على المفعول الصريح أعنى قوله تعالى: ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ لما مر غير مرة، و (ما) للعموم والمتقدم والمتأخر للاحاطة كناية عن الكل، والمراد بالذنب مافرط من خلاف الاولى بالنسبة الى مقامه عليه الصلاة والسلام فهو من قبيل حسنات الابرار سيآت المقربين، وقد يقال: المراد ماهو ذنب فى نظره العالى صلى الله تعالى عليه وسلم وان لم يكن ذنبا ولا خلاف الاولى عنده تعالى كما يرمز الى ذلك الاضافة.

وقال الصدر: يمكن أن يكون قوله تعالى: (ليغفر) الخ كناية عن عدم المؤاخذة أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقق معانى المفردات. واخرج ابن المنذر عن عامر. وأبى جعفر انهما قالا: ماتقدم فى الجاهلية وما تأخر فى الاسلام، وقيل ماتقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد وليس بشيء مع ان العكس أولى لأن حديث امرأة زيد متقدم. وفى الآية مع ماعهد من حاله صلى الله تعالى عليه وسلم من كثرة العبادة مايدل على شرف مقامه الى حيث لا تحيط به عبارة، وقد صح انه صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالى فقيل له: اتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبدا شكورا ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ باعلاء الدين وانتشاره فى البلاد وغير ذلك مما أفاضه تعالى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢ ﴾ فى تبليغ الرسالة واقامة الحدود، قيل: ان اصل الاستقامة وإن كان حاصلا قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبل الحق واستقامة مناهجه مالم يكن حاصلا قبل ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ ﴾ اظهار الاسم الجليل مع النصر قيل: لكونه خاتمة العلل أو الغايات ولاظهار كمال العناية بشانه كما يعرب عنه اردافه بقوله تعالى: ﴿ نَصْرًا عَزِيزًا ٣ ﴾ وقال الصدر: أظهر الاسم فى الصدر وهنا لأن المغفرة تتعلق بالآخرة والنصر يتعلق بالدنيا فكأنه أشير باسناد المغفرة والنصر الى صريح اسمه تعالى الى ان الله عز وجل هو الذى يتولى امرك فى الدنيا والآخرة، وقال الامام: أظهرت الجلالة هنا اشارة الى أن النصر لايكون الا من عند الله تعالى كما قال تعالى: (وما النصر الا من عند الله) وذلك لأن النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى: (وماصبرك إلا بالله) لأنه سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) والعزيز بحسب الظاهر هو المنصور، وحيث وصف به النصر فهو اما للنسبة وإن كان المعروف فيها فاعلا كلابن وفعالا كبزاز أى نصرا فيه عز ومنعة، أو فيه تجوز فى الاسناد من باب وصف المصدر بصيغة المفعول وهو المنصور هنا نحو (عذاب اليم) فى قول لا الفاعل وهو الناصر لما قيل من عدم مناسبته للمقام وقلة فائدته اذ الكلام فى شأن المخاطب المنصور، لا المتكلم الناصر وفيه شيء، وقيل: الكلام بتقدير مضاف أى عزيز صاحبه وهو المنصور وفيه تكلف الحذف والايصال.

وقد يقال: يحتاج إلى شيء مما ذكر إذ لا مانع من وصف النصر بالعزيز على ماهو الظاهر بناء على أحد معانى العزة

وهو قلة الوجود وصعوبة المنال ، والمعنى ينصرك الله نصرا يقل وجود مثله ويصعب مناله ، وقد قال الراغب بهذا فى قوله تعالى: (وإنه لكتاب عزيز) ورأيت ذلك للصدر بعد أن كتبته من الصدر فتأمل ولا تكن ذا عجز ٭

﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لما أفاض سبحانه عليهم من مبادى الفتح ، والمراد بالسكينة الطمأنينة والثبات من السكون أى أنزلها فى قلوبهم بسبب الصلح والامن إظهارا لفضله تعالى عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف، والمراد بانزالها خلقها و إيجادها، وفى التعبير عن ذلك بالانزال إيماء إلى علو شأنها٭

وقال الراغب : انزال الله تعالى نعمته على عبد اعطاؤه تعالى إياها وذلك اما بانزال الشئ نفسه كانزال القرآن أو بانزال أسبابه والهداية اليه كانزال الحديد ونحوه ، وقيل : (أنزل) من نزل فى مكان كذا حط رحله فيه وأنزله غيره ، فالمعنى حط السكينة فى قلوبهم فكان قلوبهم منزلا لها ومأوى ، وقيل: السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه كما روى أن عليا رضى الله تعالى عنه و كرم وجهه قال : إن السكينة لتنطق على لسان عمر، وأمر الانزال عليه ظاهر جدا ٭

وأخرج ابن جرير . والبيهقى فى الدلائل . وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : السكينة هى الرحمة، وقيل: هى العقل ويقال له سكينة إذا سكن عن الميل إلى الشهوات وعن الرعب ، وقيل : هى الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : هى من سكن إلى كذا مال اليه أى أنزل فى قلوبهم السكون والميل إلى ماجاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من الشرائع، وأرجح التفاسير هنا على ماقال الخفاجى : الأول، وماذكره بعضهم من أن السكينة شئ له رأس كرأس الهرة فما أراه قولا يصح ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى يقينا مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها على أن الايمان لما ثبت فى الأزمنة نزل تجدد أزمانه منزلة تجدده وازدياده فاستعير له ذلك ورشح بكلمة مع، وقيل: ازدياد الايمان بازدياد ما يؤمن به، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن أول ما أتاهم به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ومن قال: الأعمال من الايمان قال بأنه نفسه أى الايمان المركب من ذلك وغيره يزيد وينقص ولم يحتج فى الآية إلى تأويل بل جعلها دليلا له، وتفصيل الكلام فى هذا المقام أنه ذهب جمهور الأشاعرة والقلانسى والفقهاء والمحدثون والمعتزلة إلى أن الايمان يزيد و ينقص ونقل ذلك عن الشافعى ومالك، وقال البخارى: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف فى أن الايمان قول وعمل ويزيد وينقص ، واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل، أما الأول فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الايمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين فى الفسق والمعاصى مساويا لايمان الأنبياء عليهم السلام مثلا واللازم باطل فكذا الملزوم، وأما الثانى فلكثرة النصوص فى هذا المعنى، منها الآية المذكورة، ومنها ماروى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا : يارسول الله ان الايمان يزيد وينقص قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة و ينقص حتى يدخل صاحبه النار ، ومنها ماروى عن عمر. وجابر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا «لو وزن إيمان أبى بكر بايمان هذه الأمة لرجح به » واعترض بأن عدم قبول الايمان الزيادة والنقص على تقدير كون الطاعات داخلة فى مسماه أولى وأحق من عدم قبوله ذلك اذا كان مسماه التصديق وحده ٭ أما أولا فلأنه لا مرتبة فوق كل الأعمال لتكون زيادة ولا إيمان دونه ليكون نقصا، وأما ثانيا فلأن أحدا لا يستكمل

الايمان حينئذ والزيادة على ما لم يكمل بعد محال . وأجيب بأن هذا انما يتوجه على المعتزلة والخوارج القائلين بانتفاء الايمان بانتفاء شيء من الأعمال، والجماعة انما يقولون: انها شرط كمال فى الايمان فلا يلزم عند الانتفاء الا انتفاء الكمال وهو غير قادح فى أصل الايمان *

وقال النووى وجماعة محققون من علماء الكلام : ان الايمان بمعنى التصديق القلبى يزيد وينقص أيضا بكثرة النظر ووضوح الأدلة وعدم ذلك، ولهذا كان ايمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبه، ويؤيده أن كل واحد يعلم أن مافى قلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقينا واخلاصا منه فى بعضها فكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها. واعترض بأنه متى قبل ذلك كان شكا *

ودفع بأن مراتب اليقين متفاوتة الى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين مع أنها لا شك معها وممن وافق النووى على ما جزم به السعد فى القسم الثانى من تهذيبه، وقال جماعة من العلماء أعظمهم الامام أبو حنيفة وتبعه أصحابه وكثير من المتكلمين الايمان لا يزيد ولا ينقص، واختاره امام الحرمين ، واحتجوا بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والاذعان وهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ، فالمصدق اذا ضم اليه الطاعات أو ارتكب المعاصى فتصديقه بحاله لم يتغير أصلا وإنما يتفاوت اذا كان اسما للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة. وأجابوا عما تمسك به الأولون بوجوه، منها ما أشرنا اليه أولا من أن الزيادة بحسب الدوام والثبات وكثرة الزمان والأوقات. وايضاحه ماقاله امام الحرمين: النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يفضل من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله تعالى اياه من مخامرة الشكوك والتصديق عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد أمثاله فتقع للنبى عليه الصلاة والسلام متوالية ولغيره على الفترات فثبتت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعداد من الايمان لا يثبت لغيره إلا بعضها فيكون ايمانه صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر، والزيادة بهذا المعنى قيل مما لا نزاع فيها *

واعترض بأن حصول المثل بعد انعدام الشيء لا يكون زيادة فيه كسواد الجسم، ودفع بان المراد زيادة أعداد حصلت وعدم البقاء لا ينافى ذلك ، ومنها ما أشرنا اليه ثانيا من ان المراد الزيادة بحسب زيادة ما يؤمن به، والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين آمنوا أولا بما آمنوا به وكانت الشريعة لم تتم وكانت الاحكام تنزل شيئاً فشيئاً فكانوا يؤمنون بكل ما يتجدد منها ولا شك فى تفاوت ايمان الناس بملاحظة التفاصيل كثرة وقلة ولا يختص ذلك بعصره صلى الله تعالى عليه وسلم لامكان الاطلاع على التفاصيل فى غيره من العصور أيضاً، ومنها أن المراد زيادة ثمرته واشراق نوره فى القلب فان نور الايمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى، قيل: وهذا إنما يحتاج اليه بعد اقامة قاطع على امتناع قبول التصديق الزيادة والنقص ومتى لم يقم قاطع على ذلك كان الاولى ابقاء الظواهر على حالها ، وقال الخطابى: الايمان قول وهو لا يزيد ولا ينقص وعمل وهو يزيد وينقص واعتقاد وهو يزيد ولا ينقص فاذا نقص ذهب واعترض أنه اذا زاد ثم عاد الى ماكان فقد نقص ولم يذهب *

ودفع بان مراده ان الاعتقاد باعتبار اول مراتبه يزيد ولا ينقص لا أن الاعتقاد مطلقا كذلك، وذهب جماعة منهم الامام الرازى. وامام الحرمين الى أن الخلاف لفظى وذلك بحمل قول النفى على أصل الايمان وهو التصديق فلا يزيد ولا ينقص وحمل قول الاثبات على ما به كماله وهو الاعمال فيكون الخلاف فى هذه المسألة فرع الخلاف فى تفسير الايمان، والحق أنه حقيقى لما سمعت عن الامام النووى ومن معه من ان التصديق نفسه يزيد وينقص *

وقال بعض المحققين : ان الزيادة والنقص من خواص الكم والتصديق قسم من العلم ولم يقل أحد بانه

من مقولة الكم وإنما قيل هو كيف أو انفعال أو اضافة وتعلق بين العالم والمعلوم اوصفة ذات اضافة به والاشهر أنه كيف فمتى صح ذلك وقلنا بمغايرة الشدة والضعف للزيادة والنقص فلا بأس بحملهما فى النصوص وغيرها على الشدة والضعف وذلك مجاز مشهور، وانكار اتصاف الايمان بهما يكاد يلحق بالمكابرة فتأمل، وذكر بعضهم هنا أن الايمان الذى هو مدخول مع هو الايمان الفطرى والايمان المذكور قبله الايمان الاستدلالى فكأنه قيل: ليزدادوا إيمانا استدلاليا مع إيمانهم الفطرى، وفيه من الخفاء مافيه ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يدبر أمرها كيفما يريد فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع سبحانه بينها السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، ومن قضية ذلك ماوقع فى الحديبية ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً ﴾ مبالغا فى العلم بجميع الامور ﴿ حَكِيماً ٤ ﴾ فى تقديره وتدبيره عز وجل *

وقوله سبحانه ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ متعلق بما يدل عليه ماذكر من كون جنود السموات والارض له جل شانه من معنى التصرف والتدبير، وقد صرح بعض الافاضل بانه كناية عنه أى دبر سبحانه ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله تعالى فى ذلك ويشكروها فيدخلهم الجنة فالعلة فى الحقيقة معرفة النعمة وشكرها لكنها لما كانت سببا لدخول الجنة أقيم المسبب مقام السبب * وقيل: متعلق بفتحنا، وقيل: بانزل، وتعلقه بذلك مع تعلق اللام الاخرى به مبنى على تعلق الاول به مطلقا والثانى مقيداً وتنزيل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين والا فلا يتعلق بعامل واحد حرفا جر بمعنى واحد من غير اتباع، وقيل: متعلق بينصرك، وقيل: بيزداد، وقيل: بجميع ماذكر إما على التنازع والتقدير أو بتقدير مايشمل ذلك كفعل سبحانه ما ذكر ليدخل الخ، وقيل: هو بدل من ليزداد بدل اشتمال فان ادخال المؤمنين والمؤمنات الجنة وكذا ما عطف عليه مستلزم لزيادة الايمان وبدل الاشتمال يعتمد على ملابسة مابين المبدل والمبدل منه بحيث يشعر أحدهما بالآخر غير الكلية والبعضية، ولعل الاظهر الوجه الاول، وضم المؤمنات ههنا الى المؤمنين دفعا لتوهم اختصاص الحكم بالذكور لأجل الجهاد والفتح على ايديهم، وكذا فى كل موضع يوهم الاختصاص يصرح بذكر النساء، ويقال نحو ذلك فيما بعد كذا قيل. واخرج ابن جرير وجماعة عن أنس قال: «أنزلت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تاخر فى مرجعه من الحديبية فقال: لقد أنزلت على آية هى أحب الى مما على الارض ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئا مريئا يارسول الله قد بين الله تعالى لك ماذا يفعل بك فماذا يفعل بنا فنزلت ليدخل المؤمنين والمؤمنات حتى بلغ فوزاً عظيما» *

﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى يغطيها ولا يظهرها، والمراد يمحوها سبحانه ولا يؤاخذهم بها، وتقديم الادخال فى الذكر على التكفير مع ان الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة الى بيان ما هو المطلوب إلا على كذا قال غير واحد، ويجوز عندى أن يكون التكفير فى الجنة على أن المعنى يدخلهم الجنة ويغطى سيآتهم ويسترها عنهم فلا تمر لهم ببال ولا يذكرونها أصلا لئلا يخجلوا فيتكدر صفو عيشهم، وقد مر مثل ذلك *

﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ أى ماذكر من الادخال والتكفير ﴿ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ٥ ﴾ لا يقادر قدره لأنه منتهى ماتمتد اليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر، و(عند الله) حال من (فوزا) لأن صفة النكرة اذا قدمت عليها

أعربت حالا، وكونه يجوز فيه الحالية إذا تأخر عن (عظيما) لاضير فيه كما توهم أى كائنا عند الله تعالى أى فى علمه سبحانه وقضائه جل شأنه ، والجملة اعتراض مقرر لما قبله، وقوله تعالى :

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ عطف على يدخل أى وليعذب المنافقين الخ لغيظهم من ذلك، وهو ظاهر على جميع الاوجه السابقة فى (ليدخل) حتى وجه البدلية فان بدل الاشتمال تصححه الملابسة كما مر، وازدياد الايمان على ماذكرنا فى تفسيره مما يغيظهم بلا ريب ، وقيل : انه على هذا الوجه يكون عطفا على المبدل منه، وتقديم المنافقين على المشركين لأنهم أكثر ضررا على المسلمين فكان فى تقديم تعذيبهم تعجيل المسرة *

﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أى ظن الامر الفاسد المذموم وهو أنه عز وجل لا ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين ، وقيل : المراد به مايعم ذلك وسائر ظنونهم الفاسدة من الشرك أوغيره ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أى مايظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دائرة السوء) بالضم، والفرق بينه وبين (السوء) بالفتح على مافى الصحاح أن المفتوح مصدر والمضموم اسم مصدر بمعنى المساءة *

وقال غير واحد: هما لغتان بمعنى كالكره والكره عند الكسائى وكلاهما فى الاصل مصدر غير ان المفتوح غلب فى أن يضاف اليه مايراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر، ولما كانت الدائرة هنا محمودة وأضيفت إلى المفتوح فى قراءة الا كثر تعين على هذا أن يقال: إن ذاك على تأويل انها مذمومة بالنسبة إلى من دارت عليه من المنافقين والمشركين واستعمالها فى المكروه أكثر وهى مصدر بزنة اسم الفاعل أو اسم فاعل، واضافتها على ماقال الطيبى من اضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة ، وفى الكشف الاضافة بمعنى من على نحو دائرة ذهب فتدبر *

والكلام إما اخبار عن وقوع السوء بهم أو دعاء عليهم، وقوله تعالى: ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ عطف على ذلك ، وكان الظاهر فلعنهم فأعد بالفاء فى الموضعين لكنه عدل عنه للاشارة إلى أن كلا من الامرين مستقل فى الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٦ ﴾ جهنم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ذكر سابقا على أن المراد أنه عز وجل المدبر لامر المخلوقات بمقتضى حكمته فلذلك ذيل بقوله تعالى: (عليما حكيما) وههنا أريد به التهديد بأنهم فى قبضة قدرة المنتقم ولذا ذيل بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧ ﴾ فلا تكرار كما قال الشهاب، وقيل: إن الجنود جنود رحمة وجنود عذاب، والمراد به هنا الثانى كما ينبىء عنه التعرض لوصف العزة *

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾ أى على امتك لقوله تعالى: (ويكون الرسول عليكم شهيدا) وأخرج عبد بن حميد وابن جرير . عن قتادة شاهدا على امتك وشاهدا على الانبياء عليهم السلام أنهم قد بلغوا ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بالثواب على الطاعة ﴿ وَنَذِيرًا ٨ ﴾ بالعذاب على المعصية ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الخطاب للنبى ﷺ وأمته كقوله سبحانه: (ياأيها النبى إذا طلقتم النساء) وهو من باب التغليب غلب فيه المخاطب على الغيب فيفيد أن النبى عليه الصلاة والسلام مخاطب بالايمان برسالته كالأمة وهو كذلك ، وقال الواحدى: الخطاب فى (ارسلناك) للنبى ﷺ وفى (لتؤمنوا) لأمته فعلى هذا إن كان اللام للتعليل يكون المعلل محذوفا أى لتؤمنوا بالله وكيت وكيت فعل ذلك الارسال أو للامر على طريقة (فبذلك فلتفرحوا) على قراءة التاء الفوقانية فقيل هو على معنى قل لهم: لتؤمنوا الخ ، وقيل: هو للامة على أن خطابه ﷺ منزل منزلة خطابهم فهو عينه ادعاء، واللام متعلقة بأرسلنا، ولا يعترض

عليه بما قرره الرضى وغيره من أنه يمتنع أن يخاطب فى كلام واحد اثنان من غير عطف أو تثنية أو جمع لأنه بعد التنزيل لا تعدد، وجوز أن يكون ذلك لأنهم حينئذ غير مخاطبين فى الحقيقة فخطابهم فى حكم الغيبة، وقيل: الامتناع المذكور مشروط بأن يكون كل من المخاطبين مستقلا أما إذا كان أحدهما داخلا فى خطاب الآخر فلا امتناع كما يعلم من تتبع كلامهم، وحينئذ يجوز أن يراد خطاب الأمة أيضا من غير تغليب، والكلام فى ذلك طويل وما ذكر سابقا سالم عن القال والقيل ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ أى تنصروه كما روى عن جابر بن عبد الله مرفوعا وأخرجه جماعة عن قتادة، والضمير لله عز وجل، ونصرته سبحانه بنصرة دينه ورسوله ﷺ ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أى تعظموه كما قال قتادة وغيره، والضمير له تعالى أيضا، وقيل: كلا الضميرين للرسول ﷺ وروى عن ابن عباس، وزعم بعضهم أنه يتعين كون الضمير فى (تعزروه) للرسول عليه الصلاة والسلام لتوهم أن التعزير لا يكون له سبحانه وتعالى كما يتعين عند الكل كون الضمير فى قوله تعالى: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ لله سبحانه وتعالى، ولا يخفى أن الأولى كون الضميرين فيما تقدم لله تعالى أيضا لئلا يلزم فك الضمائر من غير ضرورة أى وتنزهوا الله تعالى أو تصلوا له سبحانه من السبحة ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٩ ﴾ غدوة وعشيا، والمراد ظاهرهما أو جميع النهار ويكنى عن جميع الشيء بطرفيه كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر، وقرأ أبو جعفر. وأبو حيوة. وابن كثير. وأبو عمرو الافعال الاربعة - أعنى لتؤمنوا وما بعده - بياء الغيبة، وعن ابن مسعود. وابن جبير كذلك إلا أنهما قرآ (ويسبحوا الله) بالاسم الجليل مكان الضمير، وقرأ الجحدرى (تعزروه) بفتح التاء الفوقية وضم الزاى مخففا، وفى رواية عنه فتح التاء وكسر الزاى مخففا وروى هذا عن جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه، وقرئ بضم التاء وكسر الزاى مخففا، وقرأ ابن عباس. ومحمد بن اليمانى (تعززوه) بزاءين من العزة أى تجعلوه عزيزا وذلك بالنسبة اليه سبحانه بجعل دينه ورسوله ﷺ كذلك. وقرئ (وتوقروه) من أوقره بمعنى وقره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ يوم الحديبية على الموت فى نصرتك كما روى عن سلمة بن الاكوع وغيره أو على أن لا يفروا من قريش كما روى عن ابن عمر. وجابر رضى الله تعالى عنهم، وسيأتى الكلام فى تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى، والمبايعة وقعت قبل نزول الآية فالتعبير بالمضارع لاستحضار الحال الماضية، وهى مفاعلة من البيع يقال: بايع السلطان مبايعة إذا ضمن بذل الطاعة له بما رضخ له، وكثيرا ما تقال على البيعة المعروفة للسلاطين ونحوهم وإن لم يكن رضخ، وما وقع للمؤمنين قيل يشير إلى ما فى قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول عليه الصلاة والسلام واطاعته اطاعة الله تعالى وامتثال أوامره سبحانه لقوله تعالى: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فبايعة الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه مشاكلة أو هو صرف مجاز، وقرئ (إنما يبايعون لله) أى لأجل الله تعالى ولوجهه، والمفعول محذوف أى إنما يبايعونك لله ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ استئناف مؤكد لما قبله لأنه عبارة عن المبايعة. قال فى الكشاف لما قال سبحانه: (إنما يبايعون الله) أكده على طريقة التخييل فقال تعالى: (يد الله فوق أيديهم) وأنه سبحانه منزه عن الجوارح وصفات الاجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما، وفى المفتاح أما حسن الاستعارة التخييلية فبحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت

تابعة لها كما فى قولك: فلان بين أنياب المنية ومخالبها ثم إذا انضم اليها المشاكلة كما فى (يد الله) الخ كانت أحسن وأحسن، يعنى أن فى اسم الله تعالى استعارة بالكناية تشبيها له سبحانه وتعالى بالمبايع واليد استعارة تخييلية مع ان فيها أيضا مشاكلة لذكرها مع أيدى الناس، وامتناع الاستعارة فى اسم الله تعالى إنما هو فى الاستعارة التصريحية دون المكنية لأنه لا يلزم اطلاق اسمه تعالى على غيره سبحانه، وروى الواحدى عن ابن كيسان اليد القوة أى قوة الله تعالى ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أى ثق بنصرة الله تعالى لك لا بنصرتهم وإن بايعوك ٭

وقال الزجاج: المعنى يد الله فى الوفاء فوق أيديهم أو فى الثواب فوق أيديهم فى الطاعة أو يد الله سبحانه فى المنة عليهم فى الهداية فوق أيديهم فى الطاعة، وقيل: المعنى نعمة الله تعالى عليهم بتوفيقهم لمبايعتك فوق نعمتهم وهى مبايعتهم اياك وأعظم منها، وفيه شىء من قوله تعالى: (قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) وكل ذلك تأويلات ارتكبها الخلف وأحسنها ماذكر أولا، والسلف يمرون الآية كما جاءت مع تنزيه الله عز وجل عن الجوارح وصفات الأجسام وكذلك يفعلون فى جميع المتشابهات ويقولون: إن معرفة حقيقة ذلك فرع معرفة حقيقة الذات وأنى ذلك وهيهات هيهات، وجوز أن تكون الجملة خبرا بعد خبر لإن، وكذا جوز أن تكون حالا من ضمير الفاعل فى (يبايعونك) وفى جواز ذلك مع كونها اسمية غير مقترنة بالواو كلام ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ نقض العهد ﴿ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه، وروى الزمخشرى عن جابر بن عبد الله أنه ما نكث أحد البيعة الا جد بن قيس وكان منافقا، والذى نقله الطيبى عن مسلم يدل على أن الرجل لم يبايع لانه بايع ونكث قال: سئل جابر كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشر مائة فبايعناه وعمر رضى الله تعالى عنه آخذ بيده صلوات الله تعالى وسلامه عليه تحت الشجرة وهى سمرة فبايعناه غير جد بن قيس الانصارى اختفى تحت بطن بعيره ولم يسر مع القوم، ولعل هذا هو الاوفق لظاهر قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك) الآية ٭

وقرأ زيد بن على (ينكث) بكسر الكاف ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٠ ﴾ هو الجنة وما يكون فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويقال: وفى بالعهد وأوفى به اذا تممه وأوفى لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: (أوفوا بالعقود . والموفون بعهدهم) وقرىء (بما عهد) ثلاثيا، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء كما هو الشائع وضمها حفص هنا، قيل: وجه الضم انها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضربه، ووجه الكسر رعاية الياء وكذا فى اليه وفيه وكذا فيما اذا كان قبلها كسرة نحو به ومررت بغلامه لثقل الانتقال من الكسر الى الضم، وحسن الضم فى الآية التوصل به الى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضا ابقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد وابقائه وعدم نقضه، وقد سألت كثيرا من الاجلة وأنا قريب عهد بفتح فمى للتكلم عن وجه هذا الضم هنا فلم أجب بما يسكن اليه قلبى ثم ظفرت بما سمعت والله تعالى الهادى الى ما هو خير منه، وقرأ ابن كثير . ونافع . وابن عامر . وروح . وزيد بن على (فسنؤتيه) بالنون ٭

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ قال مجاهد . وغيره ودخل كلام بعضهم فى بعض المخلفون من الاعراب هم جهينة . ومزينة . وغفار . وأشجع . والديل . وأسلم استنفرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

حين أراد المسير الى مكة عام الحديبية معتمراً ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم هو صلى الله تعالى عليه وسلم وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حربا ورأى أولئك الاعراب أنه عليه الصلاة والسلام يستقبل عددا عظيما من قريش. وثقيف. وكنانة. والقبائل المجاورين مكة وهم الاحابيش ولم يكن الايمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتخلفوا وقالوا: نذهب الى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم وقالوا: لن يرجع محمد عليه الصلاة والسلام ولا أصحابه من هذه السفرة ففضحهم الله تعالى فى هذه الآية وأعلم رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل اليهم فكان كذلك، و(المخلفون) جمع مخلف، قال الطبرسى: هو المتروك فى المكان خلف الخارجين من البلد مأخوذ من الخلف وضده المقدم، و(الاعراب) فى المشهور سكان البادية من العرب لا واحد له أى سيقول لك المتروكون الغير الخارجين معك معتذرين اليك ﴿ شَغَلَتْنَا ﴾ عن الذهاب معك ﴿ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بحفظ ذلك ويحميه عن الضياع، ولعل ذكر الاهل بعد الاموال من باب الترقى لأن حفظ الاهل عند ذوى الغيرة أهم من حفظ الأموال *

وقرأ ابراهيم بن نوح بن بازان (شغلتنا) بتشديد الغين المعجمة للتكثير ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن عن تكاسل فى طاعتك بل لذلك الداعى ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أى ان كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما فى الجنان، وهو كناية عن كذبهم، فالجملة استئناف لتكذيبهم وكونها بدلا من (سيقول) غير ظاهر، والكذب راجع لما تضمنه الكلام من الخبر عن تخلفهم بأنه لضرورة داعية له وهو القيام بمصالحهم التى لا بد منها وعدم من يقوم بها لو ذهبوا معه عليه الصلاة والسلام، وكذا راجع لما تضمنه (استغفر) الانشاء من اعترافهم بأنهم مذنبون وأن دعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم لهم يفيدهم فائدة لازمة لهم، اوتسمية ذلك كذبا ليس لعدم مطابقة نسبة الاعتقاد على ما ذهب اليه النظام بل لعدم مطابقته الواقع بحسب الاعتقاد وفرق بين الامرين ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أمر له صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرد عليهم بذلك عند اعتذارهم بتلك الاباطيل، والملك امساك بقوة لأنه بمعنى الضبط وهو حفظ عن حزم، ومنه لا أملك رأس البعير وملكت العجين اذا شددت عجنته، وملكت الشىء اذا دخل تحت ضبطك دخولا تاما، واذا قلت: لا أملك كان نفيا للاستطاعة والطاقة امساكا ومنعا، فأصل المعنى هنا فمن يستطيع لكم امساك شىء من قدرة الله تعالى ان اراد بكم الخ، واللام من (لكم) إما للبيان أو من صلة الفعل لأن هذه الاستطاعة مختصة بهم ولأجلهم، و(من الله) حال من النكرة ـ أعنى شيئا ـ مقدمة، وتفسير الملك بالمنع بيان لحاصل المعنى لأنه اذا لم يستطع أحد الامساك والدفع فلا يمكنه المنع وليس ذلك لجعله مجازا عنه أو مضمنا اياه واللام زائدة كما فى (ردف لكم) و(من) متعلقة بيملك كما قيل، والمراد بالضر والنفع ما يضر وما ينفع فهما مصدران مراد بهما الحاصل بالمصدر أو مؤولان بالوصف *

وقرأ حمزة. والكسائى (ضرا) بضم الضاد وهو لغة فيه، وحاصل معنى الآية قل لهم إذ لا أحد يدفع ضره ولا نفعه تعالى فليس الشغل بالاهل والمال عذرا فلا ذاك يدفع الضر ان أراده عز وجل ولا مغافصة العدو تمنع

النفع ان أراد بكم نفعا ، وهذا كلام جامع فى الجواب فيه تعريض بغيرهم من المبطلين وبجلالة محل المحقين ثم ترقى سبحانه منه الى ما يتضمن تهديدا بقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَانَ اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى بكل ما تعملونه ﴿ خَبِيرًا ١١ ﴾ فيعلم سبحانه تخلفكم وقصدكم فيه ويجازيكم على ذلك، ثم ختم جل وعلا بمكنون ضمائرهم ومخزون ما أعد لهم عنده تعالى بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ الى قوله تعالى: (بورا) وفى الانتصاف ان فى قوله تعالى: (فمن يملك) الخ لفا ونشرا والاصل فمن يملك لكم من الله شيئا إن اراد بكم ضرا أو من يحرمكم النفع أن أراد بكم نفعا لأن من يملك يستعمل فى الضر كقوله تعالى : (فمن يملك من الله شيئا إن اراد أن يهلك المسيح . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه)، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض الحديث: «انى لا املك لكم شيئا» يخاطب عشيرته وأمثاله كثير، وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه وليس كذلك حرمان المنفعة فانه ضرر عائد عليه لا له فاذا ظهر ذلك فانما انتظمت الآية على هذا الوجه كذلك لأن القسمين يشتركان فى أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدور من خير وشر فلما تقاربا أدرجا فى عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر لأنه هو المتوقع لهؤلاء اذ الآية فى سياق التهديد والوعيد الشديد وهى نظير قوله تعالى: (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) فان العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآيتان توأمتان فى التقرير المذكور انتهى، والوجه ماذكرناه أولا فى الآية، وفى تسمية مثل هذا لفا ونشرا نظر، ثم ان الظاهر عموم الضر والنفع ، وقال شيخ الاسلام أبو السعود : المراد بالضر ما يضر من هلاك الاهل والمال وضياعهما وبالنفع ما ينفع من حفظ المال والاهل وتعميمهما يرده قوله تعالى: (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فانه اضراب عما قالوه وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه انتهى ، وهو كلام أو هى من بيت العنكبوت لأن فى التعميم افادة لما ذكر وزيادة تفيد قوة وبلاغة ، والظاهر أن كلا من الاضرابات الثلاثة مقصود، وقال شيخ الاسلام: ان قوله تعالى: (بل ظننتم) الخ بدل من (كان الله) الخ مفسر لما فيه من الابهام. وفى البحر انه بيان للعلة فى تخلفهم أى بل ظننتم ﴿ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ﴾ أى لن يرجع من ذلك السفر ﴿ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ ﴾ أى عشائرهم وذوى قرباهم ﴿ أَبَدًا ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة فحسبتم ان كنتم معهم ان يصيبكم ما يصيبهم فلأجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة . والاهلون جمع أهل وجمعه جمع السلامة على خلاف القياس لأنه ليس بعلم ولا صفة من صفات من يعقل ويجمع على اهلات بملاحظة تاء التأنيث فى مفرده تقديرا فيجمع كتمرة وتمرات ونحوه أرض وأرضات ، وقد جاء على ما فى الكشاف أهلة بالتاء ويجوز تحريك عينه أيضا فيقال : اهلات بفتح الهاء ، وكذا يجمع على اهال كليال ، وأطلق عليه الزمخشرى اسم الجمع، وقيل: وهو اطلاق منه فى الجمع الوارد على خلاف القياس والا فاسم الجمع شرطه عند النحاة أن يكون على وزن المفردات سواء كان له مفرد أم لا . وقرأ عبد الله (الى أهلهم) بغير ياء ، والآية ظاهرة فى أن (لن) ليست للتأبيد ومن زعم افادتها اياه جعل (أبدا) للتاكيد ﴿ وَزُيِّنَ ﴾ أى حسن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى الظن المفهوم من ظننتم ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ فلم تسعوا فى ازالته فتمكن فيكم فاشتغلتم بشان أنفسكم غير مبالين بالرسول صلى الله تعالى

عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل: الاشارة الى المظنون وهو عدم انقلاب الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الى اهليهم أبدا أى حسن ذلك فى قلوبكم فاحببتموه والمراد من ذلك تقريعهم ببغضهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين والمناسب للسياق ما تقدم . وقرىء (زين) بالبناء للفاعل باسناده الى الله تعالى أو إلى الشيطان ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ وهو ظنهم السابق فتعريفه للعهد الذكرى وأعيد لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو هو عام فيشمل ذلك الظن وسائر ظنونهم الفاسدة التى من جملتها الظن بعدم رسالته عليه الصلاة والسلام فان الجازم بصحتها لايحوم فكره حول ماذكر من الاستئصال فذكر ذلك للتعميم بعد التخصيص *

﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ فى علم الله تعالى الأزلى ﴿ قَوْماً بُوراً ١٢ ﴾ أى هالكين لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم مستوجبين سخطه تعالى وعقابه جل شأنه ، وقيل : أى فاسدين فى انفسكم وقلوبكم ونياتكم لاخير فيكم ، والظاهر على ما فى البحر أن بورا فى الاصل مصدر كالهلك ولذا وصف به المفرد المذكر فى قول ابن الزبعرى :

يارسول المليك إن لسانى راتق مافتقت إذ أنا بور

والمؤنث حكى أبو عبيدة امرأة بور والمثنى والمجموع ، وجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول وعائذ وعوذ وبازل وبزل ، وعلى المصدرية هو مؤول باسم الفاعل ، وجوز أن تكون كان بمعنى صار أى وصرتم بذلك الظن قوما هالكين مستوجبين السخط والعقاب والظاهر ابقاؤها على بابها والمضى باعتبار العلم كما أشرنا اليه ، وقيل : أى كنتم قبل الظن فاسدين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الخ كلام مبتدأ من جهته عز وجل غير داخل فى الكلام الملقن مقرر لبوارهم ومبين لكيفيته أى ومن لم يصدق بالله تعالى ورسوله ﷺ كدأب هؤلاء المخلفين ﴿ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ١٣ ﴾ نارا مسعورة موقدة ملتهبة وكان الظاهر لهم ـ فعدل عنه إلى ماذكر إيذانا بأن من لم يجمع بين الايمان بالله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره لمكان التعليق بالمشتق *

وتنكير سعير للتهويل لما فيه من الاشارة إلى أنها لايمكن معرفتها واكتناه كنهها ، وقيل : لأنها نار مخصوصة فالتنكير للتنويع و(من) يحتمل أن تكون موصولة وأن تكون شرطية والعائد من الخبر أو من جواب الشرط هو الظاهر القائم مقام المضمر ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فهو عز وجل المتصرف فى الكل كما يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يغفر له ﴿ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه من غير دخل لأحد فى شىء من غفرانه تعالى وتعذيبه جل وعلا وجودا وعدما ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ١٤ ﴾ مبالغا فى المغفرة لمن يشاء ولا يشاء سبحانه الا لمن تقتضى الحكمة المغفرة له ممن يؤمن به سبحانه ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وأما من عداه من الكافرين المجاهرين والمنافقين فهم بمعزل من ذلك قطعا وفى تقديم المغفرة والتذييل بكونه تعالى غفورا بصيغة المبالغة وضم رحيما اليه الدال على المبالغة أيضا دون التذييل بما يفيد كونه سبحانه معذبا مما يدل على سبق الرحمة مافيه *

وفى الحديث كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق رحمتى سبقت غضبى وهذا السبق على ما أشار اليه فى أنوار التنزيل ذاتى وذلك لأن الغفران والرحمة بحسب الذات والتعذيب بالعرض وتبعيته للقضاء والعصيان المقتضى لذلك وقد صرح غير واحد بأن الخير هو المقضى بالذات والشر بالعرض إذ لا يوجد شر جزئى الا وهو

متضمن لخير كلى ، وفصل ذلك فى شرح الهياكل ، وقال بعض الاجلة: المراد بالسبق فى الحديث كثرة الرحمة وشمولها وكذا المراد بالغلبة الواقعة فى بعض الروايات ، وذلك نظير مايقال: غلب على فلان الكرم ومن جعل الرحمة والغضب من صفات الافعال لم يشكل عليه أمر السبق ولم يحتج إلى جعله ذاتيا كما لايخفى والآية على ماقال أبو حيان لترجية أولئك المنافقين بعض الترجية إذا آمنوا حقيقة ، وقيل : لحسم أطماعهم الفارغة فى استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم، وفسر الزمخشرى (من يشاء) الأول بالتائب والثانى بالمصر ثم قال: يكفر سبحانه السيآت باجتناب الكبائر ويغفر الكبائر بالتوبة وهو اعتزال منه مخالف لظاهر الآية ، وقال الطيبي يمكن أن يقال: ان قوله تعالى: (ولله ملك السموات) الخ موقعه موقع التذييل لقوله تعالى: (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) الآية على أن يقدر له مايقابله من قوله ومن آمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للمؤمنين الجنان مثلا فلا يقيد شيء مما قيده ليؤذن بالتصرف التام والمشيئة النافذة والغفران الكامل والرحمة الشاملة فتأمل ولا تغفل ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ المذكورون من الاعراب فاللام للعهد وقوله تعالى : ﴿ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ ظرف لماقبله لاشرط لمابعده والمراد بالمغانم مغانم خيبر كما عليه عامة المفسرين ولم نقف على خلاف فى ذلك وأيد بأن السين تدل على القرب وخيبر أقرب المغانم التى انطلقوا اليها من الحديبية كما علمت فارادتها كالمتعينة ، وقد جاء فى الاخبار الصحيحة أن الله تعالى وعد أهل الحديبية أن يعوضهم من مغانم مكة خيبر إذا قفلوا موادعين لايصيبون شيئا وخص سبحانه ذلك بهم أى سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتأخذوها حسبما وعدكم الله تعالى إياها وخصكم بها طمعا فى عرض الدنيا لما أنهم يرون ضعف العدو ويتحققون النصرة ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ بأن يشاركوا فى الغنائم التى خصها سبحانه بأهل الحديبية وحاصله يريدون الشركة التى لاتحصل لهم دون نصرة الدين واعلاء كلمة الله تعالى ، والجملة استئناف لبيان مرادهم بذلك القول ، وقيل : يجوز أن تكون حالا من المخلفين وهو خلاف الظاهر ولا ينافى خبر التخصيص اعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعض مهاجرى الحبشة القادمين مع جعفر وبعض الدوسيين والاشعريين من ذلك وهم أصحاب السفينة كما فى البخارى فانه كان استنزالا للمسلمين عن بعض حقوقهم لهم أو أن بعضها فتح صلحا وما اعطاه عليه الصلاة والسلام فهو بعض مما صالح عليه وكل هذا مذكور فى السير لكن الذى صححه المحدثون أنه لاصلح فيها ﴿

وقال الكرمانى: إنما أعطاهم ﷺ برضا أصحاب الوقعة أو أعطاهم من الخمس الذى هو حقه عليه الصلاة والسلام، وميل البخارى إلى الثانى وحمل كلام الله تعالى على وعده بتلك الغنائم لهم خاصة هو الذى عليه مجاهد . وقتادة وعامة المفسرين ، وقال ابن زيد: كلام الله قوله سبحانه وتعالى: (قل لن تخرجوا معى أبدا) ووافقه الجبائى على ذلك وشنع عليهما غير واحد بأن ذلك نازل فى المخلفين فى غزوة تبوك من المنافقين وكانت تلك الغزوة يوم الخميس فى رجب سنة تسع بلا خلاف كما قال القسطلانى والحديبية فى سنة ست كما قاله ابن الجوزى. وغيره وهذه إنما نزلت بعيد الانصراف من الحديبية كما علمت وأيضا قال فى البحر : قد غزت مزينة وجهينة من هؤلاء المخلفين بعد هذه المدة معه عليه الصلاة والسلام وفضلهم صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك على تميم . وغطفان. وغيرهم من العرب، وفى الكشف لعل القائل بذلك أراد أن هؤلاء المخلفين لما كانوا منافقين مثل المخلفين عن تبوك كان

حكم الله تعالى فيهم واحداً ، ألا ترى أن المعنى الموجب مشترك وهو رضاهم بالقعود أول مرة ، فكلام الله تعالى أريد به حكمه السابق وهو أن المنافق لا يستصحب فى الغزو ، ولم يرد أن هذا الحكم منقاس على ذلك الاصل أو الآية نازلة فيهم أيضا فهذا ما يمكن فى تصحيحه انتهى ، ويقال عما فى البحر: إن الذين غزوا بعد لم يغزوا حتى أخلصوا ولم يبقوا منافقين والله تعالى أعلم . وقرأ حمزة . والكسائى (كلم الله) وهو اسم جنس جمعى واحده كلمة ﴿ قُل ﴾ اقناطا لهم ﴿ لَن تَتَّبِعُونَا ﴾ أى لا تتبعونا فانه نفى فى معنى النهى للمبالغة ، والمراد نهيهم عن الاتباع فيما أرادوا الاتباع فيه فى قولهم : (ذرونا نتبعكم) وهو الانطلاق إلى خيبر كما نقل عن محيى السنة عليه الرحمة ، وقيل : المراد ولا تتبعونا مادمتم مرضى القلوب ، وعن مجاهد كان الموعد أى الموعد الذى تغييره تبديل كلام الله تعالى وهو موعده سبحانه لأهل الحديبية أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ الامتطوعين لا نصيب لهم فى المغنم فكأنه قيل : لن تتبعونا الامتطوعين ، وقيل : المراد التأبيد ، وظاهر السياق الاول ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبل أن تهيأتم للخروج معنا وذلك عند الانصراف من الحديبية ﴿ فَسَيَقُولُونَ ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهى ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نشارككم فى الغنائم ، وهو اضراب عن كونه بحكم الله تعالى أى بل إنما ذلك من عند أنفسكم حسدا . وقرأ أبو حيوة (تحسدوننا) بكسر السين ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يفهمون ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ١٥ ﴾ أى الافهما قليلا وهو فهمهم لأمور الدنيا ، وهو رد لقولهم الباطل فى المؤمنين ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم وهو الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين ، وفيه اشارة إلى ردهم حكم الله تعالى واثباتهم الحسد لأولئك السادة من الجهل وقلة التفكر ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة فى الذم واشعارا بشناعة التخلف ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوى نجدة وشدة قوية فى الحرب ، وهم على ما أخرج ابن المنذر . والطبرانى عن الزهرى بنو حنيفة مسيلمة وقومه أهل اليمامة ، وعليه جماعة ، وفى رواية عنه زيادة أهل الردة وروى ذلك عن الكلبى ، وعن رافع بن خديج إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضى الله تعالى عنه إلى قتال بنى حنيفة فعلمنا أنهم أريدوا بها ، وعن عطاء بن أبى رباح . ومجاهد فى رواية . وعطاء الخراسانى . وابن أبى ليلى هم الفرس ، وأخرجه ابن جرير . والبيهقى فى الدلائل . وغيرهما عن ابن عباس ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال فى الآية : دعا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لقتال فارس أعراب المدينة جهينة . ومزينة الذين كان النبى ﷺ دعاهم للخروج إلى مكة ، وقال عكرمة . وابن جبير . وقتادة : هم هوازن ومن حارب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى حنين ؛ وفى رواية ابن جرير . وعبد بن حميد عن قتادة التصريح بثقيف مع هوازن ، وفى رواية الفريابى . وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هم هوازن وبنو حنيفة ، وقال كعب: هم الروم الذى خرج اليهم صلى الله تعالى عليه وسلم عام تبوك والذين بعث اليهم فى غزوة موتة ، وأخرج سعيد ابن منصور . وابن جرير . وابن المنذر عن الحسن قال : هم فارس والروم ، وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : البارز يعنى الاكراد كما فى الدر المنثور ، وأخرج ابن المنذر . والطبرانى فى الكبير عن مجاهد قال : اعراب فارس واكراد العجم ، وظاهر العطف أن اكراد العجم ليسوا من اعراب فارس، وظاهر اضافة اكراد إلى العجم يشعر بأن من الاكراد ما يقال لهم اكراد العرب ، ولا نعرف هذا التقسيم وإنما نعرف جيلا من الناس يقال لهم

أكراد من غير إضافة إلى عرب أو عجم ، وللعلماء اختلاف فى كونهم فى الاصل عربا أوغيرهم فقيل : ليسوا من العرب ، وقيل منهم ، قال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان فى ترجمة المهلب بن أبى صفرة مانصه : حكى أبو عمر بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب فى كتابة القصد والامم فى انساب العرب والعجم أن الاكراد من نسل عمرو مزيقيا بن عامر بن ماء السماء (١) وأنهم وقعوا إلى أرض العجم فتناسلوا بها وكثر ولدهم فسموا الاكراد ، وقال بعض الشعراء فى ذلك وهو يعضد ماقاله ابن عبد البر :

لعمرك ما الاكراد أبناء فارس ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

انتهى ، وفى القاموس الكرد بالضم جيل من الناس معروف والجمع اكراد وجدهم كرد بن عمرو مزيقيا ابن عامر ماء السماء انتهى، وعامر هذا من العرب بلا شبهة فانه ابن حارثة الغطريف بن امرء القيس البطريق ابن ثعلبة بن مازن بن الازد ويقال له الاسد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ويسمى عامرا وهو عند الاكثر ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : من ولد هود ، وقيل : هو هود نفسه ، وقيل : ابن أخيه ، وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية اسماعيل عليه السلام وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن اسماعيل ،والذى رجحه ابن حجر أن قبائل اليمن كلها ومنها قبيلة عمرو مزيقيا من ولد اسماعيل عليه السلام، ويدل له تبويب البخارى باب نسبة اليمن إلى اسماعيل عليه السلام ذكر ذلك السيد نور الدين على السمهودى فى تاريخ المدينة، وفيه أن الأنصار الاوس والخزرج من أولاد ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا المذكور وكان له ثلاثة عشر ولدا ذكورا منهم ثعلبة المذكور . وحارثة والد خزاعة . وجفنة والد غسان . ووداعة . وأبو حارثة . وعوف . وكعب . ومالك . وعمران . وكرد كما فى القاموس انتهى *

وفائدة الخلاف تظهر فى أمور منها الكفاءة فى النكاح والعامة لايعدونهم من العرب فلا تغفل، والذى يغلب على ظنى أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم اكراد لا يبعد أن يكون فيهم من هو من أولاد عمرو مزيقيا وكذا لا يبعد أن يكون فيهم من هو من العرب وليس من أولاد عمرو المذكور إلا أن الكثير منهم ليسوا من العرب أصلا، وقد انتظم فى سلك هذا الجيل أناس يقال: انهم من ذرية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: انهم من ذرية معاذ بن جبل ، وآخرون يقال: انهم من ذرية العباس بن عبد المطلب، وآخرون يقال: انهم من بنى أمية ولا يصح عندى من ذلك شىء بيد أنه سكن مع الاكراد طائفة من السادة أبناء الحسين رضى الله تعالى عنهم يقال لهم البرزنجية لاشك فى صحة نسبهم وكذا فى جلالة حسبهم، وبالجملة الاكراد مشهور باليأس وقد كان منهم كثير من أهل الفضل بل ثبت لبعضهم الصحبة، قال الحافظ ابن حجر فى الاصابة فى تمييز الصحابة فى حرف الجيم: جابان والد ميمون روى ابن منده من طريق أبى سعيد مولى بنى هاشم عن أبى خلدة سمعت ميمون بن جابان الكردى عن أبيه أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير مرة حتى بلغ عشرا وذكر الحديث، وقد أخرج نحوه الطبرانى فى المعجم الصغير عن ميمون الكردى عن أبيه أيضاً وهو أتم منه ولفظه «سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى اليها حقها خدعها فمات ولم يؤد اليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان وأيما رجل استدان

(١) قوله ابن ماء السماء. قالوا الصواب اسقاط ابن لأن عامراً هو الملقب بماء السماء لاأن ماء السماء اب لعامر

دينا لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد اليه دينه لقي الله وهو سارق» ويكنى ميمون هذا بأبي بصير بفتح الموحدة ، وقيل: بالنون، وهو كما في التقريب مقبول، هذا وأشهر الأقوال في تعيين هؤلاء القوم انهم بنو حنيفة *

وقال أبو حيان : الذي أقوله إن هذه الأقوال تمثيلات من قائلها لا تعيين القوم ، وهذا وإن حصل به الجمع بين تلك الأقوال خلاف الظاهر ، وقوله تعالى : ﴿ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ على معنى يكون أحد الامرين إما المقاتلة أو الاسلام لا ثالث لهما ، فأو للتنويع والحصر لا للشك وهو كثير ، و يدل لذلك قراءة أبي . وزيد بن علي (أو يسلموا) بحذف النون لأن ذلك للناصب وهو يقتضي أن أو بمعنى إلا أي إلا أن يسلموا فيفيد الحصر أو بمعنى إلى أي إلى أن يسلموا ، والغاية تقتضي أنه لا ينقطع القتال بغير الاسلام فيفيده أيضاً كما قيل : والجملة مستأنفة للتعليل كما في قولك : سيدعوك الامير يكرمك أو يكبت عدوك ، قال في الكشف: ولا يجوز أن تكون صفة لقوم لأنهم دعوا إلي قتال القوم لأنهم دعوا إلى قوم موصوف بالمقاتلة أو الاسلام *

وجوز بعضهم كونها حالية وحاله كحال الوصفية ، وأصل الكلام ستدعون إلى قوم أولى بأس لتقاتلوهم أو يسلموا فعدل إلى الاستئناف لأنه أعظم الوصلين، ثم فيه انهم فعلوا ذلك وحصلوا الغرض فهو يخبر عنه واقعا *

والاعتراض بأنه يلزم أن لا ينفك الوجود عن أحدهما لصدق إخباره تعالى ونحن نرى الانفكاك بأن يتركوا سدى أو بالهدنة فينبغي أن يؤول بأنه في معنى الامر على ما في أمالي ابن الحاجب غير سديد لأن القوم مخصوصون لا عموم فيهم ، وكان الواقع أنهم قوتلوا إلى أن أسلموا سواء فسر القوم ببني حنيفة او بثقيف وهوازن أو فارس والروم على أن الاسلام الانقياد فما انفك الوجود عن أحدهما بل وقعا، وأما امتناع الانفكاك فليس من مقتضى الوضع ولا الاستعمال بل ذلك في الكلام الاستدلالي قد يتفق *

وأطال الطيبي الكلام في هذا المقام ثم قال: الذي يقتضيه المقام ما ذهب اليه صاحب التحبير من أن (يسلمون) عطف على (تقاتلونهم) اما على الظاهر أو بتقديرهم يسلمون ليكون من عطف الاسمية على الفعلية وحينئذ تكون المناسبة أكثر اذ تخرج الجملة الى باب الكناية ، والمعنى تقاتلونهم أو لا تقاتلونهم لأنهم يسلمون، وقد وضع فيه (أو يسلمون) موضع أو لا تقاتلونهم لأنهم اذا أسلموا سقط عنهم قتالهم ضرورة، والاستدعاء عليه ليس الا للاختبار، و(أو) للترديد على سبيل الاستعارة وفيه ما فيه، وشاع الاستدلال بالآية على صحة امامة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، ووجه ذلك الامام فقال: الداعي في قوله تعالى: (ستدعون) لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو الائمة الاربعة أو من بعدهم لا يجوز الاول لقوله سبحانه (قل لن تتبعونا) الخ ولا أن يكون عليا رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه لأنه إنما قاتل البغاة والخوارج وتلك المقاتلة للاسلام لقوله عز وجل: (أو يسلمون) ولا من ملك بعدهم لأنهم عندنا على الخطأ وعند الشيعة على الكفر ولما بطلت الاقسام تعين أن يكون المراد بالداعي أبا بكر . وعمر وعثمان. رضي الله تعالى عنهم، ثم انه تعالى أوجب طاعته وأوعد على مخالفته وذلك يقتضي امامته وأي الثلاثة كان ثبت المطلوب. أما اذا كان أبا بكر فظاهر، وأما اذا كان عمر أو عثمان فلأن امامته فرع امامته رضي الله تعالى عنه• وتعقب بأن الداعي كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويشعر بذلك السين قوله : لا يجوز لقوله سبحانه: لن (تتبعونا) الخ فيه أن (لن) لا تفيد التأبيد على الصحيح وظاهر السياق يدل على أن

المراد به لن تتبعونا في الانطلاق الى خيبر كما سمعت عن محي السنة أو هو مقيد بما روى عن مجاهد أو بما حكى عن بعض ، وقال أبو حيان: القول بأنهم لم يدعوا الى حرب في ايام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس بصحيح فقد حضر كثير منهم مع جعفر في موتة وحضروا حرب هوازن معه عليه الصلاة والسلام وحضروا معه صلى الله تعالى عليه وسلم أيضا في سفرة تبوك انتهى، ولا يخفى أن هذا اذا صح ينفي حمل النفي على التأبيد ه

ومن الشيعة من اقتصر في رد الاستدلال على الدعوة في تبوك. وتعقب بأنه لم يقع فيها ما اخبر الله تعالى به في قوله سبحانه: (تقاتلونهم أو يسلمون) ومنهم من زعم أن الداعي على كرم الله تعالى وجهه وزعم كفر البغاة والخوارج عليه رضى الله تعالى عنه وانه لو سلم اسلامهم يراد بالاسلام في الآية الانقياد الى الطاعة وموالاة الامير، وفيه مالا يخفى، والانصاف أن الآية لا تكاد تصح دليلا على امامة الصديق رضى الله تعالى عنه الا إن صح خبر مرفوع في كون المراد بالقوم بني حنيفة ونحوهم ودون ذلك خرط القتاد، ونفى بعضهم صحة كون المراد بالقوم فارساً والروم لأن المراد في قوله تعالى: (تقاتلونهم أو يسلمون) على ما سمعت وفارس مجوس والروم نصارى فلا يتعين فيهم أحد الامرين من المقاتلة والاسلام اذ يقبل منهم الجزية ، وكذا اليهود ومشركو العجم والصابئة عند أبي حنيفة رضى الله تعالى عنه وقال: يتعين كونهم مرتدين أو مشركي العرب لأنهم الذين لايقبل منهم الا الاسلام أو السيف، ومثل مشركي العرب مشركو العجم عند الشافعي رضي الله تعالى عنه فعنده لاتقبل الا من أهل الكتاب والمجوس، وأنت تعلم ان من فسر القوم بذلك يفسر الاسلام بالانقياد وهو يكون بقبول الجزية فلا يتم له أمر النفي فلا تغفل ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ الدعي فيما دعاكم اليه ﴿ يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ هو على ما قيل الغنيمة في الدنيا والجنة في الاخرى ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ﴾ عن الدعوة ﴿ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ في الحديبية ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦ ﴾ لتضاعف جرمكم ، وهذا التعذيب قال في البحر: يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة ، ويحتمل عندي وهو الاوفق بما قبله على ماقيل كونه فيهما ولا بأس بكون كل من الايتاء والتعذيب في الآخرة بل لعله المتبادر لكثرة استعمالهما في ذلك ، ولا يحسن كون الامرين في الدنيا ولا كون الاول في الآخرة أو فيها وفي الدنيا والثاني في الدنيا فقط ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ أى اثم ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أى في التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة، وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة ، وليس في نفي ذلك عنهم نهي لهم عن الغزو بل قالوا: ان أجرهم مضاعف في الغزو، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان أعمى رضى الله تعالى عنه وحضر في بعض حروب القادسية وكان يمسك الراية . وفي البحر لو حصر المسلمون فالفرض متوجه بحسب الوسع في الجهاد ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما ذكر من الاوامر والنواهي ه

﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ١٧ ﴾ لا يقادر قدره والمعنى بالوعد والوعيد هنا اعم من المعنى بهما فيما سبق كما ينبيء عن ذلك التعبير بمن هنا وبضمير الخطاب هناك ، وقيل في الوعيد (يعذبه) الخ دون يدخله ناراً ونحوه مما هو أظهر في المقابلة لقوله تعالى: (يدخله جنات) الخ اعتناء بأمره من حيث ان التعذيب يوم القيامة عذابا أليما يستلزم ادخال النار وإدخالها لا يستلزم ذلك، واعتنى

به لأن المقام يقتضيه ولذا جيء به كالمكرر مع الوعيد السابق، ويكفى فى الاشارة الى سبق الرحمة اخراج الوعد ههنا كالتفصيل لما تقدم والتعبير هناك بايتاء الاجر الحسن الظاهر فى الاستحقاق مع اسناد الايتاء الى الاسم الجليل نفسه فتأمل فلمسلك الذهن اتساع. وقرأ الحسن. وقتادة. وأبو جعفر. والاعرج. وشيبة. وابن عامر. ونافع (ندخله ونعذبه) بالنون فيهما، ولما ذكر سبحانه حال من تخلف عن السفر مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر عز وجل حال المؤمنين الخلص الذين سافروا معه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِىَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وهم أهل الحديبية إلا الجد بن قيس فانه كان منافقا ولم يبايع *

وأصل هذه البيعة وتسمى بيعة الرضوان لقول الله تعالى فيها: (لقد رضى) الخ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث خراشاً بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة والف بعدها شين معجمة ابن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة وحمله على جمل له يقال له: الثعلب يعلمهم أنه جاء معتمرا لا يريد قتالا فلما أتاهم وكلمهم عقروا جمله وأرادوا قتله فمنعه الاحابيش فخلوا سبيله حتى أتى الرسول ﷺ فدعا عمر رضى الله تعالى عنه ليبعثه فقال: يارسول الله ان القوم قد عرفوا عداوتى لهم وغلظى عليهم وانى لا آمن وليس بمكة أحد من بنى عدى يغضب لى إن أوذيت فأرسل عثمان بن عفان فان عشيرته بها وهم يحبونه وأنه يبلغ ماأردت فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عثمان فارسله الى قريش وقال: أخبرهم أنا لم نأت بقتال وانما جئنا عمارا وادعهم إلى الاسلام وأمره عليه الصلاة والسلام ان يأتى رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيبشرهم بالفتح ويخبرهم ان الله تعالى قريبا يظهر دينه بمكة فذهب عثمان رضى الله تعالى عنه الى قريش وكان قد لقيه أبان بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته وحمله عليها وأجاره فأتى قريشا فأخبرهم فقالوا له إن شئت فطف بالبيت وأما دخولكم علينا فلا سبيل اليه فقال رضى الله تعالى عنه: ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاحتبسوه فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قد قتل فقال عليه الصلاة والسلام: لانبرح حتى نناجز القوم ونادى مناديه عليه الصلاة والسلام الا ان روح القدس قد نزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فامره بالبيعة فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوه فثار المسلمون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبايعوه، قال جابر كما فى صحيح مسلم وغيره: بايعناه صلى الله تعالى عليه وسلم على ان لا نفر ولم نبايعه على الموت * وأخرج البخارى عن سلمة بن الاكوع قال: بايعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت الشجرة، قيل: على أى شيء تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وأخرج مسلم عن معقل بن يسار انه كان آخذاً باغصان الشجرة عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يبايع الناس وكان اول من بايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يومئذ أبا سنان وهو وهب بن محصن أخو عكاشة بن محصن، وقيل: سنان بن أبى سنان، وروى الاول البيهقى فى الدلائل عن الشعبى وانه قال للنبى عليه الصلاة والسلام: ابسط يدك ابايعك فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: علام تبايعنى؟ قال: على مافى نفسك. وفى حديث جابر الذى أخرجه مسلم أنه قال: بايعناه عليه الصلاة والسلام وعمر رضى الله تعالى عنه آخذ بيده، ولعل ذلك ليس فى مبدأ البيعة والا ففى صحيح البخارى عن نافع ان عمر رضى الله تعالى عنه يوم الحديبية أرسل ابنه عبد الله الى

فرس له عند رجل من الانصار أن يأتي به ليقاتل عليه ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يبايع عند الشجرة وعمر لا يدري بذلك فبايعه عبد الله ثم ذهب الى الفرس فجاء به الى عمر وعمر رضى الله تعالى عنه يستلئم للقتال فأخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يبايع تحت الشجرة فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم *

وصح انه ﷺ ضرب بيده اليمنى على يده الاخرى وقال: هذه بيعة عثمان ولما سمع المشركون بالبيعة خافوا وبعثوا عثمان رضى الله تعالى عنه وجماعة من المسلمين وكانت عدة المؤمنين ألفاً وأربعمائة على الاصح عند اكثر المحدثين ورواه البخاري عن جابر، وروى عن سعيد بن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب بلغني أن جابر بن عبدالله كان يقول: كانوا أربع عشرة مائة فقال لى سعيد: حدثني جابر كانوا خمس عشرة مائة الذين بايعوا رسول الله ﷺ وتابعه أبو داود. وروى أيضا عن عبد الله بن أوفى قال: كان أصحاب الشجرة ألفا وثلثمائة، وعند أبي شيبة من حديث سلمة بن الاكوع أنهم كانوا ألفا وسبعمائة، وجزم موسى بن عقبة بأنهم كانوا الفا وستمائة؛ وحكى ابن سعد أنهم ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون، وجمع بين الروايات بأنها بناء على عد الجميع أو ترك الاصاغر والأتباع والأوساط أو نحو ذلك، وأما قول ابن اسحق: إنهم كانوا سبعمائة فلم يوافقه أحد عليه لأنه قاله استنباطا من قول جابر: تنحر البدنة عن عشرة وكانوا نحروا سبعين بدنة، وهذا لا يدل على انهم ماكانوا نحروا غير البدن مع أن بعضهم كأبي قتادة لم يكن أحرم أصلا، والشجرة كانت سمرة، والمشهور أن الناس كانوا يأتونها فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر رضى الله تعالى عنه فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب الجاهلية وعبادة غير الله تعالى فيهم *

وفي الصحيحين من حديث طارق بن عبدالرحمن قال: انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون قلت: ماهذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأتيت سعيد بن المسيب فاخبرته فقال: حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله عليه الصلاة والسلام تحت الشجرة قال: فلما كان من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها ثم قال سعيد: ان أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأيكم أعلم، والرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدى بنفسه وهو مع عن إنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا ومافي الآية من هذا القسم، والمعنى الموجب للرضا فيها هو المبايعة، وإذا ذكر مع العين معنى بالباء فقيل رضيت عن زيد باحسانه كانت الباء للسببية وجاز أن تكون صلة وتتعين للسببية مع مقابله نحو سخطت عليه باساءته وهو مع الباء نحو رضيت به يجب دخوله على المعنى إلا اذا دخل على الذات تمهيدا للمعنى ليكون أبلغ فتقول رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله تعالى ربا وقاضيا، وإذا عدى بنفسه جاز دخوله على الذات نحو رضيت زيدا وإن كان باعتبار المعنى تنبيها على أن كله مرضى بتلك الخصلة، وفيه مبالغة، وجاز دخوله على المعنى كرضيت إمارة فلان، والأول أكثر استعمالا، وإذا استعمل مع اللام تعدى بنفسه كقولك: رضيت لك التجارة، وفيه تجوز اما لجعل الرضا مجازا عن الاستحماد واما لأنك جعلت كونه مرضيا له بمنزلة كونه مرضيا لك مبالغة فى انه فى نفسه مرضى محمود وانك تختار له ما تختار لنفسك وهذا أبلغ، ثم هو فى حق الحق تعالى شأنه محال عند الخلف قالوا: لأنه سبحانه لاتحدث له صفة عقيب أمر البتة، فهو عندهم مجاز اما من أسماء الصفات إذا فسر بارادة أن يثيبهم اثابة من رضى عمن تحت يده، وأما من أسماء الافعال إذا فسر بالاثابة وكذا إذا أريد الاستحماد؛ وفى البحر أن العامل باذ فى الآية هو رضى وهو

هنا بمعنى اظهار النعم عليهم فهو صفة فعل لا صفة ذات ليتقيد بالزمان ، وأنت تعلم أن السلف لايؤولون مثل ذلك ويثبتونه له تعالى على الوجه اللائق به سبحانه ويصرفون الحدوث الذى يستدعيه التقييد بالزمان إلى التعلق، ثم ان تقييد الرضا بزمان المبايعة يشعر بعليتها له فلا حاجة إلى جعل اذ للتعليل، والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة المبايعة ، وقوله سبحانه : (تحت الشجرة) اما متعلق بيبايعونك أو بمحذوف هو حال من مفعوله، وفى التقييد بذلك اشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة وانها لم تكن عن خوف منه عليه الصلاة والسلام ولذا استوجبت رضا الله تعالى الذى لا يعادله شىء ويستتبع ما لا يكاد يخطر على بال ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرج أحمد عن جابر . ومسلم عن أم بشر عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» وقد قال عليه الصلاة والسلام ذلك عند حفصة فقالت : بلى يارسول الله فانتهرها فقالت : (وان منكم إلا واردها) فقال عليه الصلاة والسلام قد قال الله تعالى : (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) *

وصح برواية الشيخين وغيرهما فى أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم : أنتم خير أهل الأرض فينبغى لكل من يدعى الاسلام حبهم وتعظيمهم والرضا عنهم وإن كان غير ذلك لا يضرهم بعد رضا الله تعالى عنهم، وعثمان منهم بل كانت يد رسول الله ﷺ له رضى الله تعالى عنه ـ كما قال أنس ـ خيرا من أيديهم لأنفسهم ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أى من الصدق والاخلاص فى مبايعتهم ، وروى نحو ذلك عن قتادة . وابن جريج . وعن الفراء ، وقال الطبرى . ومنذر بن سعيد : من الايمان وصحته وحب الدين والحرص عليه ، وقيل : من الهم والأنفة من لين الجانب للمشركين وصلحهم، واستحسنه أبو حيان والاول عندى أحسن، وهو عطف على (يبايعونك) لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك، وجوز عطفه على (رضى) بتأويله بظهر علمه فيصير مسببا عن الرضا مترتبا عليه ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى الطمأنينة والامن وسكون النفس والربط على قلوبهم بالتشجيع ، وقيل : بالصلح وليس بذاك ، والظاهر أنه عطف على (علم) *

وفى الارشاد أنه عطف على (رضى) وظاهر كلام أبى حيان الاول وحيث استحسن تفسير مافى القلوب بما سمعت آنفا قال : إن السكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وقال مقاتل : فعلم الله مافى قلوبهم من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه صلى الله تعالى عليه وسلم على الموت فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا وتفسر (السكينة) بتذليل قلوبهم ورفع كراهة البيعة عنها، ولعمرى أن الرجل لم يعرف للصحابة رضى الله تعالى عنهم حقهم وحمل كلام الله تعالى على خلاف ظاهره ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨ ﴾ قال ابن عباس . وعكرمة . وقتادة . وابن أبى ليلى . وغيرهم : هو فتح خيبر وكان غب انصرافهم من الحديبية ، وقال الحسن : فتح هجر ، والمراد هجر البحرين وكان فتح فى زمانه ﷺ بدليل كتابه إلى عمرو بن حزم فى الصدقات والديات *

وفى صحيح البخارى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صالح أهل البحرين وأخذ الجزية من مجوس هجر والفتح لا يستدعى سابقة الغزو كما علمت مما سبق فى تفسيره فسقط قول الطيبى معترضا على الحسن : إنه لم يذكر أحد من الأئمة أنه صلى الله تعالى وسلم غزا هجرا . نعم اطلاق الفتح على مثل ذلك قليل غير شائع بل قيل هو معنى مجازى له ، وقيل : هو فتح مكة والقرب أمر نسبى ، وقرأ الحسن . ونوح القارى (وآتاهم) أى أعطاهم *

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ هى مغانم خيبر كما قال غير واحد ، وقسمها عليه الصلاة والسلام كما

فى حديث أحمد . وأبى داود . والحاكم . وصححه عن مجمع بن جارية الانصارى فأعطى للفارس سهمين وكان منهم ثلثمائة فارس وللراجل سهما ، وقيل : مغانم هجر ، وقرأ الأعمش . وطلحة . ورويس عن يعقوب ، ودلبة عن يونس عن ورش . وأبو دحية . وسقلاب عن نافع . والانطاكى عن أبى جعفر (تأخذونها) بالتاء الفوقية والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم فى الامتنان ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ غالبا ﴿ حَكِيمًا ١٩ ﴾ مراعيا لمقتضى الحكمة فى أحكامه تعالى وقضاياه جل شأنه ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ هى على ما قال ابن عباس . ومجاهد . وجمهور المفسرين ما وعد الله تعالى المؤمنين من المغانم إلى يوم القيامة ﴿ تَأْخُذُونَهَا ﴾ فى أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ أى مغانم خيبر ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أيدى أهل خيبر وحلفائهم من بنى أسد . وغطفان حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله تعالى فى قلوبهم الرعب فنكصوا ، وقال مجاهد : كف أيدى أهل مكة بالصلح ، وقال الطبرى : كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحديبية وإلى خيبر ، وقال زيد بن أسلم وابنه . المغانم الكثيرة الموعودة مغانم خيبر والمعجلة البيعة والتخلص من أمر قريش بالصلح ، والجمهور على ما قدمناه ، والمناسبة لما مر من ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بطريق الخطاب وغيره بطريق الغيبة كقوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك) تقتضى على ما نقل عن بعض الأفاضل أن هذا جار على نهج التغليب وإن احتمل تلوين الخطاب فيه ، وذكر الجلبى فى قوله تعالى : (فعجل لكم هذه) الخ انه إن كان نزولها بعد فتح خيبر كما هو الظاهر لا تكون السورة بتمامها نازلة فى مرجعه صلى الله تعالى عليه وسلم من الحديبية وإن كان قبله على أنها من الاخبار عن الغيب فالاشارة بهذه لتنزيل المغانم منزلة الحاضرة المشاهدة والتعبير بالمضى للتحقق انتهى ، واختير الشق الأول ، وقولهم : نزلت فى مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية باعتبار الأكثر أو على ظاهره لكن يجعل المرجع اسم زمان ممتد ، وتعقب بأن ظاهر الأخبار يقتضى عدم الامتداد وانها نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة فلعل الأولى اختيار الشق الثانى ، والاشارة بهذه إلى المغانم التى أثابهم إياها المذكورة فى قوله تعالى : (وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها) وهى مغانم خيبر ، وإذا جعلت الاشارة إلى البيعة كما سمعت عن زيد وابنه وروى ذلك عن ابن عباس لم يحتج الى تأويل نزولها فى مرجعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الضمير المستتر ، قيل : للكف المفهوم من (كف) والتأنيث باعتبار الخبر ، وقيل : للكفة فامر التأنيث ظاهر *

وجوز أن يكون لمغانم خيبر المشار اليها بهذه والآية الامارة أى ولتكون امارة للمؤمنين يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان أو يعرفون بها صدق الرسول ﷺ فى وعده إياهم فتح خيبر وما ذكر من المغانم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام ، واللام متعلقة اما بمحذوف مؤخر أى ولتكون آية لهم فعل ما فعل أو بما تعلق به علة أخرى محذوفة من أحد الفعلين السابقين أى فعجل لكم هذه أو كف أيدى الناس عنكم لتنتفعوا بذلك ولتكون آية ، فالواو ـ كما فى الارشاد ـ على الأول اعتراضية وعلى الثانى عاطفة ، وعند الكوفيين الواو زائدة واللام متعلقة بكف أو بعجل ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ بتلك الآية ﴿ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ٢٠ ﴾ هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه فى كل ما تأتون وتذرون *

﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ عطف على (هذه) فى (فعجل لكم هذه) فكأنه قيل فعجل لكم هذه المغانم وعجل لكم مغانم أخرى وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين، والتعجيل بالنسبة إلى مابعد فيجوز تعدد المعجل كالابتداء بشيئين، وقوله تعالى: ﴿ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ فى موضع الصفة ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ فى موضع صفة أخرى -لأخرى- مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة إلى قدرته عز وجل بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى قدرتهم، والاحاطة مجاز عن الاستيلاء التام أى قد قدر الله تعالى عليها واستولى فهى فى قبض قدرته تعالى يظهر عليها من أراد، وقد أظهركم جل شأنه عليها وأظفركم بها، وقيل: مجاز عن الحفظ أى قد حفظها لكم ومنعها من غيركم، والتذييل بقوله سبحانه: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١ ﴾ أوفق بالاول، وعموم قدرته تعالى لكونها مقتضى الذات فلا يمكن أن تتغير ولاأن تتخلف وتزول عن الذات بسبب مالكا تقرر فى موضعه، فتكون نسبتها إلى جميع المقدورات على سواء من غير اختصاص ببعض منها دون بعض والا كانت متغايرة بل مختلفة، وجوز كون (أخرى) منصوبة بفعل يفسره قد أحاط الله بها مثل قضى *

وتعقب بأن الاخبار بقضاء الله تعالى بعد اندراجها فى جملة الغنائم الموعود بها بقوله تعالى: (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) ليس فيه مزيد فائدة وإنما الفائدة فى بيان تعجيلها، وأورد عليه أن المغانم الكثيرة الموعودة ليست معينة ليدخل فيها الاخرى، ولو سلم فليس المقصود بالافادة كونها مقضية بل مابعده فتدبر، وجوز كونها مرفوعة بالابتداء والجملة بعدها صفة وجملة قد أحاط الخ خبرها، واستظهر هذا الوجه أبو حيان، وقال بعض: الخبر محذوف تقديره ثمت أونحوه، وجوز الزمخشرى كونها مجرورة باضمار رب كما فى قوله * وليل كموج البحر أرخى سدوله * وتعقبه أبو حيان بأن فيه غرابة لأن رب لم تأت فى القرآن العظيم جارة مع كثرة ورود ذلك فى كلام العرب فكيف تضمر هنا، وأنت تعلم أن مثل هذه الغرابة لاتضر، هذا وتفسير الاخرى بمغانم هوازن قد أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس واختاره غير واحد، وقال قتادة. والحسن: هى مكة وقد حاولوها عام الحديبية ولم يدركوها فأخبروا بأن الله تعالى سيظفرهم بها ويظهرهم عليها، وفى رواية أخرى عن ابن عباس. والحسن، ورويت عن مقاتل انها بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون، وهو غير ظاهر على تفسير المغانم الكثيرة الموعودة فيما سبق بما وعد الله تعالى به المسلمين من المغانم إلى يوم القيامة، وأيضا تعقبه بعضهم بأن (لم تقدروا عليها) يشعر بتقدم محاولة لتلك البلاد وفوات دركها المطلوب مع أنه لم تتقدم محاولة،

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: هى خيبر، وروى ذلك عن الضحاك. واسحق. وابن زيد أيضا، وفيه خفاء فلا تغفل ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى من أهل مكة ولم يصالحوكم كما روى عن قتادة، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنهم حليفا أهل خيبر أسد: وعطفان، وقيل: اليهود وليس بذاك ﴿ لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ أى لانهزموا فتولية الدبر كناية عن الهزيمة ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحرسهم، وذكر الخفاجى ان الحارس أحد معانى الولى، وتفسيره هنا بذلك لمناسبته للمنهزم، وقال الراغب: كل من ولى أمر آخر فهو وليه، وعليه فالحارس ولى لأنه يلى أمر المحروس، والتنكير للتعميم أى لايجدون فردا ما من الاولياء ﴿ وَلَا نَصِيرًا ٢٢ ﴾ ولافرداً ما من الناصرين ينصرهم، وقال الامام: أريد: بالولى من ينفع باللطف وبالنصير

من ينفع بالعنف ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ نصب على المصدرية بفعل محذوف أي سن سبحانه غلبة أنبيائه عليهم السلام سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال سبحانه : (لأغلبن انا ورسلي) على ما هو المتبادر من معناه ، ولعل المراد أن سنته تعالى أن تكون العاقبة لأنبيائه عليهم السلام لا أنهم كلما قاتلوا الكفار غلبوهم وهزموهم ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ٢٣ ﴾ تغييرا ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ أي أيدي كفار مكة ، وفي التعبير بكف دون منع ونحوه لطف لا يخفى ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ يعني الحديبيه كما أخرج ذلك عبد بن حميد . وابن جرير عن قتادة . وقد تقدم أن بعضها من حرم مكة ، وأن لم يسلم فالقرب التام كاف ويكون اطلاق (بطن مكة) عليها مبالغة ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ ﴾ مظهرا لكم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فتعدية الفعل بعلى لتضمنه ما يتعدى به وهو الاظهار والاعلاء أي جعلكم ذوي غلبة تامة . أخرج الامام أحمد . وابن أبي شيبة . وعبد بن حميد . ومسلم . وأبو داود . والترمذي . والنسائي في آخرين عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم فنزلت هذه الآية (وهو الذي كف) الخ ، وأخرج أحمد . والنسائي . والحاكم وصححه . وابن مردويه . وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن معقل قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن إلى أن قال : فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا إلى وجوهنا فدعا عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذ الله تعالى بأسماعهم ـ ولفظ الحاكم بأبصارهم ـ فقمنا اليهم فأخذناهم فقال لهم رسول الله ﷺ : هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أمانا ؟ فقالوا : لا فخلى سبيلهم فانزل الله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم) الخ *

وأخرج أحمد . وغيره عن سلمة بن الاكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ثم ان المشركين من أهل مكة راسلونا الى الصلح فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض اتيت شجرة فاضطجعت في ظلها فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فابغضتهم وتحولت الى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل ما للمهاجرين قتل بن زنيم فاخترطت سيفي فاشتددت على اولئك الاربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ثم قلت : والذي كرم وجه محمد لا يرفع أحد منكم رأسه الا ضربت الذي فيه عيناه ثم جئت بهم أسوقهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجاء عمي عامر برجل يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سبعين من المشركين فنظر اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : دعوهم يكون لهم بدء الفجور وثناه فعفا عنهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنزل الله تعالى : (وهو الذي كف) الخ ، وهذا كله يؤيد ماقلناه ، واخرج ابن جرير . وابن المنذر . وابن أبي حاتم عن ابن أبزى قال : لما خرج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالهدى وانتهى الى ذي الحليفة قال له عمر : يانبي الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع فبعث الى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا الا حمله فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها فأتاه عينه أن عكرمة ابن أبي جهل قد جمع عليك في

خمسمائة فقال لخالد بن الوليد : ياخالد هذا ابن عمك قد أتاك فى الخيل فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله فيومئذ سمي سيف الله يارسول الله ارم بى ان شئت فبعثه على خيل فلقيه عكرمة فى الشعب فهزمه حتى ادخله حيطان مكة فأنزل الله تعالى (وهو الذى) الآية . وفى البحر أن خالداً هزمهم حتى دخلوا بيوت مكة وأسر منهم جملة فسيقوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمن عليهم وأطلقهم ، والخبر غير صحيح لأن اسلام خالد رضى الله تعالى عنه بعد الحديبية قبل عمرة القضاء ، وقيل بعدها وهى فى السنة السابعة *

وروى ابن اسحق وغيره ان خالدا كان يوم الحديبية على خيل قريش فى مائتى فارس قدم بهم الى كراع الغميم فدنا حتى نظر الى اصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عباد بن بشر فتقدم بخيله فقام بازائه وصف أصحابه وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله عليه الصلاة والسلام باصحابه صلاة الخوف ، وعن ابن عباس ان أهل مكة أرسلوا جملة من الفوارس فى الحديبية يريدون الوقيعة بالمسلمين فأظهرهم الله تعالى عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت ، وأنكر بعضهم ذلك والله تعالى أعلم بصحة الخبر *

وقيل : كان هذا الكف يوم فتح مكة ، واستشهد الامام أبو حنيفة بما فى الآية من قوله تعالى : (من بعد أن أظفركم) بناء على هذا القول لفتح مكة عنوة . واعترض القول المذكور والاستشهاد بالآية بناء عليه ، أما الاول فلأن الآية نزلت قبل فتح مكة . وتعقب بأنه ان اريد أنها نزلت بتمامها قبله فليس بثابت بل بعض الآثار يشعر بخلافه والا فلا يفيد مع أنه يجوز ان يكون هذا اخباراً عن الغيب كما قيل ذلك فى غيره من بعض آيات السورة ، وأما الثانى فلأن دلالتها على العنوة ممنوعة ، فقد قال الزمخشرى : الفتح هو الظفر بالشيء سواء كان عنوة أو صلحا ، والفرق بين الظفر على الشيء والظفر به من حيث الاستعلاء وهو كائن لأنهم اصطلحوا وهم مضطرون ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه مختارون ، وفيه دغدغة لاتخفى ، وكذا فيما تعقب به الاول * وبالجملة هذا القول وكذا الاستشهاد بما فى الآية بناء غير بعيد الا ان اكثر الاخبار الصحيحة وكذا مابعد يؤيد ماقلناه أولا فى تفسير الآية ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بعملكم أو بجميع ماتعملونه ومنه العفو بعد الظفر ﴿ بَصِيراً ٢٤ ﴾ فيجازيكم عليه . وقرأ أبو عمرو (يعملون) بياء الغيبة فالكلام عليه تهديد للكفار *

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أن تصلوا اليه وتطوفوا به ﴿ وَالْهَدْيَ ﴾ بالنصب عطف على الضمير المنصوب فى (صدوكم) أى وصدوا الهدى وهو مايهدى إلى البيت ، قال الاخفش : الواحدة هدية ويقال للانثى هدى كأنه مصدر وصف به . وفى البحر اسكان داله لغة قريش وبها قرأ الجمهور ، وقرأ ابن هرمز . والحسن . وعصمة عن عاصم . واللؤلوى . وخارجة عن أبى عمرو بكسر الدال وتشديد الياء وذلك لغة ، وهو فعيل بمعنى مفعول على ماصرح به غير واحد ، وكان هذا الهدى سبعين بدنة على ماهو المشهور ، وقال مقاتل : كان مائة بدنة . وقرأ الجعفى عن أبى عمرو (الهدى) بالجر على أنه عطف على المسجد الحرام بحذف المضاف أى ونحر الهدى . وقرئ بالرفع على اضمار وصد الهدى ، وقوله سبحانه : ﴿ مَعْكُوفاً ﴾ حال من (الهدى) على جميع القراآت ، وقيل : على قراءة الرفع يجوز أن يكون (الهدى) مبتدأ والكلام نحو حكمك مسمطا ، وقوله تعالى : (ونحن عصبة) على قراءة النصب وهو كما ترى ، والمعكوف المحبوس يقال : عكفت الرجل عن حاجته حبسته عنها ، وأنكر أبو على تعدية عكف وحكاها ابن سيده . والازهرى . وغيرهما ، وظاهر مافى الآية

معهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ﴾ بدل اشتمال من (الهدى) كأنه قيل : وصدوا بلوغ الهدى محله أو صدوا عن بلوغ الهدى أو وصد بلوغ الهدى حسب اختلاف القراآت ، وجوز أن يكون مفعولا من أجله للصد أى كراهة أن يبلغ محله ، وأن يكون مفعولا من أجله مجرورا بلام مقدرة ـ لمعكوفا ـ أى محبوسا لأجل أن يبلغ محله ويكون الحبس من المسلمين ، وأن يكون منصوبا بنزع الخافض وهو من أو عن أى محبوسا من أو عن أن يبلغ محله فيكون الحبس من المشركين على ما هو الظاهر ، ومحل الهدى مكان يحل فيه نحره أى يسوغ أو مكان حلوله أى وجوبه ووقوعه كما نقل عن الزمخشرى ، والمراد مكانه المعهود وهو منى ، أما على رأى الشافعى رضى الله تعالى عنه فلأن مكانه لمن منع حيث منع فيكون قد بلغ محله بالنسبة إلى النبى ﷺ ومن معه ولذا نحروا هناك أعنى فى الحديبية ، وأما على رأى أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه فلأن مكانه الحرم مطلقا وبعض الحديبية حرم عنده ، وقد رووا أن مضارب رسول الله ﷺ كانت فى الحل منها ومصلاه فى الحرم والنحر قد وقع فيما هو حرم فيكون الهدى بالغا محله غير معكوف عن بلوغه فلابد من ارادة المعهود ليتسنى ذلك ، وزعم الزمخشرى أن الآية دليل لأبى حنيفة على أن الممنوع محل هديه الحرم ثم تكلم بما لا يخفى حاله على من راجعه . ومن الناس من قرر الاستدلال بأن المسجد الحرام يكون بمعنى الحرم وهم لما صدوهم عنه ومنعوا هديهم أن يدخله فيصل إلى محله دل بحسب الظاهر على أنه محله ، ثم قال : ولا ينافيه أنه عليه الصلاة والسلام نحر فى طرف منه كما لا ينافى الصد عنه كون مصلاه عليه الصلاة والسلام فيه لأنهم منعوهم فلم يتمتعوا بالكلية وهو كما ترى *

والانصاف أنه لا يتم الاستدلال بالآية على هذا المطلب أصلا . وطعن بعض أجلة الشافعية فى كون شئ من الحديبية من الحرم فقال : إنه خلاف ما عليه الجمهور وحدود الحرم مشهورة من زمن ابراهيم عليه السلام ، ولا يعتد برواية شذ بها الواقدى كيف وقد صرح بخلافها البخارى فى صحيحه عن الثقات ، والرواية عن الزهرى ليست بثبت انتهى ، ولعل من قال : بأن بعضها من الحرم استند فى ذلك إلى خبر صحيح . ومن قواعدهم أن المثبت مقدم على النافى والله تعالى أعلم ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ صفة (رجال ونساء) على تغليب المذكر على المؤنث . وكانوا على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد . وغيره عن أبى جمعة جنبذ بن سبع تسعة نفر سبعة رجال وهو منهم وامرأتين، وقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَطَئُوهُمْ ﴾ بدل اشتمال منهم وجوز كونه بدلا من الضمير المنصوب فى (تعلموهم) واستبعده أبو حيان، والوطء الدوس واستعير هنا للاهلاك وهى استعارة حسنة واردة فى كلامهم قديما وحديثا، ومن ذلك قول الحرث بن وعلة الذهلى :

ووطئتنا وطأ على حنق وطء المقيد نابت الهرم

وقوله ﷺ من حديث: «وإن آخر وطأة وطئها الله تعالى بوج» وقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم اشدد وطأتك على مضر» ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ ﴾ أى من جهتهم ﴿ مَعَرَّةٌ ﴾ أى مكروه ومشقة مأخوذ من العر والعرة وهو الجرب الصعب اللازم ، وقال غير واحد: هى مفعلة من عره إذا عراه ودهاه ما يكره، والمراد بها هنا على ما روى عن منذر ابن سعيد تعيير الكفار وقولهم فى المؤمنين: انهم قتلوا أهل دينهم ، وقيل : التأسف عليهم وتألم النفس مما أصابهم *

وقال ابن زيد: المأثم بقتلهم. وقال ابن إسحق: الدية، قال ابن عطية: وكلا القولين ضعيف لأنه لا اثم ولا دية

فى قتل مؤمن مستور الايمان بين أهل الحرب: وقال الطبرى، هى الكفارة. وتعقب بعضهم هذا أيضا بأن فى وجوب الكفارة خلافا بين الائمة. وفى الفصول العمادية ذكر فى تأسيس النظائر فى الفقه قال أصحابنا: دار الحرب تمنع وجوب ما يندرىء بالشبهات لأن أحكامنا لاتجرى فى دارهم وحكم دارهم لايجرى فى دارنا، وعند الشافعى دار الحرب لاتمنع وجوب ما يندرىء بالشبهات، بيان ذلك حربى أسلم فى دار الحرب وقتل مسلما دخل دارهم بأمان لاقصاص عليه عندنا ولا دية وعند الشافعى عليه القصاص وعلى هذا لو أن مسلمين متسامنين دخلا دار الحرب وقتل أحدهما صاحبه لاقصاص عليه عندنا وعند الشافعى عليه ذلك، ثم ذكر مسئلة مختلفا فيها بين أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد فقال: اذا قتل أحد الاسيرين صاحبه فى دار الحرب لاشىء عليه عند أبى حنيفة وأبى يوسف الا الكفارة لأنه تبع لهم فصار كواحد من أهل الحرب، وعند محمد تجب الدية لأن له حكم نفسه فاعتبر حكم نفسه على حدة انتهى.

ونقل عن الكافى ان من اسلم فى دار الحرب ولم يهاجر الينا وقتله مسلم عمدا أو خطأ وله ورثة مسلمون ثم لا يضمن شيئا ان كان عمدا وان كان خطأ ضمن الكفارة دون الدية انتهى وتمام الكلام فى هذا المقام يطلب فى محله، والزمخشرى فسر المعرة بوجوب الدية والكفارة وسوء مقالة المشركين والمأثم اذا جرى منهم بعض التقصير وهو كما ترى.

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فى موضع الحال من ضمير المخاطبين فى (تطؤهم قيل) ولا تكرار مع قوله تعالى: (لم تعلموهم) سواء كان (أن تطؤهم) بدل اشتمال من (رجال ونساء) أو بدلا من المنصوب فى (لم تعلموهم) اما على الثانى فلان حاصل المعنى ولولا مؤمنون لم تعلموا وطأتهم وإهلاككم وانتم غير عالمين بايمانهم لأن احتمال انهم يهلكون من غير شعور مع ايمانهم سبب الكف فيعتبر فيه العلمان فمتعلق العلم فى الاول الوطأة وفى الثانى انفسهم باعتبار الايمان، وأما على الاول فلان قوله تعالى: (بغير علم) لما كان حالا من فاعل (تطؤهم) كان العلم بهم راجعا الى العلم باعتبار الاهلاك كما تقول اهلكته من غير علم فلا الاهلاك من غير شعور ولا العلم بايمانهم حاصل والامران لكونهما مقصودين بالذات صرح بهما وإن تقاربا أو تلازما فى الجملة.

وجوز أن يجعل (لم تعلموهم) كناية عن الاختلاط كما يلوح اليه كلام الكشاف، وفيه مايدفع التكرار أيضا، وفى ذلك بحث يدفع بالتأمل وجوز ان يكون حالا من ضمير (منهم) وان يكون متعلقا ـ بتصيبكم ـ أو صفة لمعرة قيل: وهو على معنى فتصيبكم منهم معرة بغير علم من الذى يعركم ويعيب عليكم، يعنى ان وطئتموهم غير عالمين لزمكم سبة من الكفار بغير علم أى لا يعلمون انكم معذورون فيه أو على معنى لم تعلموا أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم منكم أى فتقتلوهم بغير علم منكم أو تؤذوهم بغير علم فافهم ولا تغفل. وجواب (لولا) محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى على ماسمعت أولا لولا كراهة أن تهلكوا أناسا مؤمنين بين ظهرانى الكفار جاهلين بهم فيصيبكم باهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم، وحاصله أنه تعالى ولو لم يكف أيديكم عنهم لانجر الامر الى اهلاك مؤمنين بين ظهرانيهم فيصيبكم من ذلك مكروه وهو عز وجل يكره ذلك.

وقال ابن جريج: دفع الله تعالى عن المشركين يوم الحديبية بأناس من المسلمين بين أظهرهم، وظاهر الاول على ماقيل ان علة الكف صون المخاطبين عن اصابة المعرة، وظاهر هذا أن علته صون أولئك المؤمنين عن الوطء والامر فيه سهل، وقوله تعالى: ﴿ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ علة لما يدل عليه الجواب المحذوف على ما اختاره فى الارشاد كأنه قيل: لكنه سبحانه كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى الى الفتح بلامحذور فى رحمته

الواسعة ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم اؤلئك المؤمنون وذلك بامنهم وازالة استضعافهم تحت أيدى المشركين وبتوفيقهم لاقامة مراسم العبادة على الوجه الاتم، والتعبير عنهم بمن يشاء دون الضمير بأن يقال: ليدخلهم الله رحمته للاشارة الى ان علة الادخال المشيئة المبنية على الحكم الجمة والمصالح، وجعله بعضهم علة لما يفهم من صون من بمكة من المؤمنين والرحمة توفيقهم لزيادة الخير والطاعة بابقائهم على عملهم وطاعتهم، وجوز أن يراد ـ بمن يشاء ـ بعض المشركين ويراد بالرحمة الاسلام فان اولئك المؤمنين اذا صانهم الكف المذكور أظهروا ايمانهم لمعاينة قوة الدين فيقتدى بهم الصائرون للاسلام، واستحسن بعضهم كونه علة للكف المعلل بالصون *

وجوز أن يراد ـ بمن يشاء ـ المؤمنون فيراد بالرحمة التوفيق لزيادة الخير، والمشركون فيراد بها الاسلام، وبين وجه التعليل بأنهم اذا شاهدوا منع تعذيبهم بعد الظفر عليهم لاختلاط المؤمنين بهم اعتناء بشأنهم رغبوا فى الاسلام والانخراط فى سلك المرحومين وان المؤمنين اذا علموا منع تعذيب المشركين بعد الظفر عليهم لاختلاطهم بهم أظهروا ايمانهم فيقتدى بهم ، وقال: لا وجه لجعل اللام مستعارة من معنى التعليل لما يترتب على الشىء لأنه عدول عن الحقيقة المتبادرة من غير داع ، ومايظن من أن تعليل الكف بما ذكر مع انه معلل بالصون فاسد لما فيه من اجتماع علتين على معلول واحد شخصى فاسد لأن العلل اذا لم تكن تامة حقيقة لا يضر تعددها وما هنا كذلك *

هذا وجعل ذلك علة لما دل عليه الجواب على ما سمعت أولا أولى عندى لما فيه من شدة التحام النظم الجليل ، وحمل (من يشاء) على المؤمنين المستضعفين دون بعض المشركين أوفق بقوله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ ﴾ والتزيل التفرق والتميز، وجوز فى ضمير (تزيلوا) كونه للمؤمنين المذكورين فيما سبق أى لو تفرق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار وخرجوا من مكة ولم يبقوا بينهم لعذبنا الخ، وكونه للمؤمنين والكفار أى لو افترق بعضهم من بعض ولم يبقوا مختلطين لعذبنا الخ *

واختار غير واحد الأول ـ فمنهم ـ للبيان ، والمراد تعذيبهم فى الدنيا بالقتل والسبى كما قال مجاهد وغيره والالم يكن ـ للو ـ موقع . والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وجوز الزمخشرى أن يكون قوله تعالى: (لو تزيلوا) كالتكرار لقوله تعالى:(لولا رجال) لأن مرجعهما فى المعنى شىء واحد ويكون لعذبنا هو الجواب ـ للولا ـ السابقة . واعترضه أبو حيان بأن التغاير ظاهر فلا يكون تكرارا ولا شابها، وأجيب بأن كراهة وطئهم لعدم تميزهم عن الكفار الذى هو مدلول الثانى فيكون كبدل الاشتمال ويكفى ذلك فى كونه كالتكرار ، وقال ابن المنير: إنما كان مرجعهما واحداً وإن كانت (لولا) تدل على امتناع لوجود و(لو) تدل على امتناع لامتناع وبين هذين تناف ظاهر لأن (لولا) ههنا دخلت على وجود ولو دخلت على(تزيلوا) وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود ثبوت فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه قال: وكان جدى يختار هذا الوجه ويسميه تطرية وأكثر مايكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى بناء الآخر على الاول فمرة يطرى بلفظه ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه انتهى *

وأنت تعلم أن فى حذف الجواب دليلا على شدة غضب الله تعالى وأنه لولا حق المؤمنين لفعل بهم مالا يدخل تحت الوصف ولا يقاس ، ومنه يعلم أن ذلك الوجه أرجح من جعل (لو تزيلوا) بمنزلة التكرار للتطرية فتطرية الجواب وتقويته أولى وأوفق لمقتضى المقام، واختار الطيبى الاول أيضا معللا له بأنه حينئذ يقرب من باب الطرد والعكس لأن التقدير لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم لوقع ما كان جزاء لكفرهم وصدهم ولو حصل

التمييز وارتفع الاختلاط لحصل التعذيب ، ثم ان تقدير الجواب ما تقدم عند القائلين بالحذف هو الذي ذهب اليه كثير ، وجوز بعضهم تقديره لعجل لهم ما يستحقون وجعل قوله تعالى(١): (هم الذين كفروا) الخ فكأنه قيل: هم الذين كفروا واستحقوا التعجيل في اهلاكهم ولولا رجال مؤمنون الخ لعجل لهم ذلك وهو أيضا أولى من حديث التكرار ، وقرأ ابن أبي عبلة. وابن مقسم. وأبو حيوة. وابن عون (لو تزايلوا) على وزن تفاعلوا *

وفي الآية على ما قال الكيا دليل على أنه لا يجوز خرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسرى من المسلمين وكذلك رمي الحصون إذا كانوا بها والكفار إذا تترسوا بهم، وفيه كلام في كتب الفروع ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ منصوب باذكر على المفعولية أو ـ بعذبنا ـ على الظرفية أو ـ بصدوكم ـ كذلك ، وقيل: بمضمر هو أحسن الله تعالى إليكم. وأياما كان ـ فالذين ـ فاعل (جعل) ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة وتعليل الحكم به، والجعل اما بمعنى الالقاء فقوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أي جعلوا الحمية راسخة في قلوبهم ولكونها مكتسبة لهم من وجه نسب جعلها اليهم، وقال النيسابوري: يجوز أن يكون فاعل (جعل) ضمير الله تعالى و(في قلوبهم) بيان لمكان الجعل ومآل المعنى إذ جعل الله في قلوب الذين كفروا الحمية وهو كما ترى، والحمية الانفة يقال : حميت عن كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك عار منه *

وقال الراغب: عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فقيل: حميت على فلان أي غضبت عليه، وقوله تعالى: ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بدل من الحمية أي حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية لأنها بغير حجة وفي غير موضعها، وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على (جعل) على تقدير جعل (اذ) معمولا لاذكر، والمراد تذكير حسن صنيع الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع المشركين وعلى ما يدل عليه الجملة الامتناعية على تقدير جعلها ظرفا ـ لعذبنا ـ كأنه قيل: فلم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ ، وعلى مضمر عامل فيها على الوجه الاخير المحكي ويكون هذا كالتفسير لذاك، وأما على جعلها ظرفا ـ لصدوكم ـ فقيل: العطف على (جعل) وقيل: على (صدوكم) وهو نظير الطائر فيغضب زيد الذباب، والاولى من هذه الاوجه لا يخفى ، والسكينة الاطمئنان والوقار ، روى غير واحد أن النبي ﷺ خرج بمن معه الى الحديبية حتى إذا كان بذي الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عينا من خزاعة يخبره عن قريش وسار عليه الصلاة والسلام حتى كان بغدير الاشطاط قريبا من عسفان أتاه عينه فقال: إن قريشا جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الاحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فاستشار الناس في الاغارة على ذراري من أعانهم فقال أبو بكر : الله تعالى ورسوله أعلم يانبي الله إنما جئنا معتمرين ولم نجيء لقتال أحد ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه فقال ﷺ: امضوا على اسم الله فسار حتى نزل بأقصى الحديبية فجاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه فقال له إني قد تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي نزلوا اقر يبا معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال عليه الصلاة والسلام :انا لم نجيء لقتال أحد ولكن معتمرين وإن قريشا قد نهكتهم الحرب واضرت بهم فماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فان هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وأن أظهرني الله تعالى

(١) قوله وجعل قوله الخ كذا في اصل المؤلف ولا يخفى ما فيه *

عليهم دخلوا في الاسلام وافرين وان لم يفعلوا قاتلتهم وبهم قوة فما تظن قريش فو الله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله تعالى أو تنفرد هذه السالفة فقال بديل: سأبلغهم ماتقول فبلغهم فقال عروة ابن مسعود الثقفي لهم: دعوني آته فأتاه عليه الصلاة والسلام فقال له نحو ماقال لبديل وجرى من الكلام ماجرى ورأى من احترام الصحابة رسول الله ﷺ وتعظيمهم اياه مارأى فرجع إلى أصحابه فاخبرهم بذلك وقال لهم: إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال عليه الصلاة والسلام: هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت واستقبله القوم يلبون فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ماينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فرجع وأخبر أصحابه فقال رجل يقال له مكرز بن حفص: دعوني آته فلما أشرف قال عليه الصلاة والسلام: هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي فقال ﷺ: قد سهل لكم من امركم وكان قد بعثه قريش وقالوا له: ائت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدا فلما انتهى اليه عليه الصلاة والسلام تكلم فاطال وانتهى الامر إلى الصلح وكتابة كتاب في ذلك فدعا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا كرم الله تعالى وجهه فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال: اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه الصلاة والسلام: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو صلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وان محمداً يرجع عن مكة عامه هذا فلا يدخلها وانه اذا كان عام قابل خرج أهل مكة فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثا معه سلاح الراكب السيوف في القرب لا يدخلها بغيرها *

وظاهر هذا الخبر أن سهيلا لم يرض أن يكتب محمد رسول الله قبل أن يكتب، وجاء في رواية أنه كتب فلم يرض فقال النبي عليه الصلاة والسلام لعلي كرم الله تعالى وجهه: امحه فقال: ما أنا بالذي امحاه، وجاء هذا في رواية للبخاري، ولمسلم وفي رواية للبخاري في المغازي فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضي عليه محمد بن عبد الله، وكذا أخرجه النسائي. وأحمد ولفظه فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب مكان رسول الله هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله، وتمسك بظاهر هذه الرواية كما في فتح الباري أبو الوليد الباجي على أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب بعد ان لم يكن يحسن ان يكتب ووافقه على ذلك شيخه أبو ذر الهروي. وأبو الفتح النيسابوري. وآخرون من علماء افريقية، والجمهور على انه عليه الصلاة والسلام لم يكتب، وان قوله: وأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب لبيان أنه عليه الصلاة والسلام احتاج لأن يريه علي كرم الله تعالى وجهه موضع الكلمة التي امتنع من محوها لكونه كان لا يحسن الكتابة، وقوله: فكتب بتقدير فمحاها فأعاد الكتاب لعلي فكتب أو أطلق فيه كتب على أمر بالكتابة، وتمام الكلام

فى محله فكانت حميتهم على مافى الدر المنثور عن جماعة انهم لم يقروا انه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بين المسلمين والبيت وقدهم المؤمنون لذلك أن يبطشوا بهم فأنزل الله تعالى سكينته عليهم فتوقروا وحلموا . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال فى حمية الجاهلية: حمت قريش أن يدخل عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا: لايدخلها علينا أبدا، وقال ابن بحر: - كما فى البحر - حميتهم عصبيتهم لآلهتهم والانفة ان يعبدوا غيرها، وفى توسيط على بين الرسول والمؤمنين ايماء الى أنه سبحانه أنزل على كل سكينة لائقة به *

ووجه تقديم الانزال على الرسول عليه الصلاة والسلام لايخفى، وقال الامام: فى هذه الآية لطائف معنوية وهو انه تعالى أبان غاية البون بين المومنين والكافرين حيث باين بين الفاعلين اذ فاعل (جعل) هو الكفار وفاعل (انزل) هو الله تعالى، وبين المفعولين اذ تلك حمية وهذه سكينة. وبين الاضافتين اضافة الحمية الى الجاهلية واضافة السكينة اليه تعالى، وبين الفعلين (جعل وانزل) فالحمية مجعولة فى الحال كالعرض الذى لايبقى والسكينة كالمحفوظة فى خزانة الرحمة فأنزلها والحمية قبيحة مذمومة فى نفسها وازدادت قبحا بالاضافة الى الجاهلية والسكينة حسنة فى نفسها وازدادت حسنا باضافتها الى الله عزوجل، والعطف فى فانزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة والمجازاة تقول: أكرمنى زيد فأكرمته فيدل على أن انزال السكينة لجعلهم الحمية فى قلوبهم حتى أن المؤمنين لم يغضبوا ولم ينهزموا بل صبروا، وهو بعيد فى العادة فهو من فضل الله تعالى انتهى وهو مما لابأس به ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾ هى لااله الاالله كما أخرج ذلك الترمذى. وعبد الله بن احمد. والدارقطنى. وغيرهم عن أبى بن كعب مرفوعا وكما أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة· وسلمة بن الاكوع كذلك، وأخرج أحمد. وابن حبان. والحاكم عن حمران ان عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: انى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه الاحرم على النار فقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: أنا أحدثكم ماهى كلمة الاخلاص التى الزمها الله سبحانه محمدا وأصحابه وهى كلمة التقوى التى ألاص (١) عليها نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمه أباطالب عند الموت شهادة ان لااله الا الله» وروى ذلك أيضا عن على كرم الله تعالى وجهه على ما نقل أبوحيان· وابن عمر· وابن عباس. وعكرمة· ومجاهد· والحسن· وقتادة. وسعيد بن جبير فى آخرين، وأخرج ذلك عبد بن حميد. وابن جرير عن عطاء الخراسانى بزيادة محمد رسول الله، وأضيفت الى التقوى لأنها بها يتقى الشرك ومن هنا قال ابن عباس فيما أخرجه ابن المنذر. وغيره: هى رأس كل تقوى، وظاهر كلام عمر رضى الله تعالى عنه أن ضمير - هم - فى (الزمهم) للرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه والزامهم اياها بالحكم والامر بها، وأخرج عبد الرزاق· والحاكم وصححه. والبيهقى فى الاسماء والصفات. وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه انه قال: هى لااله الا الله والله أكبر، وروى عن ابن عمر أيضا نحوه، وأخرج ابن أبى حاتم· والدارقطنى فى الافراد عن المسور بن مخرمة قال: هى لااله الاالله وحده لاشريك له، وعن عطاء ابن أبى رباح. ومجاهد أيضا انها لااله الاالله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، وأخرج عبد بن حميد. وابن جرير. وغيرهما عن الزهرى قال: هى بسم الله الرحمن الرحيم، وضم بعضهم الى هذا محمد رسول الله، والمراد بالزامهم اياها اختيارها لهم دون من عدل عنها الى باسمك اللهم ومحمد بن عبد الله، وقيل: هى الثبات والوفاء بالعهد، ونسبه الخفاجى الى الحسن، والزامهم اياه أمرهم به، واطلاق الكلمة على الثبات على العهد والوفاء به قيل: لما ان كلا يتوصل به الى

(١) يقال ألاصه على الشىء اراده عليه واراده منه اه منه

الغرض وهو نظير ماقيل فى اطلاق الكلمة على عيسى عليه السلام من ان ذلك لأن كلا منهما يهتدى به، وجعلت الاضافة على كونها بمعنى الثبات من باب اضافة السبب الى المسبب فهى اضافة لأدنى ملابسة، وجوز أن تكون اختصاصية حقيقية بتقدير مضاف أى كلمة أهل التقوى، وأريد بالعهد على مايقتضيه ظاهر سبب النزول عهد الصلح الذى وقع بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين أهل مكة، وقيل: مايعم ذلك وسائر عهودهم معه عز وجل.

وأنت تعلم أن الوجه المذكور فى نفسه غير ظاهر، ومثله ماقيل: المراد بالكلمة قولهم فى الاصلاب: بلى مقرين بوحدانيته جل شأنه، وبالالزام الامر بالثبات والوفاء بها، وقيل: هى قول المؤمنين سمعاً وطاعة حين يؤمرون أو ينهون، والظاهر عليه كون الضمير للمؤمنين، وأرجح الاقوال فى هذه الكلمة ماروى مرفوعا وذهب اليه الجم الغفير، ولعل ماذكر فى الاخبار السابقة من باب الاكتفاء، والمراد لا إله الا الله محمد رسول الله.

﴿ وَكَانُوا ﴾ عطف على ماتقدم أو حال من المنصوب فى (الزمهم) بتقدير قد أو بدونه والظاهر فى الضمير عوده كسابقه كما اقتضاه كلام عمر رضى الله تعالى عنه على الرسول والمؤمنين، واستظهر بعضهم عوده على المؤمنين وكأنه اعتبر الاول عائداً عليهم أيضاً وهو مما لابأس فيه، ولعله اعتبر الاقربية، فالمعنى وكان المؤمنون فى علم الله تعالى ﴿ أَحَقَّ بِهَا ﴾ أى بكلمة التقوى، وأفعل لزيادة الحقية فى نفسها أى متصفين بمزيد استحقاق لها أو على ماهو المشهور فيه والمفضل عليه محذوف أى احق بها من كفار مكة لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وقيل: من اليهود والنصارى، وقيل من جميع الامم لأنهم خير امة أخرجت للناس.

وحكى المبرد ان الذين كانوا قبلنا لم يكن لأحد منهم أن يقول: لا إله الا الله فى اليوم والليلة الا مرة واحدة لايستطيع ان يقولها اكثر من ذلك، وكان قائلها يمد بها صوته الى ان ينقطع نفسه تبركا بذكر الله تعالى، وقد جعل الله عز وجل لهذه الامة أن يقولوها متى شاءوا وهو قوله تعالى: (وألزمهم كلمة التقوى) أى ندبهم إلى ذكرها ما استطاعوا وكانوا أحق بها، وهذا مما لم يثبت، وجوز الامام كون التفضيل بالنسبة إلى غير كلمة التقوى أى أحق بها من كلمة غير كلمة تقوى وقال: وهذا كما تقول زيد أحق بالاكرام منه بالاهانة، وقولك إذا سئل شخص عن زيد بالطب أعلم أو بالفقه: زيد أعلم بالفقه أى من الطب، وفيه غفلة لاتخفى ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أى المستأهل لها وهو أبلغ من الاحق حتى قيل بينه وبين الاحق كما بين الاحق والحق، وقيل: إن أحقيتهم بها من الكفار تفهم رجحانهم رجحانا ماعليهم ولاتثبت الاهلية كما إذا اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له لكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فيقال للاقرب اليه إذا كان ولابد فهذا أحق كما يقال: الحبس أهون من القتل، ولدفع توهم مثل هذا فيما نحن فيه قال سبحانه: (وأهلها) وقيل: أريد أنهم أحق بها فى الدنيا وأهلها بالثواب فى الآخرة، وقيل: فى الآية تقديم وتأخير والاصل وكانوا أهلها وأحق بها، وكذلك هى فى مصحف الحرث بن سويد صاحب ابن مسعود وهو الذى دفن مصحفه لمخالفته الامام أيام الحجاج وكان من كبار تابعى الكوفة وثقاتهم، وقيل: ضمير (كانوا) عائد على كفار مكة أى وكان أولئك الكفار الذين جعلوا فى قلوبهم الحمية أحق بكلمة التقوى لأنهم أهل حرم الله تعالى ومنهم رسوله ﷺ وقد تقدم انذارهم لولا ماسلبوا من التوفيق، وفيه مافيه سواء رجع ضمير (الزمهم) إلى كفار مكة أيضاً أم لا، وأظن فى قائله نزغة رافضية دعته إلى ذلك لكنه لايتم به غرضه، وقيل: ضمير (كانوا) للمؤمنين إلا أن ضميرى

(بها وأهلها) للسكينة ، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع ، وقيل : هما لمكة أى وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها وأهلها ، واشعر بذكر مكة ذكر المسجد الحرام فى قوله تعالى : (وصدوكم عن المسجد الحرام) وكذا محل الهدى فى قوله سبحانه : (والهدى معكوفا أن يبلغ محله) وفيه مالا يخفى ﴿ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ٢٦ ﴾ فيعلم سبحانه حق كل شيء واستئهاله لما يستأهله فيسوق عز وجل الحق إلى مستحقه والمستأهل إلى مستأهله أو فيعلم هذا ويعلم ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من انزال السكينة والرضا بالصلح فيكون تذييلا لجميع ماتقدم .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا ﴾ رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنام قبل خروجه إلى الحديبية ، وأخرج ابن المنذر . وغيره عن مجاهد أنه عليه الصلاة والسلام رأى وهو فى الحديبية ـ والاول أصح ـ أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق فلما تأخر ذلك قال على طريق الاعتراض عبدالله ابن أبى . وعبد الله بن نفيل . ورفاعة بن الحرث : والله ماحلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت . وقد روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه ، وفى رواية ان رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم أنما كانت إن ملكا جاءه فقال له : (لتدخلن) الخ ، والمعنى لقد صدقه سبحانه فى رؤياه على انه من باب الحذف والايصال كما فى قولهم : صدقنى سن بكره ، وتحقيقه أنه تعالى أراه الرؤيا الصادقة .

وقال الراغب : الصدق يكون بالقول ويكون بالفعل وما فى الآية صدق بالفعل وهو التحقيق أى حقق سبحانه رؤيته . وفى شرح الكرمانى كذب يتعدى إلى مفعولين يقال : كذبنى الحديث وكذا صدق كما فى الآية ، وهو غريب لتعدى المثقل لواحد والمخفف لمفعولين انتهى . وفى البحر صدق يتعدى إلى اثنين الثانى منهما بنفسه وبحرف الجر تقول صدقت زيداً الحديث وصدقته فى الحديث ، وقد عدها بعضهم فى اخوات استغفر وأمر والمشهور ماأشرنا اليه أولا ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ صفة لمصدر محذوف أى صدقا ملتبسا بالحق أى بالفرض الصحيح والحكمة البالغة وهو ظهور حال المتزلزل فى الايمان والراسخ فيه ، ولأجل ذلك أخر وقوع الرؤيا إلى العام القابل أو حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الاحلام ، وجوز كونه حالا من الاسم الجليل وكونه حالا من (رسوله) وكونه ظرفا لغوا ـ لصدق ـ وكونه قسما بالحق الذى هو من أسمائه عز وجل أو بنقيض الباطل ، وقوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ عليه جواب القسم والوقف على (الرؤيا) وهو على جميع ماتقدم جواب قسم مقدر والوقف على (الحق) أى والله لتدخلن الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنْ شَاءَ اللّهُ ﴾ تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد ، وبه ينحل مايقال : إنه تعالى خالق للاشياء كلها وعالم بها قبل وقوعها فكيف وقع التعليق منه سبحانه بالمشيئة ، وفى معنى ماذكر قول ثعلب : استثنى سبحانه وتعالى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون .

وفيه تعريض بأن وقوع الدخول من مشيئته تعالى لا من جلادتهم وتدبيرهم ، وذكر الخفاجى أنه قد وضع فيه الظاهر موضع الضمير وأصله لتدخلنه لامحالة إلا إن شاء عدم الدخول فهو وعدلهم عدل به عن ظاهره لأجل التعريض بهم والانكار على المعترضين على الرؤيا فيكون من باب الكناية انتهى . وقد أجيب عن السؤال بغير ذلك فقيل : الشك راجع إلى المخاطبين ، وفيه شيء ستعلمه قريبا ان شاء الله تعالى ؛ وقال الحسين بن الفضل :

أن التعليق راجع إلى دخولهم جميعا وحكى ذلك عن الجبائى ، وقيل : إنه ناظر الى الامن فهو مقدم من تأخير أي لتدخلنه حال كونكم ﴿ ءَامنينَ ﴾ من العدو إن شاء الله . وردهما فى الكشف فقال : أما جعله قيد دخولهم بالاسر أو الامن ففيه أن السؤال بعد باق لأن الدخول المخصوص أيضا خبر من الله تعالى وهو ينافى الشك ، وليس نظير قول يوسف عليه السلام : (ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) إذ لا يبعد أن لا يعرف عليه السلام مستقر الامر من الامن أو الخوف فاما أن يؤول بأن الشك راجع إلى المخاطبين أو بأنه تعليم ، والثانى أولى لأن تغليب الشاكين لا يناسب هذا المساق بل الامر بالعكس . ودفع وروده على الحسين بأن المراد أنه فى معنى ليدخلنه من شاء الله دخوله منكم فيكون كناية عن أن منهم من لا يدخله لأن أجله يمنعه منه فلا يلزم الرجوع لما ذكر .

وقيل : هو حكاية لما قاله الملك الرؤيا له صلى الله عليه وسلم واليه ذهب ابن كيسان أو لما قاله هو عليه الصلاة والسلام لأصحابه . ورده صاحب التقريب بأنه كيف يدخل فى كلامه تعالى ماليس منه بدون حكاية . ودفع بأن المراد أن جواب القسم بيان للرؤيا وقائلها فى المنام الملك وفى اليقظة الرسول صلى الله عليه وسلم فهى فى حكم المحكى فى دقيق النظر كأنه قيل : وهى قول الملك أو الرسول لتدخلن الخ ، وأنت تعلم أن هذا وإن صحح النظم الكريم لا يدفع البعد ، وقد اعترض به على ذلك صاحب الكشف لكنه ادعى إن كونه حكاية ماقاله الرسول عليه الصلاة والسلام أقل بعداً من جعله من قول الملك ، وقال أبو عبيدة . وقوم من النحاة : (إن) بمعنى إذ وجعلوا من ذلك قوله تعالى : (وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين) وقوله صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور : « أنتم السابقون وانا ان شاء الله بكم لاحقون » والبصريون لا يرتضون ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال كآمنين من الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين من قوله تعالى : (لتدخلن) إلا أن آمنين حال مقارنة وهذا حال مقدرة لأن الدخول فى حال الاحرام لا فى حال الحلق والتقصير ، وجوز أن يكون حالا من ضمير (آمنين) والمراد محلقا بعضكم رأس بعض ومقصراً آخرون فى الكلام تقدير أو فيه نسبة ما للجزء إلى الكل ، والقرينة عليه أنه لا يجتمع الحلق وهو معروف والتقصير وهو أخذ بعض الشعر فلابد من نسبة كل منهما لبعض منهم ، وقوله تعالى : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال من فاعل (لتدخلن) أيضاً لبيان الامن بعد تمام الحج و (آمنين) فيما تقدم لبيان الامن وقت الدخول فلا تكرار أو حال من الضمير المستتر فى (آمنين) فان أريد به معنى آمنين كان حالا مؤكدة ، وان أريد لا تخافون تبعة فى الحلق أو التقصير ولا نقص ثواب فهو حال مؤسسة ، ولا يخفى الحال إذا جعل حالا من الضمير فى (محلقين) أو (مقصرين) ، وجوز أن يكون استئنافا بيانيا فى جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فكيف الحال بعد الدخول؟ فقيل : لا تخافون أى بعد الدخول .

واستدل بالآية على أن الحلق غير متعين فى النسك بل يجزىء عنه التقصير ، وظاهر تقديمه عليه أنه أفضل منه وهو الذي دلت عليه الأخبار فى غير النساء . أخرج الشيخان . وأحمد . وابن ماجه عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اغفر للمحلقين قالوا : يارسول الله والمقصرين قال : اللهم اغفر للمحلقين ثلاثا قالوا : يارسول الله والمقصرين قال : والمقصرين » وأما فى النساء فقد أخرج أبو داود . والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ليس على النساء حلق وإنما على النساء التقصير » والسنة فى الحلق أن

يبدأ بالجانب الأيمن ، فقد اخرج ابن أبي شيبة عن أنس أنه رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال للحلاق هكذا وأشار بيده الى جانب الأيمن وإن يبلغ به إلى المظمين كما قال عطاء .

وأخرج ابن أبي شيبة أيضا عن ابن عباس . وابن عمر رضي الله تعالى عنهم أنهما كانا يقولان للحلاق ابدأ بالأيمن وابلغ بالحلق العظمين ، واستدل بالآية أيضا على أن التقصير بالرأس دون اللحية وسائر شعر البدن إذ الظاهر أن المراد ومقصرين رؤسكم أي شعرها لظهور أن الرؤس أنفسها لا تقصر ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ الظاهر عطفه على (لقد صدق) فالترتيب باعتبار التعلق الفعلي بالمعلوم أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة مالم تعلموا من الحكمة الداعية لتقديم ما يشهد للصدق علما فعلياً ، وقيل : الفاء للترتيب الذكري ﴿ فَجَعَلَ ﴾ لأجل هذا العلم ﴿ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ ﴾ أي من دون تحقق مصداق ما أراه من دخول المسجد الحرام آمنين الخ ، وقيل : أي من دون فتح مكة ، والأول أظهر، وهذا أنسب بقوله تعالى: ﴿ فَتْحًا قَرِيبًا ٢٧ ﴾ وهو فتح خيبر كما قال ابن زيد . وغيره ، والمراد بجعله وعده تعالى وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا وتستروح قلوب المؤمنين إلى تيسر وقوعها .

وقال في الكشاف : (مالم تعلموا) أي من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل، وفيه أمران. الأول أن فتح مكة لم يقع في العام الذي قاله بل في السنة الثامنة. والتجوز في العام القابل أو تأويل الفتح بدخول المؤمنين مكة معتمرين لا يخفى حاله . الثاني إباء الفاء عما ذكر لأن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعا .

وأجيب عن هذا بالتزام كون الفاء للترتيب الذكري أو كون المراد فأظهر معلومه لكم وهو الحكمة فتدبر .

ونقل عن كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن الفتح القريب في الآية هو بيعة الرضوان ، وقال مجاهد . وابن إسحق : هو فتح الحديبية ، ومن الغريب ماقيل : إن المراد به فتح مكة مع أنه لم يكن دخول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه دون مكة على أنه مناف للسياق كما لا يخفى .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ﴾ أي ملتبساً به على أن الباء للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال من المفعول ، والتباسه بالهدى بمعنى أنه هاد ، وقيل : أي مصاحبا للهدى ، والمراد به الدليل الواضح والحجة الساطعة أو القرآن ، وجوز أن تكون الباء للسببية أو للتعليل وهما متقاربان ، والجار والمجرور متعلق بأرسل أي أرسله بسبب الهدى أو لأجله ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ وبدين الاسلام ، والظاهر أن المراد به مايعم الأصول والفروع ، وجوز أن يراد بالهدى الاصول وبدين الحق الفروع فان من الرسل عليهم السلام من لم يرسل بالفروع وإنما أرسل بالاصول وتبيانها ، والظاهر أن المراد بالحق نقيض الباطل ، وجوز أن يراد به ما هو من أسمائه تعالى أي ودين الله الحق، وجوز الإمام غير ذلك أيضا ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده أي ما يدان به من الشرائع والملل فيشمل الحق والباطل، وأصل الاظهار جعل الشيء على الظهر فلذا كنى به عن الاعلاء وعن جعله باديا للرائي ثم شاع في ذلك حتى صار حقيقة عرفية ، وإظهاره على الحق بنسخ بعض أحكامه المتبدلة بتبدل الاعصار ، وعلى الباطل ببيان بطلانه ، وجوز غير واحد ـ ولعله الأظهر بحسب المقام ـ أن يكون إظهاره على الدين بتسليط المسلمين على جميع أهل الاديان

وقالوا: مامن أهل دين حاربوا المسلمين إلا وقد قهرهم المسلمون، ويكفي في ذلك استمرار ماذكر زمانا معتداً به كما لايخفى على الواقفين على كتب التواريخ والوقائع، وقيل: إن تمام هذا الاعلاء عند نزول عيسى عليه السلام وخروج المهدي رضي الله تعالى عنه حيث لا يبقى حينئذ دين سوى الاسلام، ووقوع خلاف ذلك بعد لايضر اما لنحو ما سمعت وإما لأن الباقي من الدنيا إذ ذاك كلا شيء، وفي الجملة فضل تأكيد لما وعدالله تعالى به من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه تعالى سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الاقاليم مايستقلون بالنسبة إليه فتح مكة ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ٢٨ ﴾ على أن ماعده عز وجل من اظهار دينه على جميع الاديان أوالفتح كائن لا محالة أو كفى بالله شهيدا على رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه عليه الصلاة والسلام ادعاها وأظهر الله تعالى المعجزة على يده وذلك شهادة منه تعالى عليها، واقتصر على هذا الوجه الرازي وجعل ذلك تسلية عما وقع من سهيل بن عمرو إذ لم يرض بكتابة محمد رسول الله وقال ماقال *

وجعل بعض الافاضل اظهار المعجزة شهادة منه تعالى على تحقق وعده عز وجل أيضا ولا يظهر إلا بضم إخباره عليه الصلاة والسلام به *

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ أي هو أو ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد على ان الاسم الشريف خبر مبتدأ محذوف و(رسول الله) عطف بيان أو نعت أو بدل، والجملة استئناف مبين لقوله تعالى: (هو الذي ارسل رسوله) وهذا هو الوجه الارجح الانسب بالمساق كما في الكشف ويؤيده نظرا الى بعض مايأتي من الاوجه ان شاء الله تعالى قراءة ابن عامر في رواية (رسول) بالنصب على المدح، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ مبتدأ خبره قوله سبحانه: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وقال أبو حيان: الظاهر ان (محمد رسول الله) مبتدأ وخبر والجملة عليه مبينة للمشهود به، أما على كونه الرسالة فظاهر، وأما على كونه محقق الوعد فقيل: لأن كينونة ماوعده لازمة لكونه عليه الصلاة والسلام رسول الله اذهو لايوعد الا بما هو محقق ولايخبر الا عن كل صدق *

وجوز كون (محمد) مبتدأ و(رسول) تابعاله (والذين معه) عطفاعليه والخبر عنه وعنهم قوله تعالى: (اشداء) الخ وقرأ الحسن (اشداء. رحماء) بنصبهما فقيل على المدح وقيل على الحال، والعامل فيهما العامل في (معه) فيكون الخبر على هذا الوجه جملة (تراهم) الآتي وكذا خبر (الذين) على الوجه الاول، والمراد بالذين معه عند ابن عباس من شهد الحديبية، وقال الجمهور: جميع أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم، و(اشداء) جمع شديد و(رحماء) جمع رحيم، والمعنى ان فيهم غلظة وشدة على اعداء الدين ورحمة ورقة على اخوانهم المؤمنين، وفي وصفهم بالرحمة بعد وصفهم بالشدة تكميل واحتراس فانه لو اكتفي بالوصف الاول لربما توهم ان مفهوم القيد غير معتبر فيتوهم الفظاظة والغلظة مطلقا فدفع بارادف الوصف الثاني، ومآل ذلك أنهم مع كونهم أشداء على الاعداء رحماء على الاخوان، ونحوه قوله تعالى: (أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين) وعلى هذا قوله:

حليم اذا ما الحلم زين اهله ... على انه عند العدو مهيب

وقد بلغ كما روي عن الحسن من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم انه كان لايرى مؤمن مؤمنا الا صافحه وعانقه، والمصافحة لم يختلف فيها الفقهاء. أخرج أبو داود عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: اذا التقى المسلمان

فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما» وفي رواية الترمذي «مامن مسلمين يلتقيان فيتصافحان ألا غفر لهما قبل ان يتفرقا» وفي الاذكار النووية انها مستحبة عند كل لقاء وأما ما اعتاده الناس بعد صلاتي الصبح والعصر فلا أصل له ولكن لابأس به، فان أصل المصافحة سنة وكونهم محافظين عليها في بعض الاحوال ومفرطين في كثير منها لايخرج ذلك البعض عن كونه من المصافحة التي ورد الشرع باصلها، وجعل ذلك العز بن عبد السلام في قواعده من البدع المباحة، وأطال الشيخ ابراهيم الكوراني قدس سره الكلام في ذلك ، وأما المعانقة فقال الزمخشري: كرهها أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وكذلك التقبيل قال: لااحب ان يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئا من جسده، ورخص أبو يوسف عليه الرحمة المعانقة، ويؤيد ما روى عن الامام ما أخرجه الترمذي عن انس قال: « سمعت رجلا يقول لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: يارسول الله الرجل منا يلقى أخاه أينحني له؟ قال: لا قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا قال: أياخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم» وفي الاذكار التقبيل وكذا المعانقة لابأس به عند القدوم من سفر ونحوه، ومكروه كراهة تنزيه في غيره، وللامرد الحسن حرام بكل حال *

أخرج الترمذي وحسنه عن عائشة قالت : قدم زيد بن خالد بن حارثة المدينة ورسول الله في بيتي فقرع الباب فقام اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجر ثوبه فاعتنقه وقبله ، وزاد رزين في حديث انس السابق بعد قوله: ويقبله قال: «لا الا أن يأتي من سفره» وروى أبو داود سئل أبو ذر هل كان صلى الله تعالى عليه وسلم يصافحكم اذا لقيتموه؟ قال: مالقيته قط الا صافحني وبعث الى ذات يوم ولم أكن في اهلي فجئت فاخبرت أنه ﷺ أرسل الى فاتيته وهو على سريره فالتزمني فكانت أجود أجود، وهذا يؤيد الاطلاق المحكي عن أبي يوسف، وينبغي التأسي بهم رضي الله تعالى عنهم في التشدد على اعداء الدين والرحمة على المؤمنين. وقد اخرج ابن أبي شيبة. وأبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعا «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا» واخرجاهما. وأحمد. وابن حبان. والترمذي وحسنه عن أبي هريرة قال: « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: لاتنزع الرحمة الامن شقي» ولابأس بالبر والاحسان على عدو الدين إذا تضمن مصلحة شرعية كما أفاد ذلك ابن حجر في فتاويه الحديثية فليراجع . وقرأ يحيى بن يعمر (أشدا) بالقصر وهي قراءة شاذة لأن قصر الممدود في الشعر نحو قوله :

* لابد من صنعا وان طال السفر * وقوله تعالى: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ خبر آخر- للذين- أو استئناف ويجوز فيه غير ذلك على مالايخفى، والرؤية بصرية، والخطاب لكل من تتأتى منه، و(ركعا سجدا) حال من المفعول، والمراد تراهم مصلين، والتعبير بالركوع والسجود عن الصلاة مجاز مرسل، والتعبير بالمضارع الاستمرار وهو استمرار عرفي ، ومن هنا قال في البحر : هذا دليل على كثرة الصلاة منهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي ثوابا ورضا، والجملة اما خبر آخر أو حال من مفعول (تراهم) أو من المستتر في (ركعا سجدا) أو استئناف مبني على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل: ماذا يريدون بذلك؟ فقيل: يبتغون فضلا الخ *

وقرأ عمرو بن عبيد (ورضوانا) بضم الراء ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ أي علامتهم وقرىء (سيمياؤهم) بزيادة ياء بعد الميم والمد وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر قال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعا   له سيمياء لا تشق على البصر

وجاء سيماء بالمد واشتقاقها من السومة بالضم العلامة تجعل على الشاة والياء مبدلة من الواو ، وهي مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿فِى وُجُوهِهِمْ﴾ أي فى جباههم أو هي على ظاهرها ، وقوله سبحانه : ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ حال من المستكن فى الجار والمجرور الواقع خبراً لسيماهم أو بيان لها أي سيماهم التى هي أثر السجود ، ووجه اضافته الاثر الى السجود انه حادث من التأثير الذى يؤثره السجود ، وشاع تفسير ذلك بما يحدث فى جبهة السجاد مما يشبه أثر الكي وثفنة البعير وكان كل من العليين على بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن عباس أبى الاملاك رضى الله تعالى عنهما يقال له ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدث فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير وهى مايقع على الارض من اعضائه اذا غلظ ، وما روى من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تعلبوا صوركم أي لا تسموها من العلب بفتح العين المهملة وسكون اللام الأثر ، وقول ابن عمر وقد رأى رجلا بأنفه أثر السجود : ان صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك فذلك إنما هو إذا اعتمد بجبهته وأنفه على الارض لتحدث تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق يستعاذ بالله تعالى منه ، والكلام فيما حدث فى وجه السجاد الذى لا يسجد الا خالصا لوجه الله عزوجل ، وأنكر بعضهم كون المراد بالسيما ذلك ☆

أخرج الطبرانى . والبيهقى فى سننه عن حميد بن عبدالرحمن قال : كنت عند السائب بن يزيد اذ جاء رجل وفى وجهه اثر السجود فقال : لقد أفسد هذا وجهه اما والله ماهى السيما التى سمى الله تعالى ولقد صليت على وجهى منذ ثمانين سنة ما اثر السجود بين عينى ، وربما يحمل على انه استشعر من الرجل تعمداً لذلك فنفى ان يكون ما حصل به هو السيما التى سمى الله تعالى ، ونظيره ماحكى عن بعض المتقدمين قال : كنا نصلى فلا يرى بين اعيننا شئ ونرى أحدنا الآن يصلى فترى بين عينيه ركبة البعير فما ندرى أثقلت الارؤس ام خشنت الارض ☆

واخرج ابن جرير . وجماعة عن سعيد بن جبير انه قال : هذه السيما ندى الطهور وتراب الارض ، وروى نحوه عن سعيد بن المسيب . وأخرج سعيد بن منصور . وعبد بن حميد . وابن جرير عن مجاهد انه قال : ليس له اثر فى الوجه ولكنه الخشوع ، وفى رواية هى الخشوع والتواضع ، وقال منصور : سألت مجاهداً أهذه السيما هى الاثر يكون بين عينى الرجل قال : لا وقد يكون مثل ركبة البعير وهو اقسى قلبا من الحجارة ، وقيل : هى صفرة الوجه من سهر الليل وروى ذلك عن عكرمة . والضحاك ، وروى السلمى عن عبد العزيز المكى ليس ذاك هو النحول والصفرة ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين يبدو من باطنهم على ظاهرهم يتبين ذلك للمؤمنين ولو كان فى زنجى اوحبشى ، وقال عطاء : والربيع بن انس : هو حسن يعترى وجوه المصلين ، وأخرج ابن المنذر . وابن جرير . وابن أبى حاتم . والبيهقى فى سننه عن ابن عباس قال : السمت الحسن ، وعن بعضهم ترى على وجوههم هيبة لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم ، والذاهبون إلى هذه الاقوال قائلون : إن المراد علامتهم فى وجوههم وهم فى الدنيا ، وقال غير واحد : هذه السيما فى الآخرة ، أخرج البخارى فى تاريخه . وابن نصر عن ابن عباس أنه قال فى الآية : بياض يغشى وجوههم يوم القيامة . وأخرج ابن نصر . وعبد بن حميد . وابن جرير عن الحسن مثله ، وأخرجوا عن عطية العوفى قال : موضع السجود اشد وجوههم بياضا ، وأخرج الطبرانى فى الاوسط والصغير . وابن مردويه بسند حسن عن أبى بن كعب قال : « قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) النور يوم القيامة » ولا يبعد ان يكون النور علامة فى وجوههم فى الدنيا والآخرة

لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي ﷺ بالذكر ، وإذا صح الحديث فهو مذهبي . وقرأ ابن هرمز (إثر) بكسر الهمزة وسكون الثاء وهو لغة في أثر . وقرأ قتادة من (آثار) بالجمع ﴿ ذَلِكَ ﴾ اشارة إلى ماذكر من نعوتهم الجليلة ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وبعد منزلته في الفضل ، وقيل : البعد باعتبار المبتدأ أعنى (أشداء) ولو قيل هذا لتوهم أن المشار اليه هو النعت الاخير - أعنى (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) - وهو مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ أى وصفهم العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى الامثال ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فِى التَّوْرَاةِ ﴾ حال من (مثلهم) والعامل معنى الاشارة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ ﴾ عطف على (مثلهم) الأول كأنه قيل : ذلك مثلهم فى التوراة والانجيل ، وتكرير (مثلهم) لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها ، وقرىء (الأنجيل) بفتح الهمزة ، وقوله عز وجل : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ الخ تمثيل مستأنف أى هم أو مثلهم كزرع الخ فالوقف على (الانجيل) وهذا مروى عن مجاهد ، وقيل : (مثلهم) الثانى مبتدأ وقوله تعالى : (كزرع) الخ خبره فالوقف على (التوراة) وهذا مروى عن الضحاك . وابى حاتم . وقتادة ، وجوز أن يكون ذلك اشارة مبهمة أوضحت بقوله تعالى : (كزرع) الخ كقوله تعالى : (وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) فعلى الاول والثالث (مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل) شىء واحد إلا أنه على الاول (أشداء على الكفار رحماء بينهم) الخ ، وعلى الثالث (كزرع اخرج شطأه) الخ وعلى الثانى (مثلهم فى التوراة) شىء وهو (اشداء) الخ ومثلهم فى الانجيل شىء آخر وهو (كزرع) الخ .

واعترض الوجه الثالث بأن الاصل فى الاشارة أن تكون لمتقدم وإنما يشار إلى المتأخر إذا كان نعتا لاسم الاشاره نحو (ذلك الكتاب) ، وفيه أن الحصر ممنوع ، والشطء فروخ الزرع كما قال غير واحد وهو ماخرج منه وتفرع فى شاطئيه أى فى جانبيه ؛ وجمعه كما قال الراغب اشطاء ، وقال قطرب : شوك السنبل يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، وقال الكسائى . والاخفش : طرفه ، وأنشدوا :

اخرج الشطء على وجه الثرى ومن الاشجار افنان الثمر

وزعم أبو الفتح أن الشطء لا يكون الا فى البر والشعير ، وقال صاحب اللوامح : شطأ الزرع وأشطأ إذا اخرج فراخه وهو فى الحنطة والشعير وغيرهما ، وفى البحر اشطأ الزرع افرخ والشجرة اخرجت غصونها ه وفى القاموس الشطء فراخ النخل والزرع أو ورقه جمعه شطوء ، وشطأ كمنع شطأ وشطوأ اخرجها ، ومن الشجر ماخرج حول أصله وجمعه اشطاء ، وأشطأ اخرجها اه ، وفيه مايرد به على أبى الفتح مع زيادة لاتخفى فائدتها فلا تغفل .

وقرأ ابن كثير . وابن ذكوان (شطأه) بفتح الطاء . وقرأ ابو حيوة . وابن أبى عبلة . وعيسى الكوفى كذلك وبالمد . وقرأ زيد بن على كذلك أيضا وبالف بدل الهمزة فاحتمل أن يكون مقصورا وإن يكون أصله الهمز فنقل الحركة وابدل الهمزة ألفا كما قالوا فى المرأة والكمأة المراة والكماة ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين وعند البصريين شاذ لا يقاس عليه ، وقرأ ابو جعفر (شطه) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء ، وروبت عن شيبة . ونافع . والجحدرى ، وعن الجحدرى أيضا (شطوه) باسكان الطاء وواو بعدها ، قال أبو الفتح : هى لغة أو بدل من الهمزة ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى أعانه وقواه قاله الحسن . وغيره ، قال الراغب : وأصله من شد الازار

يقال : أزرته أي شددت ازاره ويقال : آزرت البناء وأزرته قويت أسافله ، وتأزر النبات طال وقوى * وذكر غير واحد أنه امامن المؤازرة بمعنى المعاونة أومن الايزار وهى الاعانة . وفى البحر (آزر) أفعل كما حكى عن الاخفش ، وقول مجاهد . وغيره فاعل خطأ لأنه لم يسمع فى مضارعه الايوزر على وزن يكرم دون يوازره وتعقب بان هذه شهادة نفى غير مسموعة على انه يجوز ان يكون ورد من بابين واستغنى باحدهما عن الآخر ومثله كثير ، مع أن السرقسطى نقله عن المازنى لكنه قال : يقال آزر الشيء غيره أى ساواه وحاذاه ، وأنشد لامرىء القيس ه بمحنية قد آزر الضال نبتها بجر جيوش غانمين وخيب

وجعل ما فى الآية من ذلك ، وهو مروى أيضا عن السدى قال : آزره صار مثل الاصل فى الطول ، والجمهور على مانقل أولا . والضمير المرفوع فى (آزره) للشطء والمنصوب للزرع أى فقوى ذلك الشطء الزرع ، والظاهر ان الاسناد فى (أخرج وآزر) مجازى وكون ذلك من الاسناد الى الموجب ، وهو حقيقة على ماذهب اليه السالكوتى فى حواشيه على المطول حيث قال فى قولهم : سرتنى رؤيتك . هذا القول مجاز اذا اريد منه حصول السرور عند الرؤية أما اذا اريد منه أن الرؤية موجبة للسرور فهو حقيقة لايخفى حاله . وقرأ ابن ذكوان (فأزره) ثلاثيا . وقرىء (فأزره) بشد الزاى أى فشد أزره وقواه ﴿ فَاسْتَغْلَظَ ﴾ فصار من الدقة الى الغلظ ، وهو من باب استنوق الجمل ، ويحتمل أن يراد المبالغة فى الغلظ كما فى استعصم ونحوه ، وأوثر الأول لأن المساق ينبىء عن التدرج ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ فاستقام على قصبه وأصوله جمع ساق نحو لابة ولوب وقارة وقور . وقرأ ابن كثير (سؤقه) بابدال الواو المضموم ما قبلها همزة ، قيل : وهى لغة ضعيفة ، ومن ذلك قوله :

* أحب المؤقدين إلى موسى * ﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره ، والجملة فى موضع الحال أى معجبا لهم ، وخصهم تعالى بالذكر لأنه إذا أعجب الزراع وهم يعرفون عيوب الزرع فهو احرى أن يعجب غيرهم ، وهنا تم المثل وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابة رضى الله تعالى عنهم قلوا فى بدء الاسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوماً فيوما بحيث أعجب الناس ، وهذا مااختاره بعضهم وقد أخرجه ابن جرير . وابن المنذر ، عن الضحاك . وابن جرير . وعبد بن حميد عن قتادة ، وذكرا عنه أنه قال أيضاً : مكتوب فى الانجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وفى الكشاف هو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الاسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأن النبي ﷺ قام وحده ثم قواه الله تعالى بمن معه كما يقوى الطاقة الأولى مايحتف بها مما يتولد منها ، وظاهره ان الزرع هو النبي ﷺ والشطء أصحابه رضى الله تعالى عنهم فيكون مثلا له عليه الصلاة والسلام وأصحابه لا لأصحابه فقط كما فى الأول ولكل وجهة ، وروى الثانى عن الواقدى ، وفى خبر أخرجه ابن جرير . وابن مردويه عن ابن عباس ما يقتضيه *

وقوله تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ علة لما يعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على الوجه الذى تضمنه التمثيل ، وظاهر كلام بعضهم أنه علة للتمثيل وليس بذاك ، وقيل : علة لما بعده من قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢٩ ﴾ فان الكفار إذا سمعوا بما اعد الله تعالى للمؤمنين فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزة غاظهم ذلك ، وهو مع توقف تماميته بحسب الظاهر على

كون الكفار مستيقنين بالآخرة ومتحققين كون الوعد منه عز وجل بعيد ، وضمير (منهم) لمن عاد عليه الضمائر السابقة ، و(من) للبيان مثلها في قوله تعالى : (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) وليس مجيئها كذلك مخصوصا بما إذا كانت داخلة على ظاهر كما توهم صاحب التحفة الاثنى عشرية في الكلام على قوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) فقال : حمل (من) للبيان إذا كان داخلا على الضمير مخالف لاستعمال العرب ، وأنكر ذلك عليه صاحب الترجمة لكن قال : لو ادعى هذا الخلاف في ضميري الخطاب والتكلم لم يبعد .

ومن مجيئها للبيان داخلة على ضمير الغائب قوله تعالى : (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم) عند القائلين بان ضمير (تزيلوا) للمؤمنين لا للتبعيض كما يقوله الشيعة الزاعمون ارتداد أكثر الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أهل بيعة الرضوان وغيرهم ، فان مدحهم السابق بما يدل على الاستمرار التجددي كقوله تعالى : (تراهم ركعاً سجدا) ووصفهم بما يدل على الدوام والثبات كقوله سبحانه :(والذين معه أشداء على الكفار) يأبى التبعيض والارتداد الذين زعموه عند من له أدنى انصاف وشمة من دين ، ويزيد زعمهم هذا سقوطا عن درجة الاعتبار أن مدحهم ذلك قد كتبه الله تعالى في التوراة قبل أن يخلق السموات والأرض ، ولا يكاد عاقل يقبل انه تعالى اطلق المدح وكتبه لأناس لم يثبت على تلك الصفة إلا قليل منهم ، وإذا قلنا : إن هؤلاء الممدوحين هم أهل بيعة الرضوان الذين بايعوه عليه الصلاة والسلام في الحديبية كما يشعر به (والذين معه) لاسيما على القول بان السورة بتمامها نزلت عند منصرفه عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل أن يتفرقوا عنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان سقوط ذلك الزعم ابين وأبين لأن الارتداد الذي يزعمونه كان لترك مبايعة على كرم الله تعالى وجهه بعد وفاة رسول الله ﷺ مع العلم بالنص على خلافته بزعمهم ومبايعة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وكيف يكون ذلك ارتدادا والله عز وجل حين رضي عنهم علم أنهم يفعلونه ، والقول بانه سبحانه إنما رضي عن مبايعتهم أو عنهم من حيث المبايعة ولم يرض سبحانه عنهم مطلقا لأجلها خلاف ظاهر الآية ، والظاهر معنا ، ولا يمكر عليه صدور بعض المعاصي من بعضهم بعد وإنما يمكر صدور ما لا يجامع الرضا أصلا كالارتداد والعياذ بالله تعالى ، وبالجملة جعل (من) للتبعيض ليتم للشيعة مازعموه مما يأباه الكتاب والسنة وكلام العترة . وفي التحفة الاثنى عشرية من ذلك ما تنشرح له الصدور وتزداد به قلوب المؤمنين نورا على نور ، وياسبحان الله أين جعل (من) للتبعيض من دعوى الارتداد ، ولكن من يضلل الله فماله من هاد ، وتاخير (منهم) هنا عن «عملوا الصالحات» وتقديم «منكم» عليه في آية النور التي ذكرناها آنفا لأن عمل الصالحات لا ينفك عنهم ، وذلك ثمت لبيان الخلفاء والعمل الصالح ليس موقوفا عليه لاستمرار صحة خلافتهم حتى لا ينعزلوا بالفسق ، وقال ابن جرير : «منهم» يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع وهم الداخلون في الاسلام إلى يوم القيامة فاعاد الضمير على معنى الشطء وكذلك فعل البغوي ولا يخفى بعده .

هذا وفي المواهب أن الامام مالكا قد استنبط من هذه الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فانهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة فهو كافر ، ووافقه كثير من العلماء انتهى . وفي البحر ذكر عند مالك رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية فقال : من أصبح من الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية ، ويعلم تكفير الرافضة بخصوصهم ، وفي كلام عائشة

رضى الله تعالى عنها ما يشير اليه أيضاً ، فقد أخرج الحاكم وصححه عنها فى قوله تعالى : (ليغيظ بهم الكفار) قالت : أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم ، وعن بعض السلف جعل جمل الآية كل جملة مشيرة إلى معين من الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، فعن عكرمة أنه قال : (أخرج شطأه) بأبى بكر (فآزره) بعمر (فاستغلظ) بعثمان (فاستوى على سوقه) بعلى رضى الله تعالى عنهم أجمعين ٭

وأخرج ابن مردويه . والقاضى أحمد بن محمد الزهرى فى فضائل الخلفاء الأربعة . والشيرازى فى الألقاب عن ابن عباس (محمد رسول الله والذين معه) أبو بكر (أشداء على الكفار) عمر (رحماء بينهم) عثمان (تراهم ركعا سجدا) على كرم الله تعالى وجهه (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) طلحة والزبير (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) عبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبى وقاص . وأبو عبيده بن الجراح (ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره) بأبى بكر (فاستغلظ) بعمر (فاستوى على سوقه) بعثمان (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) بعلى كرم الله تعالى وجهه (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) جميع أصحاب محمد ﷺ ٭

وأخرج ابن مردويه . والخطيب . وابن عساكر عنه رضى الله تعالى عنه أيضا فى قوله تعالى : (كزرع) قال : أصل الزرع عبد المطلب (أخرج شطأه) محمد صلى الله تعالى عليه وسلم (فآزره) بأبى بكر (فاستغلظ) بعمر (فاستوى على سوقه) بعثمان (ليغيظ بهم الكفار) بعلى رضى الله تعالى عنه ، وكل هذه الأخبار لم تصح فيما أرى ولا ينبغى تخريج ما فى الآية عليها ، وأعتقد أن لكل من الخلفاء رضى الله تعالى عنهم الحظ الأوفى مما تضمنته ، ومتى أريد بالزرع النبى عليه الصلاة والسلام كان حظ على كرم الله تعالى وجهه من شطأه أوفى من حظ سائر الخلفاء رضى الله تعالى عنه ، ولعل مؤازرته ومعاونته البدنية بقتل كثير من الكفرة أعدائه عليه الصلاة والسلام أكثر من مؤازرة غيره من الخلفاء أيضا ، ومع هذا لا ينخدش ما ذهب اليه محققو أهل السنة والجماعة فى مسئلة التفضيل كما لا يخفى على النبيه النبيل ، فتأمل والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل ٭

﴿ ومن باب الاشارة فى بعض الآيات ﴾ (انا فتحنا لك فتحاً مبينا) يشير عندهم إلى فتح مكة العماء بادخال الاعيان الثابتة ظاهرة بنور الوجود فيها أى اظهارها للعيان لأجله عليه الصلاة والسلام على أن لام (لك) للتعليل ، وحاصله أظهرنا العالم لأجلك وهو فى معنى ما يروونه من قوله سبحانه : (لولاك لولاك ما خلقت الافلاك) وقيل : يشير إلى فتح باب قلبه عليه الصلاة والسلام إلى حضرة ربوبيته عز وجل بتجلى صفات جماله وجلاله وفتح ما انغلق على جميع القلوب من الاسرار وتفصيل شرائع الاسلام وغير ذلك من فتوحات قلبه ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ليستر وجودك فى جميع الازمنة بوجوده جل وعلا (ويتم نعمته عليك) باثبات جميع حسنات العالم فى صحيفتك إذ كنت العلة فى اظهاره (ويهديك صراطاً مستقيما) بدعوة الخلق على وجه الجمع والفرق (وينصرك الله) على النفوس الامارة ممن تدعوهم إلى الحق (نصراً عزيزاً) قلما يشبهه نصر ، ومن هنا كان صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر الانبياء عليهم السلام تبعاً ، وكان علماء أمته كأنبياء بنى اسرائيل إلى غير ذلك مما حصل لأمته بواسطة تربيته عليه الصلاة والسلام لهم وافاضة الانوار والاسرار على نفوسهم وأرواحهم ، والمراد ليجمع لك هذه الامور فلا تغفل (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) فسروها بشىء يجمع نوراً وقوة وروحا بحيث يسكن اليه ويتسلى به الحزين والضجر ويحدث عنده القيام بالخدمة

ومحاسبة النفس وملاطفة الخلق ومراقبة الحق والرضا بالقسم والمنع من الشطح الفاحش ، وقالوا : لاتنزل السكينة الا فى قلب نبي أو ولي (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) فيحصل لهم الايمان العياني والايمان الاستدلالى البرهاني (انا أرسلناك شاهدا) على جميع المخلوقات إذ كنت أول مخلوق ، ومن هنا أحاط ﷺ علما بما لم يحط به غيره من المخلوقات لأنه عليه الصلاة والسلام شاهد خلق جميعها ، ومن هذا المقام قال عليه الصلاة والسلام: « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد » (ومبشراً ونذيراً) اذ كنت أعلم الخلق بصفات الجمال والجلال (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) يشير عندهم الى كمال فناء وجوده ﷺ و بقائه بالله عز وجل ، وأيد ذلك بقوله سبحانه : (يد الله فوق أيديهم) (سيقول لك المخلفون) المتخلفون عن السير الى قتال الانفس الامارة (من الاعراب) من سكان بوادي الطبيعة (شغلتنا أموالنا وأهلونا) العوائق و العلائق (فاستغفر لنا) اطلب من الله عز وجل ستر ذلك عنا ليتأتى لنا السير (يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) لتمكن حب ذلك فى قلوبهم وعدم استعدادهم لدخول غيره فيها :

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

(قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا) أي ان هاتيك العوائق والعلائق لاتجديكم شيئاً (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فيجازيكم عليها حسبما تقتضى الحكمة (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم) بل حسبتم أن لا يرجع العقل والقوى الروحانية من السالكين السائرين الى جهاد النفس وطلب مغانم التجليات والانس الى ما كانوا عليه من ادراك المصالح وتدبير حال المعاش وما تقتضيه هذه النشأة (وظننتم ظن السوء) بالله تعالى وشؤنه عز وجل (وكنتم) فى نفس الامر (قوما بورا) هالكين فى مهالك الطبيعة وسوء الاستعداد (سيقول المخلفون اذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) وهى مغانم التجليات ومواهب الحق لأرباب الحضرات (ذرونا نتبعكم) دعونا نسلك مسلككم لننال منالكم (يريدون أن يبدلوا كلام الله) فى حقهم من حرمانهم المغانم لسوء استعدادهم (قل لن تتبعونا كذلكم قال الله) حكم وقضى (من قبل) إذ كنتم فى عالم الاعيان الثابتة (فسيقولون) منكرين لذلك « بل تحسدوننا » ولهذا تمنعوننا عن الاتباع « بل كانوا لايفقهون الا قليلا » ولذلك نسبوا الحسد وهو من أقبح الصفات إلى ذوى النفوس القدسية المطهرة عن جميع الصفات الردية « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون » ولاتتركون سدى « الى قوم أولى بأس شديد » وهم النفس وقواها « تقاتلونهم أو يسلمون » ينقادون لحكم رسول العقل المنزه عن شوائب الوهم « فان تطيعوا » الداعى « يؤتكم الله تعالى أجراً حسنا » من أنواع المعارف والتجليات « وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما » وهو عذاب الحرمان والحجاب « ليس على الاعمى » وهو من لم ير فى الدار غيره ديارا « حرج » فى ترك السلوك والجهاد المطلوب منكم لأنه وراء ذلك (ولاعلى الاعرج) وهو من فقد شيخا كاملا سالما عن عيب فى كيفية التسليك والايصال «حرج » فى ترك السلوك أيضا ، وهو اشارة إلى ماقالوا من أن ترك السلوك خير من السلوك على يد ناقص « ولا على المريض » بمرض العشق والهيام « حرج » فى ذاك أيضاً لأنه مجذوب والجذبة خير من السلوك « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » يشير الى المجاهدين على القتل بسيف المجاهدة تحت سمرة الانفراد عن الاهل والمال ، ويقال فى أكثر الآيات الآتية نحو هذا « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار » أعداء الله عز وجل فى مقام الفرق « رحماء فيما بينهم » لقوة مناسبة بعضهم

بعضا فهم جامعون لصفتى الجلال والجمال «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود» له عز وجل وعدم السجود لشىء من الدنيا والاخرى وتلك السيما خلع الانوار الالهية ، قال عامر بن عبد قيس : كاد وجه المؤمن يخبر عن مكنون عمله وكذلك وجه الكافر «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة» سترا لصفاتهم بصفاته عز وجل (وأجراً عظيما) وهو أن يتجلى سبحانه لهم بأعظم تجلياته والافكل شىء دونه جل جلاله ليس بعظيم، وسبحانه من اله رحيم وملك كريم ✿

سورة الفتح

مدنية بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية. روى محمد بن إسحاق عن الزهريّ عن عُرْوة عن المِسْوَر بن مَخْرمة ومروان بن الحكم، قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِيَة من أوّلها إلى آخرها. وفي «الصحيحين» عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه؛ فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمّ عمر، نَزَرْتَ[1] رسول الله ﷺ ثلاث مرات كلّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر؛ فحرّكت بعيري ثم تقدّمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فيّ قرآن، فما نَشِبْتُ[2] أن سمعت صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه؛ فقال: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس ـ ثم قرأ ـ ﴿إنا فتحنا لك فَتْحاً مُبِيناً﴾». لفظ البخاريّ. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي «صحيح مسلم» عن قتادة أن أنس بن مالك حدّثهم قال: لما نزلت ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. لِيغفِر لك اللَّهُ ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخّر ويُتِمّ نِعمته عليك ويهديك صِراطاً مستقيماً ـ إلى قوله ـ فوزاً عظِيماً﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نَحر الْهَدْيَ بالحديبية، فقال: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعاً». وقال عطاء عن ابن عباس: إن اليهود شتموا النبيّ ﷺ والمسلمين لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكم﴾ وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به! فاشتد ذلك على النبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لك فَتْحاً مُبِيناً لِيغفِرَ لك اللَّهُ ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخّر﴾. ونحوه قال مقاتل

(١) أي ألححت عليه وبالغت في السؤال.

(٢) أي ما لبثت وما تعلقت بشيء.

ابن سليمان: لما نزل قوله تعالى: ﴿وما أدرِي ما يُفْعَلُ بِي ولا بِكم﴾[1] فرح المشركون والمنافقون وقالوا: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به ولا بأصحابه؛ فنزلت بعدما رجع من الحديبية ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مُبِيناً﴾ أي قضينا لك قضاء. فنسخت هذه الآيةُ تلك. فقال النبيّ ﷺ: «لقد أنزلت عليّ سورة ما يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَم». وقال المسعودي: بلغني أنه من قرأ سورة الفتح في أوّل ليلة من رمضان في صلاة التطوّع حفظه الله ذلك العام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾.

اختلف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاريّ حدّثني محمد بن بشار قال حدّثنا غُنْدَر قال حدّثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبِيناً﴾ قال: الحُدَيْبِيَة. وقال جابر: ما كنا نَعُدّ فتح مكة إلا يوم الحديبية. وقال الفرّاء[2] تعدّون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نَعُدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا نَعُدّ مع النبيّ ﷺ أربع عشرة مائة[3]، والحديبية بئر. وقال الضحاك: ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبِيناً ﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح. وقال مجاهد: هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه. وقال: كان فتح الحديبية آية عظيمة، نزح مائها فمجّ فيها فدرّت بالماء حتى شرب جميع من كان معه. وقال موسى بن عقبة: قال رجل عند مُنْصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدّونا عن البيت. فقال النبيّ ﷺ: « بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا ». وقال الشعبيّ في قوله تعالى: ﴿ إنا فتحنا لك فَتْحاً مُبِيناً ﴾ قال: هو فتح الحديبية، لقد أصاب فيها ما لم يُصب في غزوة؛ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان،

(١) آية ٩ سورة الأحقاف. (٢) في «تفسير الطبري»: «البراء».
(٣) في «تفسير الطبري: «خمس مائة».

وأطعِموا نخل خيبر، وبلغ الهَدْيُ مَحِلَّه، وظهرت الروم على فارس؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس. وقال الزهريّ: لقد كان الحديبية أعظم الفتوح؛ وذلك أن النبيّ ﷺ جاء إليها في ألف وأربعمائة، فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه؛ فما مضت تلك السنتان إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف. وقال مجاهد أيضاً والعَوْفي: هو فتح خَيْبر. والأوّل أكثر؛ وخَيْبَرُ إنما كانت وعداً وُعِدوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سيقول الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ﴾[1]، وقوله ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ﴾[2]. وقال مُجَمِّع بن جارية ـ وكان أحد القرّاء الذين قرءوا القرآن ـ: شهدنا الحديبية مع النبيّ ﷺ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس يهزون الأباعر؛ فقال بعض الناس لبعض: ما بال الناس؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيّ ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف[3] فوجدنا نبيّ الله ﷺ عند كُراع الغَمِيم[4]، فلما اجتمع الناس قرأ النبيّ ﷺ ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مُبِيناً﴾ فقال عمر بن الخطاب: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح». فقسمت خيبر على أهل الحديبية، لم يدخل أحد إلا من شهد الحديبية. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿فَتْحاً﴾ يدل على أن مكة فتحت عَنْوة[5]؛ لأن اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلا على ما فتح عَنْوةً. هذا هو حقيقة الاسم. وقد يقال: فُتح البلد صُلْحاً، فلا يفهم الصلح إلا بأن يقرن بالفتح، فصار الفتح في الصلح مجازاً. والأخبار دالة على أنها فتحت عَنْوة؛ وقد مضى القول فيها[6]، ويأتي.

[٢] ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

[٣] ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾.

---

(١) آية ١٥ من هذه السورة. (٢) آية ٢٠ من هذه السورة.
(٣) الإيجاف: سرعة السير. (٤) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة.
(٥) أي فتحت بالقتال، قوتل أهلها حتى غلبوا عليها. (٦) راجع ٨/٢.

قال ابن الأنباري: ﴿فَتْحاً مُبِيناً﴾ غير تام؛ لأن قوله ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلق بالفتح. كأنه قال: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمع الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرّ به عينك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السجستاني: هي لام القَسَم. وهذا خطأ؛ لأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومن زيد. الزَّمَخْشَرِيّ: فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت: لم يجعل علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ماعدّد من الأمور الأربعة، وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز. كأنه قال: يَسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك ليجمع لك عِزّ الدارين وأعراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدوّ سبباً للغفران والثواب. وفي الترمذي عن أنس قال: أنزلت على النبيّ ﷺ ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ مَرْجِعَه من الحديبية؛ فقال النبيّ ﷺ: «لقد أنزلت عليّ آية أحبّ إلي مما على وجه الأرض». ثم قرأها النبيّ ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، لقد بيّن الله لك ماذا يُفعل بك؛ فماذا يُفعل بنا؟ فنزلت عليه ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ـ حتى بلغ ـ فَوْزاً عَظِيماً﴾ قال حديث حسن صحيح. وفيه عن مُجمّع بن جارية. واختلف أهل التأويل في معنى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿ما تقدّم من ذنبك﴾ قبل الرسالة. ﴿وما تأخر﴾ بعدها؛ قاله مجاهد. ونحوه قال الطبري وسفيان الثوري، قال الطبري: هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ـ إلى قوله ـ توّاباً ﴾ . ﴿ لِيغفِر لك اللَّهُ ما تقدم مِن ذنبِك ﴾ قبل الرسالة ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية . وقال سفيان الثوري : ﴿ لِيَغْفِر لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾ ما عملته في الجاهلية من قبل أن يوحى إليك . ﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ كل شيء لم تعمله ؛ وقاله الواحدي . وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة ﴿البقرة﴾[1]؛ فهذا قول. وقيل:

(١) راجع ١/٣٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة.

﴿ما تقدّم﴾ قبل الفتح. ﴿وما تأخّر﴾ بعد الفتح. وقيل: ﴿ما تقدّم﴾ قبل نزول هذه الآية. ﴿وما تأخّر﴾ بعدها. وقال عطاء الخُرَاسانيّ: ﴿ما تقدّم من ذنبك﴾ يعني من ذنب أبويك آدم وحَوّاء. ﴿وما تأخّر﴾ من ذنوب أمتك. وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. ﴿وما تأخّر﴾ من ذنوب النبيين. وقيل: ﴿ما تقدّم﴾ من ذنب يوم بَدْر. ﴿وما تأخر﴾ من ذنب يوم حُنَين. وذلك أن الذنب المتقدّم يوم بدر، أنه جعل يدعو ويقول: «اللَّهُمّ إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض أبداً» وجعل يردّد هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه من أين تعلم أني لو أهلكت هذه العصابة لا أعبد أبداً؛ فكان هذا الذنب المتقدّم. وأما الذنب المتأخر فيوم حُنين، لما انهزم الناس قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: «ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي» فناولاه فأخذه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حمّ . لا ينصرون» فانهزم القوم عن آخرهم، فلم يبق أحد إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا» فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1] فكان هذا هو الذنب المتأخر. وقال أبو علي الرُّوذَبَارِيّ: يقول لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرناه لك.

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: في الجنة. وقيل: بالنبوّة والحكمة. وقيل: بفتح مكة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر وطاعة من تجبّر. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ أي يثبتك على الهدى إلى أن يقبضك إليه ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ أي غالباً منيعاً لا يتبعه ذل.

[٤] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

---

(١) آية ١٧ سورة الأنفال.

﴿السكينة﴾: السكون والطمأنينة. قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في ﴿البقرة﴾[١]. وتقدّم معنى زيادة الإيمان في ﴿آل عمران﴾[٢]. وقال ابن عباس: بعث النبيّ ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فلما صدّقوه فيها زادهم الصلاة؛ فلمّا صدّقوه زادهم الزكاة؛ فلما صدّقوه زادهم الصيام؛ فلما صدّقوه زادهم الحجّ؛ ثم أكمل لهم دينهم؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيع بن أنس: خَشْيَةً مع خشيتهم. وقال الضحاك: يقيناً مع يقينهم. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريد الملائكة والجنّ والشياطين والإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيماً﴾ فيما يريده.

[٥] ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

أي أنزل السكينة ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة بسبب إدخالهم الجنة. وقيل: اللام في ﴿ليدخل﴾ يتعلق بما يتعلق به اللام في قوله: ﴿ليغفر لك الله﴾. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب. ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي نجاةً من كل غم، وظفراً بكل مطلوب. وقيل: لما قرأ النبيّ ﷺ على أصحابه ﴿لِيغفِر لك الله ما تقدّم مِن ذنبِك وما تأخّر﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل ﴿لِيُدْخِلَ المؤمِنين والمؤمِناتِ جَنّاتٍ﴾ ولما قرأ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليك﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[٣] فلما قرأ ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مستقيماً﴾ نزل في حق الأمة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مستقِيماً ﴾[٤]. ولما قال ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾ نزل ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

(١) راجع ٣/٢٤٨.
(٢) راجع ٤/ ٢٨٠.
(٣) آية ٣ سورة المائدة.
(٤) آية ٢٠ من هذه السورة.

الْمُؤْمِنِينَ﴾[١]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٢]. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾[٣] ذكره القُشَيْرِيّ.

[٦] ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

[٧] ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قَتْلاً وأسْراً واسترقاقاً. ﴿الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ﴾ يعني ظنّهم أن النبيّ ﷺ لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم. كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾. وقال الخليل وسِيبَوَيْه: ﴿السوء﴾ هنا الفساد. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبْيِ والأسر، وفي الآخرة بجهنم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دائرة السوء﴾ بالضم. وفتح الباقون. قال الجوهري: ساءه يسوءه سَوْءاً (بالفتح) ومَساءة ومَسَاية؛ نقيض سره، والاسم السُّوء (بالضم). وقرىء ﴿عليهم دائرة السُّوءِ﴾ يعني الهزيمة والشر. ومن فتح فهو من المساءة. ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾. تقدّم في غير موضع جميعه، والحمد لله. وقيل: لما جرى صلح الحديبية قال ابن أُبَيّ: أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارس والروم! فبين الله عز وجل أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم. وقيل: يدخل فيه

---

(١) آية ٤٧ سورة الروم. (٢) آية ٥٦ سورة الأحزاب.
(٣) آية ٤٣ سورة الأحزاب.

جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ﴿ولِلَّهِ جنُود السمواتِ﴾ الملائكة. وجنود الأرض المؤمنون. وأعاد لأن الذي سبق عقيب ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمراد في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاك المنافقين والمشركين لم يعجزه ذلك، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُسَمًّى.

[٨] ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾.

[٩] ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ قال قتادة: على أمتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعة أو معصية. وقيل: مُبَيِّناً لهم ما أرسلناك به إليهم. وقيل: شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهد أفعالهم اليوم، والشهيد عليهم يوم القيامة. وقد مضى في ﴿النساء﴾ عن سعيد بن جبير[١] هذا المعنى مبيّناً. ﴿وَمُبَشِّراً﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيراً﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره. وقد مضى في ﴿البقرة﴾ اشتقاق البشارة والنذارة ومعناهما[٢]. وانتصب ﴿شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ على الحال المقدرة. حكى سيبويه: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً؛ فالمعنى: إنا أرسلناك مقدرين بشهادتك يوم القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمراً قائماً غداً. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابن كَثِير وابن مُحَيْصِن وأبو عمرو ﴿ليؤمنوا﴾ بالياء، وكذلك ﴿يعزِّروه ويُوَقِّرُوْهُ ويُسَبِّحُوه﴾ كله بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأما قبله فقوله ﴿ليدخل﴾ وأما بعده فقوله ﴿إن الذين يبايعونك﴾ الباقون بالتاء على الخطاب، واختاره أبو حاتم ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموه وتفخّموه؛ قاله الحسن والكلبي. والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه. ومنه التعزير في الحدّ؛ لأنه مانع. قال القَطَامِيّ:

---

(١) يلاحظ أن الذي مضى في سورة النساء هو: سعيد بن المسيب. راجع ٥/١٩٧ وما بعدها.
(٢) راجع ١/١٨٤، ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة.

ألا بَكَــرَتْ مَــيٌّ بغيــر سَفَــاهــةٍ تُعَــاتِــبُ والمَــوْدُودُ ينفعــه العَــزْر

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف. وقال بعض أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تسوّدوه؛ قاله السدي. وقيل تعظموه. والتوقير: التعظيم والتَرْزِين أيضاً. والهاء فيهما للنبيّ ﷺ. وهنا وقف تام، ثم تبتدىء ﴿وتسبحوه﴾ أي تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وأَصِيلاً﴾ أي عَشِيًّا. وقيل: الضمائر كلّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل ﴿تعزروه وتوقروه﴾ أي تثبتوا له صحة الربوبية وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك. وأختار هذا القول القشيري. والأوّل قول الضحاك، وعليه يكون بعض الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى وهو ﴿وتسبّحوه﴾ من غير خلاف. وبعضه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوه﴾ أي تدعوه بالرسالة والنبوّة لا بالاسم والكُنْيَة. وفي ﴿تسبحوه﴾ وجهان: أحدهما ـ تسبيحه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح والثاني ـ هو فعل الصلاة التي فيها التسبيح. ﴿بُكْرَةً وأصِيلاً﴾ أي غُدْوة وعشيًّا. وقد مضى القول[1] فيه. وقال الشاعر:

لَعَمْرِي لأنت البيتُ أُكرِمُ أهْلَهُ وأجلس في أفيائه بالأصائِل[2]

[١٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحُدَيْبِيَة يا محمد. ﴿إِنَّما يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ بيّن أن بيعتهم لنبيّه ﷺ إنما هي بيعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[3]. وهذه المبايعة هي بيعة الرضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إن شاء الله تعالى. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل: يده في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويده في المِنّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا

(١) راجع ١٤/١٩٨.
(٢) البيت لأبي ذؤيب.
(٣) آية ٨٠ سورة النساء.

من البَيعة. وقال ابن كَيْسان: قوّة الله ونُصرته فوق قوّتهم ونصرتهم. ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ بعد البيعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي يرجع ضرر النَّكْث عليه؛ لأنه حَرَمَ نفسَه الثواب وألزمها العقاب. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ قيل في البيعة. وقيل في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ يعني في الجنة. وقرأ حفص والزهريّ ﴿عليهُ﴾ بضم الهاء. وجرّها الباقون. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿فسنؤتِيهِ﴾ بالنون. واختاره الفرّاء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء. وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لقرب اسم الله منه.

[١١] ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ قال مجاهد وابن عباس: يعني أعراب غِفار ومُزَينة وجُهينة وأسلم وأشْجَع والدِّيل؛ وهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة؛ تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمْرَةٍ وساق معه الهَدْيَ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً فتثاقلوا عنه واعتلّوا بالشّغل؛ فنزلت. وإنما قال: ﴿المخلفون﴾ لأن الله خلّفهم عن صحبة نبيّه. والمخلَّف المتروك. وقد مضى في ﴿براءة﴾[1]. ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي ليس لنا من يقوم بهما. ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ جاءوا يطلبون الاستغفار واعتقادهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضحهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذا هو النفاق المحض. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ضرًّا﴾ بضم الضاد هنا فقط؛ أي أمراً يضركم. وقال ابن عباس: الهزيمة.

---

(١) راجع ٨/ ٢٠١٦.

الباقون بالفتح؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا. وبالضم اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال. والمصدر يؤدّي عن المرّة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا: لأنه قابله بالنفع وهو ضدّ الضر . وقيل: هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أي نصراً وغَنِيمة. وهذا ردّ عليهم حين ظنّوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع.

[١٢] ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً﴾ وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه أُكلة[١] رأس لا يرجعون. ﴿وَزُيِّنَ ذَلِكَ﴾ أي النفاق. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيين من الشيطان؛ أو يخلق الله ذلك في قلوبهم. ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أن الله لا ينصر رسوله. ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ أي هَلْكَى؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير. قال الجَوْهَرِيّ: البُور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ:

يا رسول المليك إن لساني ... راتِق ما فَتَقْتُ إذ أنا بور

وامرأة بُور أيضاً؛ حكاه أبو عبيد. وقوم بُورٌ هَلْكَى. قال تعالى: ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ وهو جمع بائر؛ مثل حائل وحُول. وقد بار فلان أي هلك. وأباره الله أي أهلكه. وقيل: ﴿بوراً﴾ أشراراً؛ قاله ابن بحر. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطُّول من نُوكِ الرجال وقد ... يهدي الإله سبيل المَعْشَر البور[٢]

أي الهالك.

---

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد.

(٢) ورد هذا البيت في «الأصول» محرّفاً.

[١٣] ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

وعيد لهم، وبيان أنهم كفروا بالنفاق.

[١٤] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

أي هو غنيّ عن عباده، وإنما ابتلاهم بالتكليف ليثيب من آمن ويعاقب من كفر وعصى.

[١٥] ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانم خيبر؛ لأن الله عز وجل وعد أهل الحُدَيْبِيَة فتح خَيْبر، وأنها لهم خاصّةً من غاب منهم ومن حضر. ولم يَغِب منهم عنها غير جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضر. قال ابن إسحاق: وكان المتولّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة، وزيد بن ثابت من بني النجار؛ كانا حاسبين قاسمين ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي دعونا. تقول: ذَرْه، أي دعه. وهو يَذَرُه؛ أي يَدَعُه. وأصله وذِرَه يَذَرُه مثالُ وَسِعه يَسَعُه. وقد أُمِيت صدره[1]، لا يقال: وذَره ولا واذر، ولكن تركه وهو تارك. قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكة، فلما خرج النبي ﷺ وأخذ قوماً

(١) هذه عبارة الأصل وصحاح الجوهري. وعبارة «اللسان»: «والعرب قد أماتت المصدر من «يذر» والفعلَ الماضي، فلا يقال...» الخ.

ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم. ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي يغيّروا. قال ابن زيد: هو قوله تعالى ﴿فَٱسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾[1] الآية. وأنكر هذا القول الطبري وغيره؛ بسبب أن غزوة تَبُوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكة. وقيل: المعنى يريدون أن يغيّروا وعد الله الذي وعد لأهل الحُدَيْبِيَة؛ وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره الطبري وعليه عامة أهل التأويل. وقرأ حمزة والكسائي ﴿كَلِمَ﴾ بإسقاط الألف وكسر اللام جمع كلمة؛ نحو سَلِمة وسَلِم. الباقون ﴿كلام﴾ على المصدر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله ﴿إِنّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى الناسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[2]. والكلام: ما استقل بنفسه من الجمل. قال الجوهري: الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير. والكَلِم لا يكون أقلّ من ثلاث كلمات لأنه جمع كلمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه: «هذا بابُ عِلْم ما الكَلِمُ من العربية» ولم يقل ما الكلام؛ لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء: الاسم والفعل والحرف؛ فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة. وتَمِيمٌ تقول: هي كِلْمة، بكسر الكاف، وقد مضى في ﴿براءة﴾ القول فيها[3]. ﴿كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل رجوعنا من الحديبية إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن نُصيب معكم من الغنائم. وقيل قال رسول الله ﷺ: «إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ فقال الله تعالى ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهون من أمر الدِّين إلا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة.

(٢) آية ١٤٤ سورة الأعراف.

(٣) راجع ٨/١٤٩.

[١٦] ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦)﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ أي قل لهؤلاء الذين تخلّفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وابن أبي لَيْلَى وعطاء الخراساني: هم فارس. وقال كعب والحسن وعبد الرحمن بن أبي ليلى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جُبير: هوازن وثقيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغَطَفان يوم حُنين. وقال الزهري ومقاتل: بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحاب مُسَيْلِمة. وقال رافع بن خَديج: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ﴿سَتُدْعَوْن إلى قومٍ أُولِي بأسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا نعلم مَن هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم. وقال أبو هريرة: لم تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردّه.

الثانية ـ في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأما قول عكرمة وقتادة إن ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين فلا؛ لأنه يمتنع أن يكون الداعي لهم الرسول عليه السلام؛ لأنه قال ﴿لن تخرجوا معِيَ أبداً ولن تقاتِلوا معِيَ عدوّاً﴾[1] فدلّ على أن المراد بالداعي غير النبي ﷺ. ومعلوم أنه لم يدع هؤلاء القوم بعد النبي ﷺ إلا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. الزَّمَخْشَرِيّ: فإن صحّ ذلك عن قتادة فالمعنى لن تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين.

---

(١) آية ٨٣ سورة التوبة.

أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوّعين لا نصيب لهم في المغنم.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حُكم من لا تؤخذ منهم الجِزْية، وهو معطوف على ﴿تقاتلونهم﴾ أي يكون أحد الأمرين، إما المقاتلة وإما الإسلام؛ لا ثالث لهما. وفي حرف أُبَيّ ﴿أو يُسْلِموا﴾ بمعنى حتى يُسلِموا؛ كما تقول: كُلْ أو تشبع؛ أي حتى تشبع. قال:

فقلت له لا تَبْكِ عَيْنُك إنما نحاوِل مُلْكاً أو نموت فنُعذَرَا[1]

وقال الزجاج: قال ﴿أو يسلِمون﴾ لأن المعنى أو هم يسلِمون من غير قتال. وهذا في قتال المشركين لا في أهل الكتاب.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿فإنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ الله أَجْراً حَسَناً﴾ الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وإنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عامَ الحُدَيْبِية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهو عذاب النار.

[١٧] ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

قال ابن عباس: لما نزلت ﴿ وإنْ تَتَوَلَّوْا كمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً ﴾ قال أهل الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت ﴿ ليس على الأعْمَى حَرَجٌ ولا على الأعْرَجِ حَرَجٌ ولا على المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد لعماهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في ﴿براءة﴾ وغيرها الكلام فيه مُبَيَّناً[2]. والعَرَج: آفة تعرض لرِجْل واحدة، وإذا كان ذلك مؤثّراً فخلل الرِّجْلين أولى أن يؤثّر. وقال مقاتل: هم أهل الزمانة

(١) البيت لامرىء القيس.

(٢) راجع ٨/٢٢٦ و ١٢/٣١٢.

الذين تخلفوا عن الحديبية وقد عذرهم. أي من شاء أن يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل. ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿ ندخله ﴾ بالنون على التعظيم . الباقون باليـاء ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدّم اسم الله أوّلاً . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾.

[١٨] ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

[١٩] ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هذه بَيْعة الرضوان، وكانت بالحديبية، وهذا خبر الحديبية على اختصار: وذلك أن النبيّ ﷺ أقام مُنْصَرَفه من غَزْوة بني المُصْطَلِق في شوّال، وخرج في ذي القعدة مُعْتَمِراً، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة فأبطأ عنه أكثرهم، وخرج النبي ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن أتبعه من العرب، وجميعهم نحو ألف وأربعمائة. وقيل: ألف وخمسمائة. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساق معه الهَدْيَ، فأحرم رسول الله ﷺ ليعلم الناسُ أنه لم يخرج لحرب، فلما بلغ خروجه قريشاً خرج جمعهم صادّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنه إن قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدّموا خالد بن الوليد في خيل إلى «كُرَاع الغَمِيم» فورَد الخبر بذلك على رسول الله ﷺ وهو «بعُسْفَان»[١] وكان المخبر له بشر بن سفيان الكَعْبِي، فسلك طريقاً يخرج به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليله فيهم رجل من أسلم، فلما بلغ ذلك خيلَ قريش التي مع خالد، جرت إلى قريش تُعلمهم بذلك،

---

(١) عسفان (بضم أوّله وسكون ثانيه): منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. وقيل: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. (معجم البلدان).

فلما وصل رسول الله ﷺ إلى الحديبية بركت ناقته ﷺ فقال الناس: خَلأَتْ! خَلأَت[١]! فقال النبيّ ﷺ: «ما خَلأَتْ وما هو لها بخلُقٌ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خُطّة يسألوني فيها صلة رَحِم إلا أعطيتهم إياها». ثم نزل ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأخرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَلِيب من تلك القُلُب فغرزه في جوفه فجاش بالماء الرَّواء[٢] حتى كفى جميع الجيش. وقيل: إن الذي نزل بالسّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي وهو سائق بُدْن النبيّ ﷺ يومئذ. وقيل: نزل بالسهم في القَلِيب البراء بن عازب، ثم جرت السُّفَراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أن جاءه سُهيل بن عمرو العامري، فقاضاه على أن ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك، فإذا كان من قابل أتى مُعْتَمِراً ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح، حاشا السيوف في قُرَبها فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً، وعلى أن من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً من رجل أو امرأة رُدّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتدّاً لم يردوه إلى المسلمين؛ فعظم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسول الله ﷺ أعلم بما علمه الله من أنه سيجعل للمسلمين فرجاً؛ فقال لأصحابه. «اصبروا فإن الله يجعل هذا الصلح سبباً إلى ظهور دينه فأَنِس الناس إلى قوله هذا بعد نفار منهم، وأبى سهيل بن عمرو أن يكتب في صدر صحيفة الصلح: من محمد رسول الله، وقالوا له: لو صدقناك بذلك ما دفعناك عما تريد! فلا بد أن تكتب: بأسمك اللّهُمّ. فقال لعليّ وكان يكتب صحيفة الصلح: «امح يا عليّ، واكتب بأسمك اللّهُمّ» فأبَى عليّ أن يمحو بيده «محمد رسول الله»، فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليّ» فأشار إليه فمحاه رسول الله ﷺ بيده، وأمره أن

---

(١) خلأت الناقة: حرنت وبركت من غير علة.

(٢) الرواء: الكثير.

يكتب « من محمد بن عبد الله ». وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذ بأثر كتاب الصلح وهو يَرْسُف في قيوده ، فردّه رسول الله ﷺ إلى أبيه؛ فعظم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل «أنّ الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».
وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكة رسولاً ، فجاء خبر إلى رسول الله ﷺ بأن أهل مكة قتلوه ، فدعا رسول الله ﷺ حينئذ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكة ؛ فرُوِي أنه بايعهم على الموت . وروى أنه بايعهم على ألاّ يَفِرّوا . وهي بيعة الرضوان تحت الشجرة ، التي أخبر الله تعالى أنه رضي عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتها . وأخبر رسول الله ﷺ أنهم لا يدخلون النار . وضرب رسول الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان ؛ فهو كمن شهدها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : أوّل من بايع رسول الله ﷺ يوم الحديبية أبو سفيان الأسدي . وفي « **صحيح مسلم** » عن أبي الزبير عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة ؛ فبايعناه وعمر آخِذٌ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَة[1] ، وقال : بايعناه على ألاّ نَفِرّ ولم نبايعه على الموت . وعنه أنه سمع جابراً يسأل : كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربع عشرة مائة ؛ فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سَمُرَة ؛ فبايعناه ، غيرَ جَدّ بن قيس الأنصاري اختبأ تحت بطن بعيره . وعن سالم بن أبي الجَعْد قال : سألت جابر بن عبد الله عن أصحاب الشجرة . فقال : لو كنا مائةَ ألفٍ لكفانا، كنا ألفاً وخمسمائة . وفي رواية : كنا خمس عشرة مائة. وعن عبد الله بن أبي أوْفَى قال : كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة، وكانت أسْلَم ثُمُن المهاجرين . وعن يزيد بن أبي عبيد قال قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية ؟ قال: على الموت.
وعن البراءة بن عازب قال: كتب عليّ رضي الله عنه الصلح بين النبيّ ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله ﷺ فقالوا:

---

(١) السمرة: شجر الطلح.

لا تكتب رسول الله، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبيّ ﷺ لعليّ: «أمْحُه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه[1]؛ فمحاه النبيّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبّان السلاح. [قلت لأبي إسحاق: وما جُلُبّان السلاح؟ قال[2]:] القِراب وما فيه. وعن أنس: أن قريشاً صالحوا النبيّ ﷺ فيهم سهيل بن عمرو؛ فقال النبي ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما باسم[3] الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن أكتب ما نعرف: باسمك اللّهُمَّ. فقال: «اكتب من محمد رسول الله» قالوا: لو علمنا أنك رسوله لاتبعناك! ولكن أكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله» فاشترطوا على النبيّ ﷺ: أن من جاء منكم لم نردّه عليكم، ومن جاءكم منّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا! قال «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً». وعن أبي وائل قال: قام سهل بن حُنيف يوم صِفِّين فقال يا أيها الناس، اتّهموا أنفسَكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال «بلى» قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال «بلى» قال ففيم نعطي الدَّنِيّة في ديننا ونرجعُ ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال «يا بن الخطاب إني رسول الله ولن يُضَيِّعَنِي الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال بلى؛ قال أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال بلى. قال: فَعَلَام نعطِي الدَّنِيّة في ديننا ونرجع ولمّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبداً. قال: فنزل القرآن على رسول الله

---

(١) أمحاه: لغة في أمحوه.

(٢) زيادة عن مسلم.

(٣) قوله: «أما باسم الله...» أي فنحن ندريه. وأما البسملة التي تذكرها بتمامها فما ندريها.

ﷺ بالفتح؛ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه؛ فقال: يا رسول الله، أَوَ فَتْحٌ هو؟ قال «نعم». فطابت نفسه ورجع.

قوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء. وقال ابن جُريج وقتادة: من الرضا بأمر البَيْعة على ألا يفرّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت. ﴿ فأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى بايعوا. وقيل: ﴿ فَعلم ما في قلوبهم ﴾ من الكآبة بصدّ المشركين إياهم وتخلف رؤيا النبيّ ﷺ عنهم؛ إذا رأى أنه يدخل الكعبة، حتى قال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك رؤيا منام». وقال الصدّيق: لم يكن فيها الدخول في هذا العام. والسكينة: الطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد. وقيل الصبر. ﴿وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قريباً﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتح خيبر. وقيل فتح مكة. وقرىء ﴿وآتاهم﴾ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرةً يأخُذُونَها﴾ يعني أموال خيبر؛ وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة. فـ ﴿ـمَغَانِمَ﴾ على هذا بدل من ﴿فَتْحاً قريباً﴾ والواو مُقحَمة. وقيل: ﴿ومغانم﴾ فارس والروم.

[٢٠] ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرةً تأخُذُونَها﴾ قال ابن عباس ومجاهد. إنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانم خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجّل لكم صلح الحديبية. ﴿وكَفَّ أيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهل مكة؛ كفّهم عنكم بالصلح. وقال قتادة: كفّ أيدي اليهود عن المدينة بعد خروج النبيّ ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبري؛ لأن كف أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله ﴿وهو الذي كف أيْدِيَهُمْ عنكم﴾[1]. وقال ابن

---

(١) آية ٢٤ من هذه السورة.

عباس: في ﴿كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عنكم﴾ يعني عُيينة بن حِصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما؛ إذ جاءوا لينصروا أهل خيبر والنبي ﷺ محاصر لهم؛ فألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب وكَفّهم عن المسلمين. ﴿ولِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين؛ فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم. وقيل: أي ولتكون كف أيدِيَهُمْ عنكم آية للمؤمنين. وقيل: أي ولتكون هذه التي عجلها لكم آية للمؤمنين على صدقك حيث وعدتهم أن يصيبوها. والواو في ﴿ولتكون﴾ مقحمة عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفة على مضمر؛ أي وكف أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية للمؤمنين. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ أي يزيدكم هُدًى، أو يثبّتكم على الهداية.

[٢١] ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى﴾ ﴿أخرى﴾ معطوفة على ﴿هذه﴾؛ أي فعجّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى. ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فتحت على المسلمين؛ كأرض فارس والروم، وجميع ما فتحه المسلمون. وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى. وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وعدها الله نبيّه قبل أن يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها. وعن الحسن أيضاً وقتادة: هو فتح مكة. وقال عكرمة: حُنين؛ لأنه قال ﴿لم تَقْدِرُوا عليها﴾. وهذا يدل على تقدم محاولة لها وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة؛ قاله القشيري. وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة. ومعنى ﴿قد أحاط الله بها﴾ أي أعدّها لكم؛ فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم. وقيل: ﴿أحاط الله بها﴾ علم أنها ستكون لكم؛ كما قال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[١]. وقيل: حفظها الله عليكم؛ ليكون فتحها لكم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾.

---

(١) آية ١٢ سورة الطلاق.

[٢٢] ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

[٢٣] ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ﴾ قال قتادة: يعني كفار قريش في الحُدَيْبِيَة. وقيل: ﴿ ولو قاتلكم ﴾ غَطَفَان وأسد والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر؛ لكانت الدائرة عليهم. ﴿ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً. سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعني طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه. وانتصب ﴿سُنَّةَ﴾ على المصدر. وقيل: ﴿سنة الله﴾ أي كسنة الله. والسنة الطريقة والسِّيرة. قال:

فلا تجزَعَن من سِيرة أنت سِرْتَها فأوّلُ راضٍ سُنّةً من يَسيرها[1]

والسُّنة أيضاً: ضرب من تمر المدينة. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

[٢٤] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي الحديبية. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ روى يزيد بن هارون قال: أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبيّ ﷺ من جبل التَّنعيم[2] متسلّحين يريدون غِرّة[3] النبيّ ﷺ وأصحابه؛ فأخذناهم[4] سَلْماً

---

(١) البيت لخالد بن عتبة الهذلي.

(٢) التنعيم: موضع بمكة في الحل، وهو بين مكة وسرف.

(٣) الغرة (بالكسر): الغفلة، أي يريدون أن يصادفوا منه ﷺ ومن أصحابه غفلة من التأهب لهم.

(٤) رواية مسلم: «فأخذهم سلماً فاستحياهم» وقوله «سلماً» قال ابن الأثير: «يروى بكسر السين وفتحها، وهما لغتان في الصلح، وهو المراد في الحديث على ما فسره الحميدي في غريبه. وقال الخطابي إنه السلم، بفتح السين واللام، يريد الاستسلام والإذعان... وهذا هو الأشبه بالقضية؛ فإنهم لم يؤخذوا عن صلح وإنما أخذوا قهراً وأسلموا أنفسهم عجزاً...».

فاستحييناهم ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . وقال عبد الله بن مغفّل المُزَنيّ : كنا مع النبيّ ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم النبيّ ﷺ فأخذ الله بأبصارهم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد أو هل جعل لكم أحد أماناً». قالوا: اللهم لا؛ فخلّى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم﴾ الآية. وذكر ابن هشام عن وَكيع: وكانت قريش قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى، وكان ذلك والسفراء يمشون بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسَمَّوْن العُتَقاء، ومنهم معاوية وأبوه. وقال مجاهد: أقبل النبيّ ﷺ معتَمِراً، إذ أخذ أصحابه ناساً من الحرم غافلين فأرسلهم النبيّ ﷺ؛ فذلك الإظفار ببطن مكة. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له زُنيم، اطّلع الثّنِيّة من الحديبية فرماه المشركون بسهم فقتلوه؛ فبعث النبيّ ﷺ خيلاً فأتوا باثني عشر فارساً من الكفار ، فقال لهم النبيّ ﷺ: «هل لكم عليّ ذمّة » ؟ قالوا لا ؛ فأرسلهم فنزلت . وقال ابن أبزى والكلبي: هم أهل الحديبية ، كفّ الله أيديهم عن المسلمين حتى وقع الصلح ، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين ، وكف أيدي المسلمين عنهم . وقد تقدّم أن خالد بن الوليد كان في خيل المشركين. قال القشيري: فهذه رواية، والصحيح أنه كان مع النبي ﷺ في ذلك الوقت . وقد قال سلمة بن الأكْوَع : كانوا في أمر الصلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح ، قال : فجئت لستة من المشركين أسوقهم متسلحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؛ فأتيت بهم رسول الله ﷺ . وكان عمر قال في الطريق : يا رسول الله ، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح ولا كُراع ؟ فبعث

رسول الله ﷺ إلى المدينة من الطريق فأتوه بكل سلاح وكراع كان فيها، وأخبِر رسول الله ﷺ أن عكرمة بن أبي جَهْل خرج إليك في خمسمائة فارس؛ فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابن عمك أتاك في خمسمائة». فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله؛ فيومئذ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيل وهزم الكفار ودفعهم إلى حوائط مكة. وهذه الرواية أصح، وكان بينهم قتال بالحجارة، وقيل بالنَّبل والظُّفْر[1]. وقيل: أراد بكف اليد أنه شرط في الكتاب أن من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم؛ فخرج أقوام من مكة مسلمون وخافوا أن يردّهم الرسول عليه السلام إلى المشركين فلحقوا بالساحل، ومنهم أبو بَصير، وجعلوا يغيرون على الكفار ويأخذون عيرهم، حتى جاء كبار قريش إلى النبيّ ﷺ وقالوا: اُضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل. وقيل: هَمّت غَطَفَان وأسد منع المسلمين من يهود خَيْبر؛ لأنهم كانوا حلفاءهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفّ اليد. ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: **أحدهما** ـ يريد به مكة. **الثاني** ـ الحديبية، لأن بعضها مضاف إلى الحرم. قال الماوردي: وفي قوله ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيهم﴾ بفتح مكة. وتكون هذه نزلت بعد فتح مكة، وفيها دليل على أن مكة فتحت صلحاً؛ لقوله عز وجل: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم﴾.

قلت: الصحيح أن هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، حسب ما قدمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين. وروى الترمذي قال: حدّثنا عبد بن حُميد قال حدثني سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس: أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه؛ فأخِذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كَفَّ أيديَهُمْ عنكم وأَيْدِيَكُمْ عنهم﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ وقد تقدّم. وأما فتح مكة فالذي تدل عليه الأخبار أنها إنما فُتحت عَنْوة؛ وقد مضى القول في ذلك في ﴿الحج﴾[2] وغيرها. ﴿وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾.

---

(١) الظفر (بالضم): طرف القوس.

(٢) راجع ١٢/ ٣٣.

[٢٥] ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾. فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً، منعوكم دخول المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة حين أحرم النبيّ ﷺ مع أصحابه بعُمْرة، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوه عن أن يبلغ مَحِلّه. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنه حملتهم الأَنَفة ودعتهم حَمِيّة الجاهلية إلى أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دِيناً؛ فوبّخهم الله على ذلك وتوعّدهم عليه، وأدخل الأنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً﴾ أي محبوساً. وقيل موقوفاً[(١)]. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً. الجوهري: عكفه أي حبسه ووقفه، يَعْكِفه ويَعْكُفه عَكْفاً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَالهَدْيَ معكوفاً﴾؛ يقال: ما عكفك عن كذا. ومنه الاعتكاف في المسجد وهو الاحتباس. ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي منحره؛ قاله الفراء. وقال الشافعي رضي الله عنه: الحَرَم. وكذا قال أبو حنيفة رضي الله عنه: المُحْصَر محلّ هَدْيه الحَرَم. والمَحِلّ ﴿بكسر الحاء﴾: غاية الشيء. (وبالفتح): هو الموضع الذي يحله الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلاً. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدّم بيانه في ﴿البقرة﴾ عند قوله تعالى: ﴿فإن أحصِرتم﴾[(٢)] والصحيح ما ذكرناه. وفي «صحيح مسلم» عن أبي الزبير عن جابر

---

(١) في «الأصول»: «واقفاً».
(٢) راجع ٢/ ٣٧١ طبعة ثانية.

ابن عبد الله قال: نَحرْنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البَدَنةَ عن سبعة، والبقرَة عن سبعة. وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحج والعُمْرة كلُّ سبعة في بَدَنة. فقال رجل لجابر؛ أيُشْتَرَك في البَدنة ما يشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلا من البُدْن. وحضر جابر الحديبية قال: ونحرنا يومئذ سبعين بدنة، اشتركنا كل سبعة في بدنة. وفي البخاريّ عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين؛ فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بدنة وحلق رأسه. قيل: إن الذي حلق رأسه يومئذ خِرَاش بن أمية بن أبي العيص الخزاعي، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلّوا؛ ففعلوا بعد توقُّف كان منهم أغضب رسول الله ﷺ. فقالت له أم سلمة: لو نحرت لنحروا؛ فنحر رسول الله ﷺ هَدْيه ونحروا بنحره، وحلق رسول الله ﷺ رأسه ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين مرة. ورأى كعب بن عُجْرَة والقَمْل يسقط على وجهه؛ فقال: «أيؤذيك هوامّك»؟ قال نعم؛ فأمره أن يحلق وهو بالحديبية. خرّجه البخاريّ والدارقطني. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[1].

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ الهَدْيُ والهَدِيّ لغتان. وقرىء ﴿حتى يبلغ الهَدِيُّ محلّه﴾ بالتخفيف والتشديد؛ الواحدة هدِيّة. وقد مضى في ﴿البقرة﴾[2] أيضاً. وهو معطوف على الكاف والميم من «صَدُّوكم». و ﴿مَعْكُوفاً﴾ حال، وموضع ﴿أنْ﴾ من قوله ﴿أنْ يبلغ محلّه﴾ نصب على تقدير الحمل على ﴿صَدّوكم﴾ أي صدّوكم وصدّوا الهَدْي عن أن يبلغ. ويجوز أن يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصَدُّوا الهَدْي كراهية أن يبلغ محله. أبو علي: لا يصح حمله على العكف؛ لأنّا لا نعلم ﴿عكف﴾ جاء متعدّياً، ومجيء ﴿معكوفاً﴾ في الآية يجوز أن يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لما كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَث على معنى الإفضاء فعُدِّيَ بإلى؛ فإن حُمل على ذلك كان موضعه نصباً على قياس قول سيبويه، وجَرًّا على قياس

(١) راجع ٢/ ٣٨٣ طبعة ثانية.

(٢) ٢/ ٣٧٨.

قول الخليل. أو يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهية أن يبلغ محله. ويجوز تقدير الجر في ﴿أن﴾ لأن عن تقدمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ ﴿عن﴾ أن يبلغ محله. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررت برجل إنْ زيدٍ وإنْ عمرٍو؛ فأضمر الجار لتقدم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنهُمْ معرّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكة وسط الكفار؛ كسلمة بن هشام وعَيّاش بن أبي ربيعة وأبي جَنْدل بن سهيل، وأشباهِهم. ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون. ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وطِئت القوم؛ أي أوقعت بهم. و ﴿أن﴾ يجوز أن يكون رفعاً على البدل من ﴿رجالٌ، ونساءٌ﴾ كأنه قال ولولا وطؤكم رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات، ويجوز أن يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في ﴿تعلموهم﴾؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وطأهم؛ وهو في الوجهين بدل الاشتمال. ﴿ولم تعلموهم﴾ نعت لـ ﴿ـرجالٌ﴾ و ﴿نساءٌ﴾. وجواب ﴿لولا﴾ محذوف؛ والتقدير: ولو أن تطئوا رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات لم تعلموهم لأذن الله لكم في دخول مكة، ولسلطكم عليهم؛ ولكنا صُنّا من كان فيها يكتم إيمانه خَوْفاً. وقال الضحاك: لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا أن تطئوا آباءهم فتهلك أبناؤهم.

الثانيـة ـ قوله تعالى : ﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِنهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ المَعَرَّة العيب، وهي مفعلـة مـن العُرّ وهو الجَرَب ؛ أي يقول المشركون : قد قتلوا أهل دينهم. وقيل : المعنى يصيبكم مـن قتلهم مـا يلزمكم مـن أجلـه كفارة قتـل الخطـأ؛ لأن الله تعالى إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجـر منها ولم يعلم بإيمانـه الكفارةَ دون الدِّيـة في قولـه: ﴿ فإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما. وقد مضى

في ﴿النساء﴾ القول فيه[١]. وقال ابن زيد: ﴿مَعَرَّةٌ﴾ إثم. وقال الجوهري وابن إسحاق: غُرْم الدِّيَة. قُطْرُب: شدّة. وقيل غَمّ.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدّي؛ حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ اللام في ﴿ليدخل﴾ متعلقة بمحذوف؛ أي لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته. ويجوز أن تتعلق بالإيمان. ولا تحمل على مؤمنين دون مؤمنات ولا على مؤمنات دون مؤمنين؛ لأن الجميع يدخلون في الرحمة. وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة؛ وكذلك كان أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه، ودخلوا في رحمته؛ أي جنته.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي تميّزوا؛ قاله القُتَبِي. وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف؛ قاله الضحاك. ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار. وقال عليّ رضي الله عنه: سألت النبيّ ﷺ عن هذه الآية ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبي الله ومن كان بعدهم وفي عصرهم كان في أصلابهم قوم مؤمنون فلو تزيل المؤمنون عن أصلاب الكافرين لعذب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً».

الثالثة ـ هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذاية الكافر إلا بإذاية المؤمن. قال أبو زيد قلت لابن القاسم: أرأيت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم قوم من المسلمين أسارى في أيديهم،

---

(١) راجع ٥/٣٢٣.
(٢) آية ١٨ سورة النمل.

أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعت مالكاً وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم أنرمي في مراكبهم بالنار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾. وكذلك لو تَتَرّس كافر بمسلم لم يجز رميه. وإن فعل ذلك فاعل فأتلف أحداً من المسلمين فعليه الدية والكفارة. فإن لم يعلموا فلا ديَة ولا كفارة؛ وذلك أنهم إذا علموا فليس لهم أن يرموا، فإذا فعلوه صاروا قَتَلَة خطأ والدية على عواقلهم. فإن لم يعلموا فلهم أن يرموا. وإذا أبيحوا الفعل لم يجز أن يبقى عليهم فيها تِبَاعة. قال ابن العربي: «وقد قال جماعة إن معناه لو تزيّلوا عن بطون النساء وأصلاب الرجال. وهذا ضعيف؛ لأن من في الصلب أو في البطن لا يوطأ ولا تصيب منه معرّة. وهو سبحانه قد صرح فقال: ﴿ولولا رِجالٌ مؤمِنون ونِساءٌ مؤمِناتٌ لم تعلموهم أن تطئوهم﴾ وذلك لا ينطلق على من في بطن المرأة وصلب الرجال، وإنما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل. وكذلك قال مالك: وقد حاصرنا مدينة الروم فحبس عنهم الماء، فكانوا يُنزلون الأسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدر أحد على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوّز أبو حنيفة وأصحابه والثَّوْريّ الرّمْيَ في حصون المشركين وإن كان فيهم أسارى من المسلمين وأطفالهم. ولو تَتَرّس كافر بولد مسلم رمي المشرك، وإن أصيب أحد من المسلمين فلا دِيَة فيه ولا كفارة. وقال الثوري: فيه الكفارة ولا دِيَة. وقال الشافعي بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيَّما بروح المسلم؛ فلا قول إلا ما قاله مالك رضي الله عنه. والله أعلم».

قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضروريّة كلية قطعية. فمعنى كونها ضرورية، أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية، أنها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة. ومعنى كونها

قطعية، أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً. قال علماؤنا: وهذه المصلحة بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعاً؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة ـ قراءة العامة ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ ﴿تزايلوا﴾ وهو مثل ﴿تزيّلوا﴾ في المعنى. والتزايل: التباين. و ﴿تزيّلوا﴾ تفعّلوا، من زِلْت. وقيل: هي تَفَيْعَلُوا. ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِين كَفَرُوا﴾ قيل: اللام جواب لكلامين؛ **أحدهما** ـ ﴿لولا رجال﴾ **والثاني** ـ ﴿لو تزيلوا﴾. وقيل جواب ﴿لولا﴾ محذوف؛ وقد تقدّم. ﴿ولو تزيلوا﴾ ابتداء كلام.

[٢٦] ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

العامل في ﴿إذ﴾ قوله تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ أي لعذبناهم إذ جعلوا هذا. أو فعل مضمر تقديره واذكروا . ﴿ الْحَمِيّةَ ﴾ فَعِيلة وهي الأنفة . يقال : حَمِيت عن كذا حَمِيّة « بالتشديد » ومَحْمِيّة إذا أنِفت منه وداخلك عار وأنفة أن تفعله . ومنه قول المتلمّس:

ألاَ إنني منهم وعِرْضِيَ عِرْضُهم كذِي الأنْفِ يحمي أنفه أن يُكَشّمَا[1]

أي يمنع . قال الزهريّ : حَمِيّتُهم أنفتهم من الإقرار للنبيّ ﷺ بالرسالة

(١) الكشم: قطع الأنف باستئصال.

والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من دخول مكة. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله: سهيل بن عمرو؛ على ما تقدّم. وقال ابن بحر: حمِيّتهم عصبيّتهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنفة من أن يعبدوا غيرها. وقيل: ﴿حَمِيّة الجاهِلِية﴾ إنهم قالوا: قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعزى لا يدخلها أبداً. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي الطمأنينة والوقار ﴿عَلَى رَسُولِهِ وعَلَى الْمُؤمِنِينَ﴾. وقيل: ثبتهم على الرضا والتسليم، ولم يدخل قلوبهم ما أدخل قلوب أولئك من الحمية ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قيل لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أُبَيّ بن كَعْب عن النبيّ ﷺ. وهو قول عليّ وابن عمر وابن عباس، وعمرو بن مَيْمون ومجاهد وقتادة وعكرمة والضحاك، وسلمة بن كُهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مُصَرِّف، والربيع والسدي وابن زيد وقاله عطاء الخراساني، وزاد «محمد رسول الله». وعن عليّ وابن عمر أيضاً هي لا إله إلا الله والله أكبر. وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقال الزهريّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أن المشركين لم يُقِرّوا بهذه الكلمة؛ فخصّ الله بها المؤمنين. و ﴿كلمة التقوى﴾ هي التي يتقّى بها من الشرك. وعن مجاهد أيضاً أن ﴿كلمة التقوى﴾ الإخلاص. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي أحق بها من كفار مكة؛ لأن الله تعالى اختارهم لدينه وصحبة نبيّه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

[٢٧] ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

قال قتادة: كان رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصفة؛ فلما صالح قريشاً بالحُدَيْبِيَة ارتاب المنافقون حتى قال رسول الله ﷺ

أنه يدخل مكة؛ فأنزل الله تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأن رؤياه ﷺ حق. وقيل: إن أبا بكر هو الذي قال إن المنام لم يكن مؤقتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية، وأن رؤيا الأنبياء حق. والرؤيا أحد وجوه الوحي إلى الأنبياء. ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي في العام القابل ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قال ابن كَيْسَان: إنه حكاية ما قيل للنبيّ ﷺ في منامه؛ خوطب في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنه قال ذلك ولهذا استثنى؛ تأدّب بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1]. وقيل: خاطب الله العباد بما يحب أن يقولوه؛ كما قال ﴿ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾. وقيل: استثنى فيما يَعْلم ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون؛ قاله ثعلب. وقيل: كان الله علم أنه يميت بعض هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية فوقع الاستثناء لهذا المعنى؛ قاله الحسين بن الفضل. وقيل: الاستثناء من ﴿آمنين﴾؛ وذلك راجع إلى مخاطبة العباد على ما جرت به العادة. وقيل: معنى ﴿إن شاء الله﴾ إن أمركم الله بالدخول. وقيل: أي إن سهل الله. وقيل: ﴿إن شاء الله﴾ أي كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: ﴿إنْ﴾ بمعنى ﴿إذ﴾؛ أي إذ شاء الله؛ كقوله تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2] أي إذ كنتم. وفيه بُعْدٌ؛ لأن ﴿إذ﴾ في الماضي من الفعل، و ﴿إذا﴾ في المستقبل؛ وهذا الدخول في المستقبل، فوعدهم دخول المسجد الحرام وعلّقه بشرط المشيئة، وذلك عام الحديبية؛ فأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا؛ ثم تأخر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه فساءهم ذلك واشتدّ عليهم وصالحهم ورجع؛ ثم أذن الله في العام المقبل فأنزل الله ﴿لقد صَدَقَ اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحق﴾. وإنما قيل له في المنام ﴿لَتَدْخُلُنّ الْمَسْجِدَ الحَرَام إن شاء الله﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شك كما زعم بعضهم أن الاستثناء يدل على الشك، والله تعالى لا يشك، و ﴿لتدخلن﴾ تحقيق فكيف يكون شك. فـ ﴿إن﴾ بمعنى ﴿إذ﴾. ﴿آمِنِينَ﴾ أي من العدوّ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾

---

(١) آية ٢٣ سورة الكهف. (٢) آية ٢٧٨ سورة البقرة.

وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليق والتقصير جميعاً للرجال؛ ولذلك غلب المذكر على المؤنث. والحلق أفضل، وليس للنساء إلا التقصير. وقد مضى القول في هذا في ﴿البقرة﴾[1]. وفي «الصحيح» أن معاوية أخذ من شعر النبيّ ﷺ على المَرْوَة بِمِشْقَص. وهذا كان في العُمْرة لا في الحج، لأن النبي ﷺ حلق في حجته. ﴿لاَ تَخافُونَ﴾ حال من المحلِّقين والمقصِّرين؛ والتقدير: غير خائفين. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم. وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خَيْبر فافتتحها، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوّة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام، وأقبل إلى مكة على أهبة وقوّة وعدّة بأضعاف ذلك. وقال الكلبي: أي علم أن دخولها إلى سنة ولم تعلموه أنتم. وقيل: علم أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم. ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أي من دون رؤيا النبيّ ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك. وقيل فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزهري: ما فتح الله في الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية؛ لأنه إنما كان القتال حين تلتقي الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً؛ فالتقوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة. فلم يكَلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه؛ فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. يدلّك على ذلك أنهم كانوا سنة ستٍّ يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان في عشرة آلاف.

[٢٨] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي يعليه على كل الأديان. فالدِّين اسم بمعنى المصدر،

---

(١) راجع ٢/ ٣٨١ طبعة ثانية.

ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه . وقيل : أي ليظهر رسوله على الدين كله؛ أي على الدين الذي هو شَرْعه بالحجة ثم باليد والسيف ؛ ونسخ ما عداه ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ ﴿ شهيداً ﴾ نصب على التفسير ، والباء زائدة ؛ أي كفى الله شهيداً لنبيّه ﷺ ؛ وشهادته له تبيّن صحة نبوّته بالمعجزات . وقيل: ﴿ شهيداً ﴾ على ما أرسل به ؛ لأن الكفار أبَوْا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله.

[٢٩] ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا (٢٩) ﴾ .

فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ﴿محمد﴾ مبتدأ و ﴿رسول﴾ خبره . وقيل : ﴿ محمد ﴾ ابتداء و ﴿ رسول الله ﴾ نعته . ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ عطف على المبتدأ ، والخبر فيما بعده ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على ﴿ رسول الله﴾ . وعلى الأول يوقف على ﴿ رسول الله ﴾ ؛ لأن صفاته عليه السلام تزيد على ما وصف به أصحابه ؛ فيكون ﴿ محمد ﴾ ابتداء و ﴿ رسول الله ﴾ الخبر ﴿ والذين معه ﴾ ابتداء ثان . و ﴿ أشداء ﴾ خبره و ﴿ رحماء ﴾ خبر ثان . وكون الصفات في جملة أصحاب النبيّ ﷺ هو الأشبه . قال ابن عباس: أهل الحديبية أشداء على الكفار ؛ أي غلاظ عليهم كالأسد على فريسته . وقيل : المراد بـ ﴿الذين معه﴾ جميع المؤمنين. ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي يرحم بعضهم بعضاً. وقيل:

متعاطفون متوادّون. وقرأ الحسن ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ بالنصب على الحال؛ كأنه قال: والذين معه في حال شدّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم. ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ إخبار عن كثرة صلاتهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ أي يطلبون الجنة ورضا الله تعالى.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ السيما العلامة؛ وفيها لغتان: المد والقصر؛ أي لاحت علامات التهجُّد بالليل وأمارات السهر. وفي سنن ابن ماجه قال: حدَّثنا إسماعيل بن محمد الطلحي قال حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقال ابن العربي: ودَسّه قوم في حديث النبيّ ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبيّ ﷺ فيه ذكر بحرف. وقد روى ابن وهب عن مالك «سيماهم في وجوههم من أثر السجود» ذلك مما يتعلق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: صلى صبيحة إحدى وعشرين من رمضان وقد وَكَف[1] المسجد وكان على عريش؛ فانصرف النبيّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثر الماء والطين. وقال الحسن: هو بياض يكون في الوجه يوم القيامة. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العَوْفي عن ابن عباس ؛ قاله الزهري . وفي «الصحيح» عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ، وفيه : « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود» . وقال شَهْر بن حَوْشب: يكون موضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر . وقال ابن عباس ومجاهد: السيماء في الدنيا وهو السَّمْت الحسن. وعن مجاهد أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال

---

(١) أي قطر سقفه.

منصور: سألت مجاهداً عن قوله تعالى ﴿سِيماهم في وجوههم﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكْبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع. وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء. وقال شَمِر بن عطية: هو صفرة الوجه من قيام الليل. قال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى. وقال الضحاك: أما أنه ليس بالنَّدْب في وجوههم ولكنه الصفرة. وقال سفيان الثَّوْريّ: يصلّون بالليل فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم؛ بيانُه قوله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً. وقال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ قال الفرّاء: فيه وجهان، إن شئت قلت المعنى ذلك مثلهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً، كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على ﴿الإنجيل﴾ وإن شئت قلت: تمام الكلام ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدأ فقال ومثلهم في الإنجيل. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مثلان، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على ﴿التوراة﴾. وقال مجاهد: هو مثل واحد؛ يعني أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل؛ فلا يوقف على ﴿التوراة﴾ على هذا، ويوقف على ﴿الإنجيل﴾، ويبتدىء ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ على معنى وهم كزرع. و ﴿شطأه﴾ يعني فِراخه وأولاده؛ قاله ابن زيد وغيره. وقال مقاتل: هو نبت واحد؛ فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه. قال الجوهري: شَطْءُ الزرع والنبات فراخه، والجمع أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ خرج شَطْؤه. قال الأخفش في قوله ﴿أخرج شطأه﴾ أي طَرَفه. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشْطِىء إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشطء على وجه الثرى ... ومن الأشجار أفنان الثمر

الزجاج: أخرج شطأه أي نباته. وقيل: إن الشطء شوك السُّنْبُل؛ والعرب أيضاً تسميه: السَّفَا؛ وهو شَوْك البُهْمَى[1]؛ قاله قُطْرُب. وقيل: إنه السنبل؛ فيخرج من الحبة

(١) البهمى: نبت تجد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر.

عشر سنبلات وتسع وثمانٍ؛ قاله الفراء، حكاه الماوردي. وقرأ ابن كثير وابن ذكوان ﴿شَطَأَه﴾ بفتح الطاء؛ وأسكن الباقون. وقرأ أنس ونصر بن عاصم وابن وثّاب ﴿شَطَاه﴾ مثل عصاه. وقرأ الجَحْدَرِيّ وابن أبي إسحاق ﴿شَطَه﴾ بغير همز؛ وكلها لغات فيها.

وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبيّ ﷺ؛ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبيّ ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قَوِيَ أمره؛ كالزرع يَبْدُو بعد البَذْر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباتُه وأفراخه. فكان هذا من أصح مَثَلَ وأقوى بيان. وقال قتادة: مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينْهَوْن عن المنكر. ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي قوّاه وأعانه وشدّه؛ أي قوّى الشطءُ الزرع. وقيل بالعكس؛ أي قوّى الزرعُ الشطءَ. وقراءة العامة ﴿آزره﴾ بالمدّ. وقرأ ابن ذَكوان وأبو حَيْوَةَ وحُميد بن قيس ﴿فَأَزَرَهُ﴾ مقصورة؛ مثل فَعَلَه. والمعروف المدّ. قال امرؤ القيس:

بمَحْنِيَة[1] قد آزر الضّالَ نَبْتُها مَجَرّ جيوش غانمين وخُيَّبِ

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ على عوده الذي يقوم عليه فيكون ساقاً له. والسُّوق: جمع الساق. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي يعجب هذا الزرع زرّاعَه. وهو مَثَلٌ كما بيّنا؛ فالزرع محمد ﷺ، والشَّطْءُ أصحابه؛ كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فقَوُوا؛ قاله الضحاك وغيره. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ اللام متعلقة بمحذوف؛ أي فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وعد الله هؤلاء الذين مع محمد؛ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة. ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ أي ثواباً لا ينقطع وهو الجنة. وليست ﴿مِن﴾ في قوله ﴿منهم﴾ مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم، ولكنها عامة

---

(١) المحنية (بالتخفيف): واحدة المحاني، وهي معاطف الأودية. والضال (بتخفيف اللام): شجرة السّدر.

مجنّسة؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿فٱجتنبوا الرِّجْس من الأوثان﴾(١) لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس؛ أي فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان، إذ كان الرجس يقع من أجناس شَتّى، منها الزنى والربا وشرب الخمر والكذب؛ فأدخل ﴿مِن﴾ يفيد بها الجنس وكذا ﴿منهم﴾؛ أي من هذا الجنس، يعني جنس الصحابة. ويقال: أنفق نفقتك من الدراهم؛ أي اجعل نفقتك هذا الجنس. وقد يخصص أصحاب محمد ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإن وعد الله جميع المؤمنين المغفرة. وفي الآية جواب آخر: وهو أن ﴿من﴾ مؤكدة للكلام؛ والمعنى وعدهم الله كلَّهم مغفرة وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول] العربي: قطعت من الثوب قميصاً؛ يريد قطعت الثوب كلّه قميصاً. و ﴿مِن﴾ لم يبعض شيئاً. وشاهد هذا من القرآن ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُو شِفَاءٌ﴾(٢) معناه وننزل القرآن شفاء؛ لأنّ كل حرف منه يشفي، وليس الشفاء مختصًّا به بعضه دون بعض. على أن من اللغويين من يقول ﴿من﴾ مجنِّسة؛ تقديرها ننزل الشفاء من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زُهير:

أمِــن أمّ أوْفَــى دِمْنَــةٌ لــم تَكَلَّــمِ(٣)

أراد من ناحية أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ، أم من منازلها دِمْنَة. وقال الآخر:

أخُو رغائبَ يعطيها ويسألها يأبَى الظُّلامةَ منه النَّوْفَلُ الزُّفَرُ(٤)

فـ ﴿ـمن﴾ لم تُبَعِّض شيئاً، إذ كان المقصد يأبى الظلامة لأنه نَوْفَلٌ زُفَرُ. والنَّوْفَل: الكثير العطاء. والزُّفَر: حامل الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة ـ روى أبو عروة الزبيريّ من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية ﴿محمد

---

(١) آية ٣٠ سورة الحج.
(٢) آية ٨٢ سورة الإسراء.
(٣) الدمنة: آثار الناس وما سودوا بالرماد. لم تكلم: لم تبين؛ والعرب تقول لكل ما بين من أثر وغيره: تكلم؛ أي ميز، فصار بمنزلة المتكلم.
(٤) البيت لأعشى باهلة.

رسولُ اللَّهِ والذِين معه﴾ حتى بلغ ﴿يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفارَ﴾. فقال مالك: مَن أصبح من الناس في قلبه غَيْظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر.

قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله. فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رَدّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿محمدٌ رسولُ اللَّهِ والذِين معه أشِدّاءُ على الكُفّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم وَأَمْوَالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ ورِضْوَاناً ـ إلى قوله ـ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2]، ثم قال عَزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم ـ إلى قوله ـ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾[3]. وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الناسِ قَرْنِي ثم الذين يلونهم» وقال: «لا تَسُبُّوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً لم يدرك مُدَّ أَحدهم ولا نَصِيفه» خرجهما البخاري. وفي حديث آخر: «فلو أن أحدكم أنفق ما في الأرض لم يدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه». قال أبو عبيد: معناه لم يدرك مدّ أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد؛ فالنصيف هو النصف هنا. وكذلك يقال للعُشْر عَشِير، وللخُمس خميس، وللتّسع تَسيع، وللثّمن ثَمين، وللسّبع سَبيع، وللسّدس سَدِيس، وللربع رَبيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث. وفي البَزّار عن جابر مرفوعاً صحيحاً: «إن الله اختار أصحابي على العالمين سِوي النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ـ فجعلهم أصحابي». وقال «في أصحابي كلِّهم خير». وروى عُوَيم بن ساعدة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وَجَلّ اختارني واختار لي أصحابي فجعل لي منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً فمن سَبَّهم فعليه لعنة

(١) آية ٢٣ سورة الأحزاب. (٢) آية ٨ سورة الحشر. (٣) آية ٩ سورة الحشر.

الله والملائكةِ والناسِ أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً[١] ولا عَدْلاً».

والأحاديث بهذا المعنى كثيرة؛ فحَذارِ من الوقوع في أحد منهم، كما فعل مَن طعن في الدين فقال: إن المُعَوِّذَتَين ليستا من القرآن، وما صحّ حديث رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل إلا عن عقبة بن عامر، وعقبة بن عامر ضعيف لم يوافقه غيره عليها، فروايته مطّرحة. وهذا ردّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلته لنا الصحابة من المِلة. فإن عقبة بن عامر بن عيسى الجُهَني ممن روى لنا الشريعة في «الصحيحين البخاري ومسلم» وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم وأثنى عليهم ووعدهم مغفرة وأجراً عظيماً. فمن نسبه أو واحداً من الصحابة إلى كذب فهو خارج عن الشريعة، مبطل للقرآن طاعن على رسول الله ﷺ. ومتى ألحِق واحد منهم تكذيباً فقد سُبّ؛ لأنه لا عار ولا عَيْب بعد الكفر بالله أعظمُ من الكذب، وقد لعن رسول الله ﷺ مَن سَبّ أصحابه؛ فالمكذّب لأصغرهم ـ ولا صغير فيهم ـ داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ، وألزمها كلَّ مَن سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه. وعن عمر بن حبيب قال: حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة تنازعها الحضور وعَلَت أصواتهم، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضهم الحديث وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأن أبا هريرة مُتَّهَم فيما يرويه، وصَرّحوا بتكذيبه، ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونَصَر قولهم فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن النبيّ ﷺ وغيره؛ فنظر إليّ الرشيد نظر مُغْضِب، وقمت من المجلس فانصرفت إلى منزلي، فلم ألبث حتى قيل: صاحب البريد بالباب؛ فدخل فقال لي: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنّط وتكفّن! فقلت: اللّهُمّ إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيّك أن يطعن على أصحابه،

---

(١) الصرف: التوبة. وقيل: النافلة. والعدل: الفدية. وقيل: الفريضة.

فَسَلَّمَني منه. فأدخلت على الرشيد وهو جالس على كرسي من ذهب، حاسر عن ذراعيه، بيده السيف وبين يديه النِّطع[١]؛ فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمر بن حبيب ما تلقّاني [أحد][٢] من الرد والدفع [لقولي بمثل][٢] ما تلقيتني به؛ فقلت: يا أمير المؤمنين؛ إن الذي قلته وجادلت عنه فيه ازدراء على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء[٢] به]؛ إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلّه مردود غير مقبول؛ فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله! وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

قلت: فالصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السُّنّة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شِرْذِمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم؛ فيلزم البحث عن عدالتهم. ومنهم من فرق بين حالهم في بُداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدّ من البحث. وهذا مردود؛ فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعليّ وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكّاهم ورضي عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَغْفِرَةً وَأَجراً عَظِيماً﴾. وخاصّةً العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القُدْوَة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم؛ إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب. وسيأتي الكلام في تلك الأمور في سورة ﴿الحجرات﴾ مبيّنة إن شاء الله تعالى.

---

(١) النطع (بالكسر): بساط من الأديم.

(٢) زيادة عن كتاب تاريخ بغداد في ترجمة عمر بن حبيب.